جامعة الدول العربية
المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم
مكتب تنسيق التعريب
الرباط

اللِّسان العربي

دورية متخصصة محكمة نصف سنوية تصدر عن مكتب تنسيق التعريب بالرباط
التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

العدد : 71

مطبعة ومكتبة الأمنية ش.م.م
IMPRIMERIE LIBRAIRIE OMNIA s.a.r.l

الإيداع القانوني : 1964/13

الرقم الدولي : ISSN : 0258 -3976

تصميم الغلاف : أحمد جريد

المدير المسؤول
أ. د. عبد الفتاح الحجمري

مسؤولة التحرير
أ. إيـمان محمد كامل النصر

العنوان :82، زنقة وادي زيز – أكدال – الرباط – ص.ب : 290 (المملكة المغربية)
الفاكس : 05.37.77.24.26 (212) / الهاتف 05.37.77.24.22/(212) 06 61.59.02.03 (212)
الموقع على الشابكة (الإنترنت) :www.arabization.org.ma
البريد الإلكتروني : bc.alecso@gmail.com/bca@arabization.org.ma

اللجنة الاستشارية للمجلة

أ.د. محمود أحمد السيد : نائب رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق/سوريا.

أ.د. محمود كامل الناقة : عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة/مصر.

أ.د. عباس الصوري : أستاذ التعليم العالي – جامعة محمد الخامس/الرباط

أ.د. ليلى المسعودي : أستاذة التعليم العالي – جامعة ابن طفيل/القنيطرة.

أ.د. أحمد العلوي (حسني أطلس) : رئيس جمعية اللسانيين المغاربة أستاذ التعليم العالي – جامعة محمد الخامس/الرباط.

أعضاء المجلس العلمي

أ.د. مروان المحاسني : رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق/سوريا.

أ.د. عبد الكريم خليفة : رئيس مجمع اللغة العربية الأردني/الأردن.

أ.د. عبد الرحمن الحاج صالح : رئيس المجمع الجزائري للغة العربية/الجزائر.

أ.د. علي أحمد محمد باكير بابكر : رئيس مجمع اللغة العربية/السودان.

أ.د دفع الله عبد الله الترابي : رئيس الهيئة العليا للتعريب/السودان.

أ.د محمد العربي ولد خليفة : رئيس المجلس الأعلى للغة العربية/الجزائر.

أ.د محمود أحمد السيد : نائب رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق/سوريا.

أ.د. محمد محمد الجوادي : عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة/ مصر.

أ.د.مصطفى عبد السميع محمد : مركز البحوث التربوية والتنمية/مصر.

أ.د. أحمد العلوي (حسني أطلس) : رئيس جمعية اللسانيين المغاربة/ المغرب.

أ.د. زيد إبراهيم العساف : مدير المركز العربي للتعريب والترجمة والتأليف والنشر/ سوريا.

أ.د. عبد الفتاح الحجمري : مدير مكتب تنسيق التعريب بالرباط/المغرب.

أ.د. عبد اللطيف عبيد : أستاذ باحث – المعهد العالي للغات/تونس.

شروط النشر

تنشر المجلة البحوث الرصينة المتعلقة بقضايا اللغة العربية والتعريب والترجمة والمصطلح، المحررة باللغة العربية – أساسا – مع إمكان النشر باللغتين : الإنجليزية والفرنسية، فضلا عن نشر المشروعات المعجمية الصادرة باللغات الثلاث المشار إليها.

– التقيّد بالمعايير العلمية والأكاديمية المتعارف عليها، والحرص على التوثيق وحسن استخدام المصادر والمراجع.

– ترسل البحوث، مطبوعة ومصححة، مسجلة على أقراص حاسوبية ليزرية أو بالبريد الإلكتروني.

– تنشر البحوث في المجلة، بعد أن تخضع للتحكيم من قِبَل لجنة تحكيم من ذوي الاختصاص، للبت في مدى صلاحيتها للنشر، ولا تُرَدُّ البحوث إلى أصحابها، سواء نشرت أم لم تنشر.

– يشترط في البحث أن لا يكون قد نشر أو قُدّم للنشر في وسيلة نشر أخرى، ويجوز للباحث أن ينشر بحثه في مكان آخر، بعد نشره في اللسان العربي، بشرط أن يشير إلى ذلك.

– يجب أن تكون الصوّر والجداول واضحة إذا وجدت في البحث.

الآراء والمعلومات الواردة في البحوث المنشورة في المجلة لا تعبر – بالضرورة – عن وجهة نظر المنظمة ومكتبها بالرباط.

– يسمح باستعمال المواد المنشورة في المجلة، بشرط الإشارة إلى مصدرها.

– ترتيب البحوث يخضع لاعتبارات فنية.

– يرسل الكاتب الذي لم يسبق له الكتابة في المجلة مع بحثه سيرته الذاتية والعلمية وعنوانه.

محتويات

- افتتاحية 11
- مقاربة جديدة للتشكيل الآلي باستخدام برنامج الخليل للتحليل الصرفي
محمد ولد عبد الله ولد بباه، عز الدين مزروعي،
عبد الحق لخواجة، عبد الوافي مزيان، شنوفي أمين 19
- خصائص الكتابة العربية في ضوء الرسم القرآني عند ابن البناء المراكشي
د.نور الدين دنياجي 51
- أسـلوب التّقديم والتّأخير بين عبد القاهر الجرجاني ونوام تشومسكي
عاليـة زروقـي 83
- في الحجاج المغالطي سبيلا إلى الهيمنة باللّغة
أ. الصحبي هدوي..... 111
- بين الفصحى والعامية: أغاليط الخطاب التلهيجي
د. محمد وحيدي..... 129
- اللغة العربية في الهند: فن وابتكار
د. رحمة بنت أحمد الحاج عثمان..... 149
- وسائل الإعلام بين مغبّة اللّحن والعجز عن تخريج الصَّواب
د.عبد القادر سلاّمي..... 183
- المعجم الشعري عند علال الفاسي بين التقليد والتحديث
أ. فتيحة بلعباس..... 201
- التعدد اللغوي والتنمية البشرية
د. علي القاسمي..... 219

- عن "تأهيل" اللغة العربية

د. موسى الشامي 231

- Les problèmes de transmission et de diffusion de la langue arabe un obstacle au processus d'arabisation

Abdelaziz Kesbi.....241

افتتاحية

لم يعد تعريب التعليم الجامعي في ضوء التقارير العامة للتنمية العربية (تقرير 2003) قضية قومية فحسب، بل غدا واحدا من المستلزمات الأساسية لتنمية القدرات الذهنية والملكات الإبداعية لدى الجيل الجديد وبلغته الأصلية. وفي معرض الحديث عن مصادر المعرفة بلغات غير العربية، يشير التقرير إلى أن ترجمة الأعمال الأجنبية إلى العربية تعاني من القصور والشُّح، ولا تواكب التجدد المعرفي التراكمي المتسارع في العالم. كما أن القصور في تدريس اللغة العربية قد ترك آثاره على استخدام العربية الفصحى في المجتمع بصورة عامة. إذ لم تعد الفصحى لغة للتحادث، بل أداة للبيانات الرسمية والعامة. بل إنها كثيرا ما تستخدم للدلالة على الفصاحة والبلاغة لدى المتكلم، ولا تستخدم بوصفها وسيلة للتواصل الحقيقي المباشر بين الناس[1].

عن وضع اللغة في المجتمع

يبدو وضع اللغة (أية لغة) في المجتمع محكوما بالتعدد اللغوي سواء تعلق الأمر بمنحى التداول المحلي (اللغات المحلية أو الدوارج)، أو بالمنحى الوطني (اللغات الوطنية)؛ بهذا المعنى،تصبح فلسفة التعريب اليوم دالة على جدوى انفتاح اللغة العربية على اللغات والثقافات الأجنبية والإنسانية. صحيح أن كل تعدد لغوي ينتج عنه توتر لغوي، كما هو الحال غداة استقلال الدول العربية عن المستعمر، وسعيها إلى التحرر من هيمنته اللغوية بنهج سياسة تعريبية في التعليم والحياة العامة؛ إنه توتر من طبيعة إيديولوجية يدافع عن اللغة بوصفها سمة هوية وكينونة وجود. من هذه الزاوية، تستطيع السياسة اللغوية أن تتدخل في

(1) راجع : http://www.un.org

العلاقات بين اللغات في أوضاع التعدد اللغوي، حين يجب اختيار لغة وطنية من بين عدد من اللغات الموجودة، أو تهيئة تعدد لغوي في إحدى المناطق، أو اختيار لغات التعليم ووسائل الإعلام[2]. وليس من الصدفة في شيء أن تحتلّ السياسة اللغوية صلب كل تفكير في التخطيط اللغوي بغية تمثل منظومة تعليمية عصرية ومنتجة؛ ولا حاجة للتذكير أن "السياسة اللغوية هي مجمل الخيارات الواعية المتخذة في مجال العلاقات بين اللغة والحياة الاجتماعية، وبالتحديد بين اللغة والحياة في الوطن[3].

عن اختيار اللغة وقضايا التنمية

تتطلب هذه الاعتبارات،من غير شكّ،عدم إغفال العلاقة الموجودة بين الاختيارات اللغوية وقضايا التنمية والاندماج في مجتمع المعرفة، بما أن الأمر يتعلق باستخدام اللغة العربية في التعليم العالي والبحث العلمي، أي يتعلق بمجال بحث جامعي تتقاطع ضمنه متطلبات السوق والعلم، الاقتصاد والفكر، فضلا عن مجمل الأهداف التي تندرج عموما في دائرة التكوين وتنمية المعارف والمساهمة في جهود الابتكار والتخييل.

وقد تحدث الباحثون والمختصون في ضوء هذا التوجه عن التعريب المُوجّه والتخصصي واضعينه موضع التجريب والتنفيذ في العديد من الخطط والبرامج والبحوث وتوصيات المؤتمرات والندوات، لأن استهلاك العلوم والتقنيات في التعليم العالي بقي معتمدا على وساطة اللغة الأجنبية (الفرنسية والإنجليزية خاصة)، مثلما بقيت طرق التلقين ومناهجه متعلقة بها، وانحصرت إشكالية التعريب في إيجاد المصطلح وبناء القياسات الصوتية والدلالية من غير أن يكون التعريب شاملا للمواد العلمية في مختلف أسلاك التعليم. **التعريب**

(2) كالفي جان لويس: حرب اللغات والسياسة اللغوية، ترجمة حمزة حسن، مركز دراسات الوحدة العربية / المنظمة العربية للترجمة 2008 ص 223.

(3) نفسه: ص 221.

الشامل تعريب مُنتج، لأن تعلّم اللغات الأجنبية يحقق الجودة في تلقي الخبرة، كما أن استخدام اللغة العربية في البحث يجعل منها لغة قادرة على مواكبة التطورات العلمية والتقنية لا مجرد لغة للأدب والفقه والتعبّد.

ينبغي الاعتراف اليوم أن المناهج التعليمية في الجامعة لا تسمح بحدوث تطوّر كبير على مستوى استخدام اللغة العربية في بعض التخصصات العلمية والتقنية،مثلما لا تسمح مستلزمات تعريب التعليم العالي بالتوصل إلى مقترحات عملية وميسّرة لتجاوز اعتبار التعريب قضية قومية ودينية،وأيضا قضية أمن ثقافي[4]، كما أن الواقع يدلّ أن التوصيات التي توصلت إليها مؤتمرات التعريب على نطاق الساحة العربية غير ملزمة للدول العربية، إن لم يكن ثمة قرار سياسي يدعمها[5]؛ كما أن تدبير المعرفة في زمن العولمة يضع أمام البحث الجامعي تحديات جديدة من أجل إيجاد أنظمة تكوين ملائمة، وتقنيات تلقين حديثة للرفع من مستوى التمكّن من اللغة العربية حتى لا تظلّ لغة متخلفة عن ركب المعرفة العالمية، ودحض كل الدعوات التي تجعل منها لغة متعارضة مع العلم، أو غير قادرة على الانتماء لروح العصر ولقيم الحداثة.

لهذه الدعوات أبعاد إيديولوجية غير خافية، وهي عادة ما تطغى على الجدل السياسي والحراك الاجتماعي كلما تعلّق الأمر بالتفكير في تدبير السياسة اللغوية في التعليم والحياة العامة. ولذلك، فإن وضع سياسة لغوية متوازنة وفاعلة لا يمكنها أن تغفل الصلة الكامنة وراء اللغة والسلطة السياسية[6] المتحكمة في إيجاد "توازن لغوي" بين اللغة الوطنية واللغات الأجنبية المتحاقلة

(4) ندوة: المسؤولين عن تعريب التعليم العالي في الوطن العربي، المركز العربي للتعريب والترجمة والنشر، الهيئة العليا للتعريب بالسودان، الخرطوم، 1998.

(5) أنظر بحث الدكتور محمود أحمد السيد : تعريب التعليم العالي قضية ومستلزمات، ضمن المرجع السابق : ص 43 وما بعدها.

(6) 1988 Lapierre Jean-William,Le pouvoir politique et les langues,PUF

معها؛ علما أن لكلّ لغة خصائص ثقافية تعكس فهما للعالم والأشياء والعلاقات، وليست مجرد أداة تواصلية محايدة في التعبير والتعليم والبحث العلمي.

كانت حاجة الدول العربية ماسة غداة استقلالها للتعريب لا بهدف التخلص من الإرث اللغوي الاستعماري فحسب، بل من أجل أن يكون للعربية موقعها في اختيار التوجهات العامة للمجتمعات. وتظل تصوّرات عبد الله العروي في هذا الإطار ممتلكة لراهنيتها وجديرة بالاعتبار لأنها استطاعت تسمية أسس للتعريب لا بوصفه خيارا لغويا وتقنيا، بل بوصفه أداة فكرية قادرة على بناء المعرفة وتوسيع مشروع النهضة العربية. بهذا المعنى، اعتبر العروي أن قضية التعريب هي قضية اللغة في المجتمع العربي، ولم تتولّد عن حالة طارئة غير متوقعة، ولن تحلّ بالتالي باتخاذ بعض القرارات في حقل التربية أو السياسة الإعلامية. ذلك أن كل مجتمع يعرف مشكلة لغوية، والفرق بين مجتمع وآخر، كامن في مقدار الوعي بالمشكلة، ومقدار الجدية والهمّة في معالجتها[7]. يقرّ عبد الله العروي، في هذا السياق، أنه لا يوجد مجتمع يستعمل لغة واحدة؛ إن المستويات اللغوية متفاوتة في كلّ مجتمع وهي أربعة: **اللهجات** وهي المستعملة في الحياة اليومية؛ و**اللسان المكتوب** بوصفه وسيلة التخاطب الرسمية؛ **اللغات الاصطلاحية** التي تلجأ إليها فئات متخصصة مثل أصحاب الصناعات أو المعارف. فهناك معجم البنائين، ومعجم الأطباء والصيادلة، ومعجم الوراقين ...؛ وأخيرا **المنظومات الرمزية** التي تنتجها العلوم النظرية التي لا تقنع بالوصف وتحاول الكشف عن العلل. آخذا بالاعتبار ما سلف، يستخلص عبد الله العروي أن لمشكل التعريب وجهين:

- كوْنُ لسان أجنبي يحل محلّ اللسان الأصلي في دور الوسيط بين اللغات الاصطلاحية التي تستعملها الفئات المختلف في المجتمع.

(7) عبد الله العروي: ثقافتنا في ضوء التاريخ، المركز الثقافي العربي ، ط 4 1997 ص 209 .

– وكون هذا اللسان الأصلي، التي ضبطت قواعد توليد مفرداته وتركيبها في جمل مفيدة وتغيير معانيها، منقطعا عن اللغات التي تكون بدورها قد توقفت عن النموّ بسبب جمود المجتمع[8].

عن أساسيات تخطيط لغوي علمي متوازن ومقنع

يعيش العالم العربي اليوم لحظة فارقة محفوفة بانتظارات وتحديات تخص مسار التنمية الاجتماعية وتكوين الإنسان وإنجازات قيم الحداثة والديموقراطية. وترعى **المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم** في هذا الإطار عملا نبيلا في إطار الوحدة الثقافية والفكرية العربية مانحة لأسئلة القيم في التربية والتعليم والبحث العلمي مكانة استثنائية من خلال خطط وبرامج آخرها **"مشروع النهوض باللغة العربية للتوجه نحو مجتمع المعرفة"**؛ أي نحو مجتمع عربي لم يعد محكوما بأواصر المحافظة، بل أضحت تتجاذبه أقطاب أخرى أفرزتها سياقات التواصل الثقافي والحوار الحضاري؛ ليس التوجه نحو مجتمع المعرفة شعارا عابرا ومؤقتا، بل هو متغير أساسي للتفكير في الآليات الخاصة بتدابير الانتقال إلى مجتمع المعرفة عن طريق تثبيت الهوية العربية، والمحافظة عليها ومعالجة مسائل التنمية البشرية، ونشر اللغة العربية وترقية استعمالها في المجتمع والمحافل الإقليمية والدولية، كما يهدف المشروع إلى مواجهة تحديات مجتمع المعرفة بالتفكير في بعض أساسيات تخطيط لغوي علمي متوازن ومقنع.

من المفيد الإشارة هنا إلى أن الحلقة الأولى من مشروع"النهوض باللغة العربية للتوجه نحو مجتمع المعرفة" اهتمت بفهم **" أسباب ومسببات تدني تعليم اللغة العربية في الوطن العربي"** لتستنتج أنه ليس لتدني مستوى تعليم اللغة العربية سبب واحد، وإنما أسبابه عديدة تتصل بالاختيارات الثقافية واللغوية، وبطبيعة اللغة العربية ، وبالوضعية اللغوية السائدة في العالم العربي[9].

(8) نفسه : ص 210 / 214.

(9) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: مشروع النهوض باللغة العربية للتوجه نحو مجتمع المعرفة، أسباب ومسببات تدني مستوى تعليم اللغة العربية في الوطن العربي، منسق المشروع: ذ. لطوف العبد الله، تحرير: د. عبد اللطيف عبيد، تونس 2010، ص 58.

كما اهتمت الحلقة الثانية من المشروع بتحليل موضوع **"استخدام التقانات الحديثة في تطوير اللغة العربية"** ؛ وتهدف هذه الحلقة توسيع النظر في المعجمية الحاسوبية والترجمة الآلية وأدوارها في إنشاء شبكة عربية للمصطلحات تستند على العديد من البرامج الخاصة بالمصطلحات والمعالجة الآلية للغة العربية، وبرامج البحوث الدلالية وأساليب تقويم المهارات اللغوية.

وتناول الجزء الثالث من هذا المشروع موضوع: **"السياسة اللغوية القومية للغة العربية"**، نسّق المشروع الدكتور لطوف العبد الله وحرره الأساتذة شكري المبخوت وخالد الوغلاني ومحمد الشيباني، وقد أبرز المشروع أهمية تنمية الكفاءات البشرية والاستثمار في تكوين الإطارات والنخب المواكبة للمستجدات في جميع الميادين اللغوية والعلمية والتقانية والإدارية؛ من هنا ضرورة إنشاء الهياكل والمؤسسات القادرة على أداء مهامّ الرصد العلمي والتشخيص الموضوعي... فضلا عن إيجاد التشريعات والقوانين المعبرة عن الإرادة السياسية والفاتحة لآفاق جديدة في التنمية الاجتماعية والثقافية والاقتصادية.

تتجلى، من هذا المنظور، أهمية هذا المشروع وغناه وضرورته، لأنه يستند على تقويم علمي ونقدي للنهوض باللغة العربية بعدما بيّنت التجارب عدم الجدية في تنفيذ العديد من القرارات والتوصيات والتقارير، والاستغلال المتسق للمصطلحات الموحّدة. إن الوقوف على العوائق التي تحول دون النهوض باللغة العربية تنتج، في الغالب الأعمّ، عن واقع لغوي عربي مركّب ومعقّد موسوم بالارتباك والالتباس على صعيد المنظومة التربوية والتعليمية، وغياب التنسيق العربي، أو بالأحرى تعثره أثناء رسم سياسة لغوية عربية متجانسة ومراعية للتنويعات الثقافية والاجتماعية والقانونية.

يقترن استعمال المصطلح في التعليم العالي والبحث العلمي بتأهيل اللغة العربية وفق ثلاث غايات كبرى:

1. التمكّن من اللغة العربية.
2. تجديد المحتوى وبرامج التكوين في العلوم الإنسانية والتكنولوجيات من أجل ضمان التنافسية العلمية.
3. الاعتماد على فلسفة للتعريب تعلي من شأن اللغة الوطنية، وتنفتح – في الآن ذاته – على اللغات والثقافات الأجنبية والإنسانية.

من الممكن أن تُيسّر هذه الغايات تهيئة علمية مناسبة لاستخدام المصطلح في التعليم والبحث العلمي؛ فدورها إيجابيّ في دعم البحث العلمي ما دامت الجامعات العربية تعرف خيارا لغويا غير مستقرّ بين تكوين باللغات العربية أو الفرنسية والإنجليزية. يضاف إلى ذلك، صعوبة أخرى متمثلة في غياب الاستغلال المتسق للمصطلحات وتوزع الرصيد الاصطلاحي وتعدّده وازدواجيته بين التعريب والترجمة. إن امتلاك رصيد لغوي موحّد، وتنسيق الجهود البحثية وتوفير شبكة عربية للمصطلحات وإنشاء معجمية حاسوبية محيّنة... هي إجراءات كافية لمواجهة صعوبات تدفق العلوم ومواكبة المستجدات،كما أنها إجراءات تسمح للغة العربية بإقامة تفاعل نقدي مع المعرفة، وفي مختلف مجالات البحث العلمي والاجتماعي والتقني.

أ.د عبد الفتاح الحجمري

مقاربة جديدة للتشكيل الآلي باستخدام برنامج الخليل للتحليل الصرفي[*]

محمد ولد عبد الله ولد بباه، عز الدين مزروعي[**]،
عبد الحق لخواجة، عبد الوافي مزيان، شنوفي أمين

ملخص :

نقدّم في هذا البحث مقاربة جديدة للتشكيل الآلي لنصوص اللغة العربية الفصحى. وقد أطلقنا على برنامج التشكيل الآلي المنجز الذي يعتمد هذه المقاربة اسم **برنامج الخليل للتشكيل الآلي**. وتتكوّن عملية المعالجة التي تتم في هذا البرنامج من مستويين. يعتمد المستوى الأول على مخرجات برنامج عربيّ مفتوح المصدر هو برنامج الخليل للتحليل الصرفيّ، وتحتوي هذه المخرجات على التشكيلات الممكنة للكلمة خارج سياقها من النص. بينما يعتمد المستوى الثاني على منهج إحصائيّ باستخدام نماذج ماركوف الخفية (Hidden Markov Models)

(*) تم تقديم هذا البحث في صيغته الأولى مرفقا ببرنامج التشكيل الآلي إلى جائزة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم للإبداع والابتكار التقني للباحثين الشبان بالوطن العربي سنة 2012 ونال عليه الباحث محمد ولد عبد الله ولد بباه المركز الثاني في هذه المسابقة.

(**) فريق المعالجة الآلية للغة العربية، كلية العلوم - جامعة محمد الأول – وجدة/المغرب.

حيث قمنا باقتراح تصنيف جديد للكلمات العربية لتمثّل هذه الأصناف (classes) مشاهدات النموذج الماركوفي (observations) في حين تمثّل تسلسلات علامات التشكيل الممكنة الحالات المخفية للنموذج (hidden states).

ولضبط نتائج المستوى الأول من المعالجة عمدنا إلى إنشاء معجم للكلمات العربية شائعة التكرار، قُمنا بدمجه في إطار قواعد معطيات المحلل الصرفي. وقد تم استقاء هذا المعجم من ثماني مدونات عربية متاحة على الشابكة (الإنترنت) وتغطي مختلف المجالات. كما قُمنا بعملية تدريب البرنامج وتقييمه على نصوص متنوعة تشمل نصوصًا معاصرة من مدونة نيملار (NEMLAR Written Arabic Corpus) ونصوصًا تراثية من مدونة "تشكيلة".

1. مقدمة

يتميز نظام الكتابة العربية، في أغلب النصوص، بغياب علامات التشكيل، وهي: الصوائت القصيرة (short vowels)؛ أي الفتحة والضمة والكسرة، بالإضافة إلى علامات التنوين والشدّة والسكون. ويؤدي غياب هذه العلامات إلى زيادة معتبرة في غموض النص العربيّ تصل بحسب (Debili and Achour 1998) إلى التباس أكثر من 90% من النص. وعلى الرغم من كون القارئ المتعلّم يتمكن بسهولة من استرجاع علامات التشكيل الغائبة عن النص اعتمادًا على سياق الكلمات وعلى مدى معرفته بالصرف والنحو العربيين، إلا أن النص غير المشكول يمثّل عقبة بالنسبة لمتعلمي العربية من غير الناطقين بها والأشخاص ذوي الصعوبات في التعلم، كما يمثّل مصدرًا أساسيًا للغموض بالنسبة للحاسوب، وخصوصًا في حالة تطبيقات من قبيل تحويل النص المكتوب إلى كلام (Text to Speech) (Zitouni et al. 2006). فخلافًا للّغات الأوروبية التي يَسهل فيها نوعًا ما إيجاد التقابل بين المقاطع المكتوبة والفونيمات المنطوقة، فإن النص العربيّ غير المشكول لا محيد عن استرجاع علامات تشكيله لهذا الغرض (Vergyri and Kirchoff 2004). وتشير بعض الأبحاث من جهة

أخرى إلى أهمية استخدام النصوص المشكولة للرفع من كفاءة نظم التعرّف على الكلام (Messaoudi et al. 2004). كما تبرز أهمية التشكيل الآليّ في تطبيقات أخرى من قبيل المدونات الشجرية (Treebanks) والمحللات النحوية (Mammouri et al. 2006).

ونظرًا لأهمية استرجاع علامات التشكيل فقد ظهرت محاولات من قبل جهات عدة، طيلة العقود الماضية، من أجل تطوير مشكّل آليّ ذي كفاءة مقبولة. ويمكن أن نقسّم هذه المحاولات، على غرار أغلب تطبيقات المعالجة الآلية للّغة، إلى نوعين : أولهما محاولات أنجزتها شركات تجارية بهدف إنشاء مشكّل آلي مستقل أو مشكّل آلي يمثل جزءًا من تطبيق آخر، كالناطق الآلي أو المدقق الإملائي. ومن أبرز هذه المحاولات يمكن أن نذكر شركة "RDI" ومشكّلها الآلي "ArabDiac"، المشكّل الآلي لشركة صخر، والمشكّل الآلي لشركة "CIMOS". كما أطلقت شركة غوغل منذ سنتين خدمة "Tashkeel"، وهي خدمة مجانية للتشكيل الآلي للنصوص العربية بالنسبة لمتصفحي الشابكة (الإنترنت) غير أن هذه الخدمة لم تكتب لها الاستمرارية لأسباب نجهلها. وبالرغم من الأهمية البالغة لهذه المحاولات، إلا أن طبيعتها التجارية الاحتكارية تحول دون الحصول على تفاصيل كافية عن آلية عملها والمصادر اللغوية التي تستند عليها، فضلا عن شيفرتها المصدرية مما يجعل من تحسينها ودمجها في تطبيقات أخرى أمرًا بعيد المنال.

أما النوع الثاني من هذه المحاولات فيتمثل في جهود الباحثين ضمن مشاريع مراكز البحث الأكاديمية، وقد أسفرت هذه الجهود طيلة العقود الماضية عن ظهور محاولات متعددة في هذا المجال. ويساعد توفر أوراق بحثية منشورة حول هذه الأعمال في التعرف على المقاربات المنتهجة فيها، وهي مقاربات إحصائية في أغلب الأحيان، كما يساعد على أخذ فكرة عن كفاءة البرمجيات المنجزة فيها تحت ظروف الاختبار التي أخضعها لها مطوروها.

وسنتناول بالتفصيل في الفقرة الموالية من هذا البحث أهم الأعمال السابقة المنجزة في مجال التشكيل الآليّ للّغة العربية مع التركيز على المقاربات المعتمدة في هذه الأعمال. وفي الفقرة الثالثة نقدّم برنامج التشكيل الآلي الذي أنجزناه، عارضين مختلف مراحل المعالجة التي يقوم بها والنموذج الماركوفي الذي يعتمد عليه. ثم بعد ذلك نعرض تباعًا لمرحلة تدريب البرنامج ونتائج تقييمه والخلاصات التي خرجنا بها من هذا العمل.

2. الأعمال السابقة

يمكن تقسيم المقاربات المنتهجة من خلال الأعمال السابقة في التشكيل الآلي للنصوص العربية إلى ثلاثة أقسام:

2.أ. المقاربات اللغوية (rule-based approaches):

وفي هذا الإطار ظهرت بعض الأعمال التي تهدف إلى برمجة القواعد اللغوية الصوتية والصرفية والنحوية والإملائية بغية تشكيل الكلمات العربية. ومن بين بواكير هذه الأعمال يمكن أن نذكر الطريقة الواردة في (El-Sadany and Hashish 1988) التي تعتمد على استخدام القواعد الصرفية من أجل تشكيل نصف آلي (semi-automatic) للأفعال العربية. وفي (Debili and Achour 1998) يقدّم المؤلفان دراسة عن التشكيل الآليّ للنصوص العربية تناولاها من جانب غموض الكلمات المكتوبة ومدى إسهام كل من التحليل المعجميّ والتحليل الصرفيّ والعنونة النَحْوية في كشف الغموض، وبالتالي في تشكيل كلمات النصوص العربية.

غير أن ارتفاع نسبة الغموض وكثرة القواعد الصرفية والنحوية وتشابكها وعدم توفر مُحلّل نَحْوي فعّال، فضلا على أن بعض حالات الالتباس تتطلب تحليلا دلاليا، كل ذلك أسبابٌ تعوق إيجاد مُشَكِّل آليّ للنصوص العربية لا يعتمد سوى على القواعد اللغوية.

2.ب. المقاربات الإحصائية (statistical approaches)

بالنظر إلى النجاح الكبير الذي حقّقته الطرق الإحصائية في مجالات عدة من المعالجة الآلية للّغة، كالتعرف الآلي على الكلام والترجمة الآلية واسترجاع المعلومات وغيرها (Manning and Schütze 1999)، فقد انصبت أغلب الجهود في التشكيل الآلي للغة العربية على استعمال هذه الطرق. وقد تنوعت الأساليب المتبعة في هذا الباب، حيث اهتم بعض الباحثين بنماذج إحصائية تعالج التشكيل على مستوى الحروف، وركز آخرون على التشكيل على مستوى الكلمات، بينما اتبع فريق ثالث أسلوب المزاوجة بين الطريقتين السابقتين.

فقد سجل إمام وفيشر (Emam and Fischer, 2005) براءة اختراع مشكِّل آلي للغة العربية يستند في فكرته على طريقة الترجمة الآلية المُعتمدة على الأمثلة (exemple-based machine translation)، حيث يتم البحث ضمن قواعد معطيات الأمثلة بطريقة تراتبية (hierarchical) عن الجملة المراد تشكيلها ثم عن أجزاء الجملة وصولا إلى الكلمات لاختيار أكثر التشكيلات رجحانًا. كما يتم تطبيق نموذج إحصائيّ (n-gram model) على مستوى الحروف لتشكيل الكلمات التي لم يتم العثور عليها خلال عملية البحث التراتبية السابقة.

غير بعيد عن هذه الفكرة نجد في (Schlippe et al, 2008) مقاربة تعتمد على تقنية الترجمة الآلية الإحصائية (statistical machine translation) انطلاقًا من مدونة متوازية (parallel corpus) مكونة من النصوص المشكولة ومثيلتها غير المشكولة.

كما قدّم (Gal 2002) مقاربة ماركوفية لتشكيل نصوص اللغتين العربية والعبرية. وقد استخدم المؤلف في هذا العمل نصوص القرآن الكريم بالنسبة للعربية ونصوص الكتاب المقدس بالنسبة للغة العبرية. وتُمثّل الكلمات غير المشكولة مشاهدات النموذج المقترح في عمل "Gal" بينما تُمثّل الكلمات المشكولة

الحالات الخفية للنموذج. غير أن عملية التشكيل الآليّ للّغة العربية في هذا العمل تقتصر على الصوائت القصيرة فقط دون غيرها من علامات التشكيل.

وفي إطار المقاربات الماركوفية للتشكيل الآليّ نُسجّل أيضا أعمال كلٍّ من (Deltour 2003) و(Elshafei et al. 2006)، حيث استعرضت الباحثة في (Deltour 2003) جملة من الطرق الإحصائية للتشكيل الآليّ على مستوى الحروف والكلمات خَلُصت فيها إلى أن أفضل نتائج التشكيل في بحثها كانت باستخدام نماذج ماركوف الخفية. كما قدّم الباحثون في (Elshafei et al. 2006) مقاربة ماركوفية للتشكيل الآليّ تتميز عن مقاربة (Gal 2002) في كونها تتعامل مع جميع علامات التشكيل، كما تمت عملية التدريب والتقييم فيها على نصوص متنوعة لا على النص القرآني فقط.

وقدّم (الغامدي وآخرون 2006) برنامج التشكيل الآليّ المطوّر في مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية. ويعتمد هذا البرنامج على التسلسلات الرباعية (quad-grams) للحروف حيث يقوم بتشكيل كل حرف من النص استنادًا إلى أعلى احتمالية لتشكيله ضمن التسلسلات الرباعية التي يظهر فيها.

2.ج. المقاربات الهجينة (hybrid approaches)

ونعني بها المقاربات التي تُزاوج بين القواعد اللغوية والنماذج الإحصائية بغية استغلال نقاط القوة في كلتا الطريقتين. ومن أهم الأعمال التي أنجزت في هذا الإطار نذكر المشكّل الآلي "ArabiDaic" المطوّر من قبل شركة "RDI" (عطية 2007) حيث يعتمد هذا البرنامج على المحلل الصرفي "ArabMorpho" وعلى واسم لتحديد أجزاء الكلام "ArabTagger"، بالإضافة إلى نموذج إحصائي لاختيار التشكيل الأنسب للكلمات باستخدام خوارزمية A*.

كما قدّم المؤلفان في (Nelken and Shieber 2005) طريقة تعتمد على تقنية الآلات محدودة الحالات (finite state automata) لتشكيل النصوص العربية. وتُزاوج هذه الطريقة بين نماذج إحصائية ثلاثية على مستوى الكلمات

(word tri-gram) ورباعية على مستوى الحروف (quad-gram letter) وبين نموذج صرفيّ مُبسّط يتعرف على سوابق ولواحق الكلمات.

وفي (Zitouni et al, 2006) عَرَض المؤلفون مشكّلا آليا للنصوص العربية، وذلك باستخدام مصنّف إحصائي يعتمد طريقة الأنتروبيا القصوى (Maximum Entropy Classifier) (Berger et al. 1996). حيث تُستخدم الخصائص الصرفية ووسوم أجزاء الكلام لاستنتاج التصنيف الأرجح للكلمات.

وفي (Vergyri and Kirchoff 2004) يتم استرجاع علامات التشكيل بمزاوجة التحليل الصرفيّ والمعلومات السياقية مع نموذج عنونة إحصائية. إذ يذهب المؤلفان إلى اعتبار التشكيل مسألة عَنونة غير مسيرة (Unsupervised Tagging) يجري خلالها اختيار أرجح الحلول التي يعطيها محلل باكوالتر الصرفي (Buckwalter 2004). وغير بعيد عن هذه الفكرة يقدّم المؤلفان (Habash and Rambow, 2007) طريقة للتشكيل الآلي تعتمد من ناحية على محلّل باكوالتر الصرفيّ وعلى نموذج إحصائيّ لاختيار أرجح الحلول ضمن مخرجاته.

كما سبق لنا أن قدمنا (بباه وآخرون، 2011) مقاربة صرفية إحصائية للتشكيل الآليّ تعتمد على نموذج ماركوفي لتمثيل تسلسل أوزان الكلمات العربية. ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أنها تشترك مع المقاربة المقدمة في هذا البحث في كونهما تعتمدان معا على برنامج الخليل للتحليل الصرفي، بينما تختلفان في نقاط عدّة، أهمها: مشاهدات النموذج الماركوفي وحالاته الخفية (Observations and Hidden States). وتختلف أيضًا مدونتا التدريب المستخدمتان فيهما، كما أننا أجرينا في عملنا الحالي تعديلات على برنامج الخليل للتحليل الصرفيّ بإضافة قاعدة معطيات معجمية تتضمن الكلمات الأكثر تكرارًا بُغية ضبطها وتسريع مرحلة المعالجة الصرفية.

3. برنامج التشكيل الآلي المُنجز

نعرض في هذه الفقرة لبرنامج التشكيل الآلي الذي قمنا بإنجازه، وقبل أن نتناول الجوانب المتعلقة بآلية عمل البرنامج ونتائج تقييمه، لا بأس أن نشير بإيجاز إلى دواعي تسميته **"برنامج الخليل للتشكيل الآلي "**.

3.أ. دواعي التسمية

وقع اختيارنا لإطلاق هذه التسمية على برنامج التشكيل الآلي لسببين: أولهما، للبرنامج علاقة وثيقة ببرنامج الخليل للتحليل الصرفي[1]. حيث يعتمد المشكّل الآلي على مُخرجات هذا البرنامج من ناحية وعلى نموذج ماركوفي لاختيار أكثر التشكيلات رجحانًا من ناحية أخرى. أما السبب الثاني فلا يقلّ وجاهة عن سابقه، إذ إن الفضل في ابتكار علامات التشكيل المعروفة حاليًا يرجع إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 170 هـ)، وهي الطريقة التي أثبتت فعاليتها وعمليتها عبر الزمن حتى حصل الاتفاق على كتابة المصاحف بها بدلا من طريقة النقط المنسوبة إلى أبي الأسود الدؤلي (ت 69 هـ)[2].

3.ب. مراحل التشكيل

تتمّ عملية التشكيل الآليّ في البرنامج المُنجز عبر مرحلتين رئيسيتين كما هو مبين في الشكل 1.

(1) www.sourceforge.net/projects/alkhalil

(2) يذكر أبو عمرو الداني (ت 444 هـ) في كتاب المحكم في نقط المصاحف ما نصه: "وقال أبو الحسن بن كيسان قال محمد بن يزيد الشكل الذي في الكتب من عمل الخليل وهو مأخوذ من صور الحروف فالضمة واو صغيرة الصورة في أعلى الحرف لئلا تلتبس بالواو المكتوبة والكسرة ياء تحت الحرف والفتحة ألف مبطوحة فوق الحرف.. إلخ".

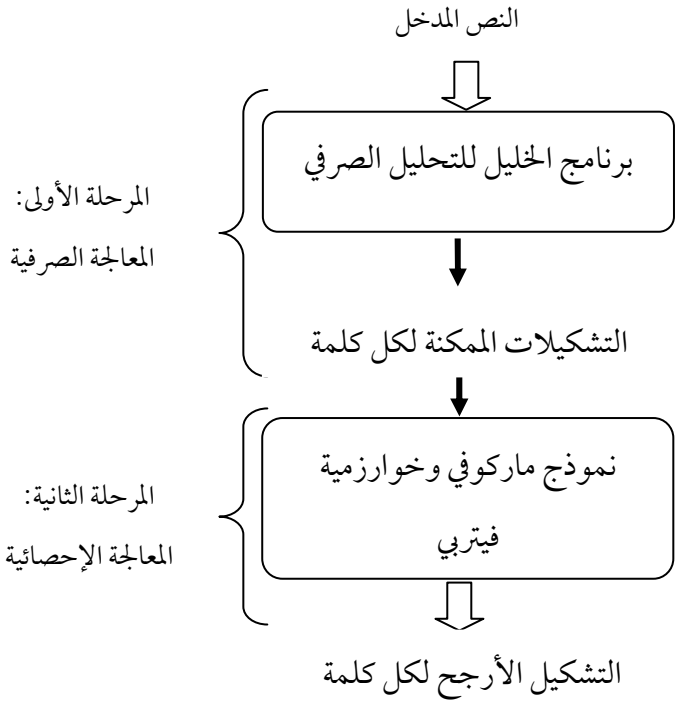

شكل 1: مراحل المعالجة في برنامج الخليل للتشكيل الآلي

وفي ما يلي نعرض لهذه المراحل بالتفصيل:

1. مرحلة المعالجة الصرفية

وتتمّ المعالجة في هذه المرحلة باستخدام برنامج الخليل للتحليل الصرفي، وتَهدف إلى استخراج جميع التشكيلات الممكنة لكل كلمة من كلمات النص المُدخل. ولمزيد من إيضاح هذه المرحلة نُقدّم نبذة موجزة عن برنامج الخليل للتحليل الصرفيّ وآلية عمله قبل أن نتناول التفاصيل المتعلقة بقاعدة المعطيات المعجمية التي أضفناها إليه.

نبذة عن برنامج الخليل للتحليل الصرفي

يعتبر برنامج الخليل للتحليل الصرفي (مزروعي وآخرون، 2011) أحد أهم المحللات الصرفية العربية مفتوحة المصدر. وقد تم إنجازه في إطار مشروع شراكة بين كل من جامعة محمد الأول والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ومدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية. كما روعيت عند إنجازه التوصيات والمعايير اللغوية والتقنية التي خرج بها المشاركون في اجتماع خبراء المحللات الصرفية العربية (إبريل 2009) بدمشق (حماده والبواب 2009).

ويقوم البرنامج بإعطاء تحليل صرفيّ للكلمات العربية وذلك بتحديد:

- حالات التشكيل الممكنة للكلمة.
- الزوائد التي تلحق بها (السوابق واللواحق).
- نوع الكلمة (اسم أو فعل أو أداة).

o يشمل نوع الكلمة في حالة الاسم: الأسماء الجامدة، أسماء الأعلام، المصادر (الأصلي، الميمي، المرة والهيئة)، المشتقات (اسم الفاعل، اسم المفعول، اسم الآلة ....)

o وفي حالة الفعل: الماضي مبنيًّا للمعلوم وللمجهول، المضارع مبنيًّا للمعلوم وللمجهول (مرفوعًا ومنصوبًا ومجزومًا ومؤكّدًا)، والأمر والأمر المؤكّد.

- الوزن (في حالة الأسماء والأفعال).
- الجذع.
- الجذر (في حالة الأسماء والأفعال).
- الحالة الإعرابية (في حالة الأسماء والأفعال)، وتشمل: الرفع والنصب والجر، الإفراد والتثنية والجمع، التذكير والتأنيث، التعريف والتنكير، التعدي واللزوم.

وتتلخص مراحل المعالجة الصرفية لكل كلمة خارج سياقها من النص في برنامج الخليل في ما يلي:

أولا : مرحلة التقطيع: وتهدف إلى تحديد السوابق واللواحق المحتملة للكلمة، وذلك من خلال عملية تقطيع (segmentation) يجري خلالها استخدام قواعد معطيات خاصة بالسوابق واللواحق. ومن المعروف أن هذه العملية تؤدي غالبًا إلى أكثر من تقطيع نظرًا للطبيعة الإلصاقية للغة العربية.

ثانيًا : تحليل أسماء الأعلام: ويتمّ خلالها معالجة كل تقطيع من التقطيعات المتحصّل عليها في المرحلة السابقة للتحقق من إمكانية أن تكون الكلمة المدخلة اسمًا علمًا. وفي هذه المرحلة يستعين البرنامج بلائحة من أسماء الأعلام تضم 6000 اسم علم.

ثالثًا : تحليل الأدوات: وفيها يُقارن البرنامج الجذوع المحتملة للكلمة المدخلة بلائحة الأدوات. وتضمّ هذه اللائحة حروف الجر والنصب والجزم والعطف والنداء والاستثناء وأدوات الشرط والاستفهام والنواسخ والضمائر المنفصلة والظروف وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة.

رابعًا: معالجة الأسماء: وفيها يتحقق البرنامج من إمكانية أن تكون الكلمة المدخلة اسمًا. وتتم هذه المرحلة عبر الخطوات التالية:

- تحديد الأوزان المُحتمَلة للكلمة، وذلك بمقارنتها بالأوزان الموجودة في قاعدة البيانات الخاصة بالأوزان الاسمية.
- استخلاص الجذور المُحتمَلة للكلمة والتحقق من وجودها في لائحة الجذور العربية.
- التحقق من توافق الجذور والأوزان المُحتمَلة، وذلك بالرجوع إلى قاعدة معطيات تضم الجذور العربية مرفقة بأوزان الأسماء المشتقة منها.

خامسا : معالجة الأفعال: وهي مرحلة مماثلة للمرحلة السابقة حيث تجري عبر الخطوات التالية:

- تحديد الأوزان المُحتمَلة للكلمة، وذلك باستخدام قاعدة البيانات الخاصة بالأوزان الفعلية.
- استخلاص الجذور المُحتمَلة للكلمة والتحقق من صحّتها.
- التحقق من توافق الأوزان والجذور المُستخلَصَة.

هذه بإيجاز أهم مراحل المعالجة في النسخة الرسمية من برنامج الخليل للتحليل الصرفي وهي النسخة المتاحة مجانا على موقع "sourceforge"[3]. غير أن عملية دمج المحلل الصرفيّ في إطار برنامج للتشكيل الآلي تطلبت منا إجراء تعديلات تمثّلت أساسًا في إضافة قاعدة معطيات على شكل معجم يتضمن الكلمات العربية الأكثر تكرارًا في المدوّنات العربية المتاحة، كما قُمنا بتعديل آلية إخراج نتائج التحليل الصرفيّ للاحتفاظ بالتشكيلات الممكنة للكلمة دون غيرها من المعلومات الأخرى، كالنوع والوزن والجذر.. إلخ. وفي ما يلي نستعرض تفاصيل هذا المعجم.

معجم الكلمات الأكثر تكرارًا:

تمّ إنشاء هذا المعجم بُغية تسريع عملية المعالجة الصرفية من ناحية، ومن أجل ضبط نوعية تشكيل الكلمات التي يَكثُر استخدامها في مختلف النصوص من ناحية أخرى. ولهذا الغرض فقد اتبعنا الخطوات التالية:

- تجميع مدوّنة عربية واسعة ومتنوعة تضم أزيد من 250 مليون كلمة، وذلك انطلاقا من المدونات العربية المتاحة على الشابكة (الإنترنت). وقد بلغ عدد المدونات التي استخرجنا منها معجم الكلمات الأكثر تكرارًا ثماني مدونات، هي:

(3) www.sourceforge.net/projects/alkhalil

- مدوّنة الباحث أحمد عبد العالي[4]، وهي مدونة غير مشكولة يبلغ حجمها 147 مليون كلمة (Abdelali et al, 2005). وتتكون هذه المدونة من نصوص صحفية متنوعة تم جمعها من 28 موقعًا صحفيًا بشكل يغطي أغلب البلدان العربية.
- مدوّنة "تشكيلة"[5]، وهي مدونة مشكولة تزيد على 60 مليون كلمة، وتتكون من نصوص تراثية قام بجمعها الباحث طه زروقي انطلاقًا من الكتب الموجودة بالمكتبة الشاملة[6].
- المدوّنة العربية مفتوحة المصدر[7] (OSAC: Open Source Arabic Corpora)، وهي مدونة غير مشكولة جمعها الباحثان معتز خالد سعد ووسام عاشور (Saad and Ashour, 2010) بُغية استخدامها في تطبيقات التنقيب في النصوص (Text Mining). وتحتوي هذه المدونة على قرابة 20 مليون كلمة جُمعت من مواقع إخبارية عربية محلية وعالمية متنوعة.
- مدوّنة الباحثة لطيفة السليطي[8]، وهي مدونة غير مشكولة تضمّ نصوصًا معاصرة وتشمل مجالات مختلفة (سياسية، اقتصادية، دينية، رياضية.. إلخ). وتضم هذه المدونة أزيد من نصف مليون كلمة.
- مدوّنة "Khaleej-2004"[9] وهي مدونة غير مشكولة جمعها الباحث مراد عباس انطلاقًا من موقع اليومية البحرينية أخبار الخليج، وذلك لأجل استخدامها في تطبيقات التصنيف الآلي للوثائق (Abbas and Smaili, 2004). وتضم هذه المدونة قرابة 2,8 مليون كلمة.

(4) http://aracorpus.e3rab.com/argistestsrv.nmsu.edu/AraCorpus/Data/
(5) http://sourceforge.net/projects/tashkeela/
(6) www.shamela.ws
(7) https://sites.google.com/site/motazsite/Home/osac
(8) http://www.comp.leeds.ac.uk/eric/latifa/research.htm
(9) http://sourceforge.net/projects/arabiccorpus/files/

- مدوّنة قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة[10] (UN Parallel Corpora)، وهي مدوّنة متوازية تضم 2100 قرار من قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة مكتوبة باللغات الست الرسمية للأمم المتحدة. وقد اقتصرنا بطبيعة الحال على محتواها العربيّ المكون من 2,5 مليون كلمة، علمًا أن هذه المدونة قد جُمعت في الأصل لغرض استخدامها في تطبيقات الترجمة الآلية الإحصائية (Rafalovitch and Dale 2009).
- مدوّنة RDI[11] وهي مدونة مشكولة تتكوّن أساسًا من كتب تراثية، بالإضافة إلى نسبة قليلة من الكتابات المعاصرة. وقد جُمعت هذه المدوّنة لغرض الاستعمال في مجال التشكيل الآليّ. وتحتوي على 20 مليون كلمة.
- مدوّنة نيملار (NEMLAR Arabic Written Corpus)[12]، وهي مدونة مشكولة ومعنونة صرفيًا ونحويًا، شارك في إعدادها باحثون من مراكز بحثية مختلفة (Attiya et al, 2005) وذلك في إطار مشروع «NEMLAR». نشير إلى أنها مدوّنة غير مجانية تقوم بتسويقها الجمعية الأوروبية للموارد اللغوية (ELRA)، وقد اقتصرنا في هذا البحث على محتواها المشكول الذي يضمّ نصوصًا من مجالات مختلفة تحتوي على قرابة نصف مليون كلمة.

• بعد مرحلة التجميع قمنا بتهيئة المدونة، وذلك بتوحيد ترميزها وطريقة تخزينها، حيث قمنا بحفظها في ملفات نصية (.txt) بترميز Cp1256. كما عملنا على تنقيتها من الرموز والكلمات المكتوبة بحروف غير عربية.

• بعد ذلك قمنا بحساب تكرار كلمات كل مدونة على حدة وترتيبها ترتيبا تنازليًّا. وقد عمدنا في هذه الخطوة إلى عزل كل مدوّنة على حدة، نظرًا لتفاوت أحجام هذه المدونات من جهة، ولكون الكلمات الشائعة تختلف حسب طبيعة

(10) http://www.uncorpora.org/
(11) http://www.rdi-eg.com/RDI/TrainingData/
(12) http://catalog.elra.info/product_info.php?products_id=873

المدونة من جهة أخرى. ففي حين تَكثُر كلمات من قبيل "حدثنا" "قال" و"صلى" في المدونات التراثية، فإننا لا نجد لها أثرًا في مدونة قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة على سبيل المثال.

- وتمثّلت الخطوة الموالية في استخلاص اللائحة الأولية لمداخل معجم الكلمات الأكثر تكرارًا، وذلك بعد دمج اللوائح المستخلصة من كل مدونة وحذف علامات التشكيل التي تظهر في بعضها، وخصوصا لوائح المدونات التراثية، ثم حذف المكرر من هذه المداخل. وقد بلغت هذه اللائحة 16200 كلمة.

- بعد ذلك قمنا بتحديد المقابلات المشكولة لمداخل المعجم وقد تطلبت هذه الخطوة تقسيم المداخل إلى مجموعتين:

  - مجموعة الكلمات التي وجدنا لها مقابلات مشكولة في نصوص المدونات المشكولة (تشكيلة: RDI وNEMLAR). وفي هذه الحالة أرفقناها بالمقابلات المشكولة التي عثرنا عليها.

  - المجموعة الثانية وكانت في حدود 1200 كلمة، قمنا بتحليلها صرفيًّا باستخدام محلّل باكوالتر الصرفيّ لكونها تحتوي كثيرًا من الألفاظ الدخيلة شائعة الاستخدام في النصوص الحديثة وكذلك أسماء الأعلام الأجنبية. ثم أتبعنا ذلك بتدقيق يدوي للكلمات التي حلّلها والكلمات التي لم يتمكن من تحليلها.

بعد استكمال هذه الخطوات تحصل لدينا معجم من 16200 كلمة من الكلمات الأكثر تكرارًا في المدونات العربية المتاحة. وقد قمنا بدمج هذا المعجم في إطار عملية التحليل الصرفيّ لبرنامج الخليل بحيث يتعرّف مباشرة على التشكيلات الممكنة للكلمات إن كانت مما يتضمنه معجم الكلمات الأكثر تكرارًا مما يُسرّع من عملية المعالجة.

2. مرحلة المعالجة الإحصائية

بعد أن يقوم البرنامج بمعالجة صرفية لكلمات النص الـمُدخل، وبعد أن يحتفظ بالتشكيلات المحتملة لكلّ كلمة، فإنه يمر إلى المرحلة الثانية من مراحل التشكيل. وتتمثّل هذه المرحلة، كما أسلفنا، في معالجة إحصائية مبنية على نموذج ماركوفي يتمّ عبره اختيار التشكيل الأرجح لكلّ كلمة باستخدام خوارزمية فيتربي (Neuhoff 1975). وفي ما يلي نعرض لهذا النموذج بشيء من التفصيل:

لتكن المجموعة $O = \{o_1, \ldots, o_M\}$ مجموعة منتهية من "المشاهدات" (Observations)

ولتكن $S = \{s1, \ldots, sN\}$ مجموعة منتهية من "الحالات الخفية" (Hidden States)

تعريف:

نُعرّف نموذج ماركوف الخفي من الرتبة الأولى بأنه كلّ زوج من السلاسل $(X_t, Y_t)_{t\geq 1}$ بحيث تكون:

- $(X_t)_t$: عبارة عن سلسلة ماركوف متجانسة (homogeneous Markov chain) تأخذ قيمها في مجموعة الحالات الخفية S بحيث يكون الاحتمال:

$$\Pr(X_{t+1} = s_j / X_t = s_i, \ldots, X_1 = s_h) = \Pr(X_{t+1} = s_j / X_t = s_i) = a_{ij}$$

وتُعبّر a_{ij} عن احتمال المرور من الحالة s_i إلى الحالة s_j .

- بينما تأخذ السلسلة $(Y_t)_t$ قيمها في مجموعة المشاهدَات O بحيث:

$$\Pr(Y_t = o_k / X_t = s_i, Y_{t-1} = o_{k_{t-1}}, X_{t-1} = s_{i_{t-1}}, \ldots, Y_1 = o_{k_1}, X_1 = s_{i_1})$$
$$= \Pr(Y_t = o_k / X_t = s_i) = b_i(k)$$

وتُعبّر $b_i(k)$ عن احتمال مُشاهَدة o_k مع العلم بتحقق S_i .

وبخصوص مشاهدات النموذج وحالاته الخفية في عملنا هذا فإننا نُعرّفها كالتالي:

أ. مشاهدات النموذج (Observations)

نقترح في هذا العمل تصنيفًا جديدًا للكلمات العربية. وتستند عملية التصنيف (classification) هذه على استخلاص **ملامح** (features) من الكلمة المراد معالجتها تتمثّل في:

- طول الكلمة.
- السوابق واللّواحق.
- مواضع أحرف الألف والواو والياء إن وجدت في الكلمة.
- حرف أو حرفان من الكلمة يتم اختيارهما تبعا لطولها.

ولتوضيح هذا التصنيف **نضرب مثالا** بكلمة من قبيل **"التشكيل"** فلدى تصنيف هذه الكلمة يستنتج البرنامج صنفًا على شكل:

F7؛alS؛#؛0؛1-؛5؛ش+ي

وتأويل هذا الصنف راجع إلى كونه اتحاد الملامح المستخلصة التالية:

- **"F7"** : وهو الملمح المشترك بين جميع الكلمات المكونة من سبعة أحرف.
- **"alS"** : ويدلّ على أن الكلمة مبدوءة بأداة التعريف "ال"، وأن أداة التعريف متبوعة بحرف شمسي (S) وهو التاء في هذه الحالة. إن تمييزنا لملمح السوابق التي تتضمن أداة التعريف إلى نوعين شمسي (alS) وقمري (alL) تبعًا للحرف الذي يلي السابق، راجع بطبيعة الحال إلى تأثير ذلك في تشكيل هذا الحرف وحرف اللام الذي يسبقه.

- **"#"** : وتدلّ على أن الكلمة ليست لها لاحقة (suffix).

- **"0"** : وتعني أن حرف الألف موجود في كلمة **"التشكيل"** في الموضع رقم 0 ؛ أي في الحرف الأول من الكلمة. وفي هذا السياق فإنه إذا تعددت مواضع حرف من الحروف (أ و ي)، فإن الملمح الخاص بها يكون على شكل متجهة (vector) تتركب من هذه المواضع. فالملمح الخاص بحرف الواو في كلمة **"الموعودون"** هو (3،5،7) ويعني أن الواو هو الحرف الرابع والسادس والثامن من هذه الكلمة.

- **"1-"** : ويعني أن حرف الواو لا يوجد في مثالنا أي كلمة **"التشكيل"**.

- **"5"** : مما يعني أن حرف الياء هو الحرف السادس من هذه الكلمة.

- **"ش+ي"** : وهما الحرفان اللذان يقعان في الموضعين الرابع والسادس على التوالي، وهما الموضعان اللذان تختار منهما الحروف المميزة للكلمات المكونة من سبعة أحرف.

وتحت الصنف الوارد في المثال السابق تقع الكثير من كلمات اللغة العربية التي تتشابه في كيفية تشكيلها، مثل: **"التشبيه"** و**"التشخيص"** و**"التشريع"** و**"التشغيل"**.. إلخ. إذ يشمل، بعبارة أخرى، كل المصادر التي على وزن **"التفعيل"** إذا كان الحرف الأول من جذرها حرف الشين. وتُعدّ هذه الخاصية أهم إيجابيات هذا التصنيف؛ إذ تكون "بارامترات" النموذج أقل بكثير من مثيلتها في الأعمال السابقة ((Gal, 2002) ، (Elshafei et al, 2006)، (بباه وآخرون 2011) التي تُمثّل الكلمات العربية فيها مشاهدات النماذج الماركوفية.

ب. الحالات الخفية (Hidden states)

تتكون الحالات الخفية في النموذج الماركوفي الذي نقترحه من تسلسلات علامات التشكيل الممكنة في اللغة العربية. وهي عبارة عن متجهات (vectors)

تختلف أبعادها تبعا لأطوال المشاهدات. ولتوضيح هذا التعريف أكثر نضرب أمثلة من هذه الحالات الخفية:

• (◌َ ، ◌ْ ، ◌ُ) : وهو التسلسل المكون من فتحة فسكون فكسرة فضمة، ويُمثّل حالة خفَية تكمن خلف الكثير من المشاهدات عند تصنيف كلمات من أربعة أحرف مثل الكلمات: **"يعرض"** ، **"تعرف"**، **"نصبر"**.. إلخ، بما يسمح بتشكيلها كالتالي: **"يَعْرِضُ"** ، **"تَعْرِفُ"**، **"نَصْبِرُ"** ... إلخ

• (◌ُ ، ◌َ ، ◌ِّ ، ◌َ ، ◌ٌ) : وهو متجه من خمس مُرَكّبات تمثل تسلسل الضمة فالفتحة فالشدة مع الكسر فالفتحة فتنوين الضم. ويقابل هذا التسلسل عددًا من المشاهدات، ما يسمح بتشكيل كلمات مثل **"مُعَلِّمَةٌ"**، **"مُقَدِّمَةٌ"** .. إلخ.

• (◌َ ، # ، ◌َ) : ويدلّ الرمز # على غياب علامة التشكيل على الحرف المقابل. ويسمح هذا التسلسل الثلاثي بتشكيل كلمات مثل: **"جَاءَ"** ، **"نَالَ"**، **"فَازَ"** .. إلخ.

ولا يخفى أن الطابع التجريدي للحالات الخفية في نموذجنا هذا يستدعي عددا أقل من "البارامترات" مقارنة بالنماذج الماركوفية السابقة (Gal, 2002)، (Elshafei et al, 2006) التي تتخذ من الكلمات المشكولة حالات خفية.

وفي ما يلي نُبيّن كيف استخدمنا هذا النموذج لغرض التشكيل الآلي للنصوص العربية.

لنفرض على سبيل المثال جملة عربية على الشكل $W_1,\ldots,W_n$ بعد القيام بتصنيف هذه الكلمات بالطريقة الواردة أعلاه في النموذج فإننا نحصل على سلسلة من المشاهدات $w_1,\ldots,w_n$ ، ولتكن المجموعة $C=\{c_1,\ldots,c_N\}$ مجموعة سلاسل التشكيلات الممكنة في اللغة العربية. انطلاقا من هذه الفرضيات، فإن مسألة تحديد التشكيلات الصحيحة في هذه المرحلة من المعالجة

تتمثّل في إيجاد مجموعة سلاسل التشكيلات $(c_1^*,\ldots,c_n^*)$ التي تحقق المعادلة التالية:

$$(c_1^*,\ldots,c_n^*) = \arg\max_{c_1\ldots c_n\in C} \Pr(c_1\ldots c_n / w_1\ldots w_n)$$

وبما أن:

$$\Pr(c_1\ldots c_n / w_1\ldots w_n) = \frac{\Pr(w_1\ldots w_n / c_1\ldots c_n)\Pr(c_1\ldots c_n)}{\Pr(w_1\ldots w_n)}$$

إن التسلسل $(c_1^*,\ldots,c_n^*)$ يحقق:

$$(c_1^*,\ldots,c_n^*) = \arg\max_{c_1\ldots c_n\in C} \Pr(w_1\ldots w_n / c_1\ldots c_n)\Pr(c_1\ldots c_n)$$

وهي المعادلة التي يمكن أن تُكتب على الشكل التالي:

$$(c_1^*,\ldots,c_n^*) = \arg\max_{\substack{c_i^{j_i}\in C_i \\ 1\le i\le n}} \Pr(w_1\ldots w_n / c_1^{j_1}\ldots c_n^{j_n})\Pr(c_1^{j_1}\ldots c_n^{j_n})$$

حيث ترمز المجموعة $C_i = \{c_i^1,\ldots,c_i^{n_i}\}$ إلى مجموعة التشكيلات المحتملة الناتجة عن تحليل الكلمة W_i ذات الصنف w_i.

ونقوم بحل هذه المعادلة عن طريق البحث عن المسار الأكثر رجحانًا في شبكة الحلول الناتجة عن التحليل الصرفي للكلمات خارج سياقها كما هو مبين في الشكل التالي:

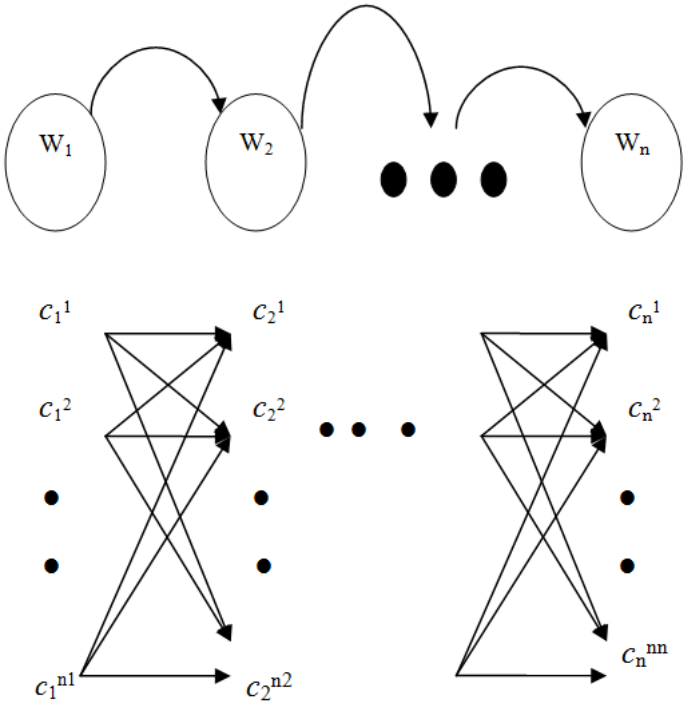

الشّكل2. شبكة سلاسل التشكيلات المحتملة الناتجة عن تحليل الجملة $W_1,\ldots,W_n$

وتُعتبر خوارزمية فيتربي وسيلة فعالة للبحث عن المسار الأكثر رجحانًا في هذه الشبكة. وتعتمد الخوارزمية على قيم دالتين ϕ و ψ نعرفهما كما يلي:

$$\phi(t,c_t^k) = \max_{\substack{r_i^{ji}\in\Re_i \\ 1\le i\le t-1}} \left[\Pr(\, w_1,\ldots,w_{t-1},w_t \,/\, c_1^{k_1},\ldots,c_{t-1}^{k_{t-1}},c_t^k\,) \times \Pr(\, c_1^{k_1},\ldots,c_{t-1}^{k_{t-1}},c_t^k\,)\right]$$

حيث تُعبّر $\phi(t,c_t^k)$ عن قيمة احتمال المسار الجزئي الأرجح الذي يمر من التسلسل c_t^k (c_t^k ينتمي لمجموعة التشكيلات المحتملة للكلمة W_t).

ويمكن أن نكتب المعادلة السابقة على الشكل التالي:

$$\phi(t,c_t^k)=\max_{\substack{r_i^{j_i}\in\Re_i\\ 1\le i\le t-1}}\prod_{i=1}^{t-1}\left[\Pr(w_i/c_i^{j_i})\times\Pr(c_i^{j_i}/c_{i-1}^{j_{i-1}})\times\Pr(w_t/c_t^k)\times\Pr(c_t^k/c_{t-1}^{j_{t-1}})\right]$$
$$=\Big(\max_{c_{t-1}^{j_{t-1}}\in C_{t-1}}\phi(t-1,c_{t-1}^{j_{t-1}})\times\Pr(c_t^k/c_{t-1}^{j_{t-1}})\Big)\Pr(w_t/c_t^k)$$
$$=\Big(\max_{c_{t-1}^{j}\in C_{t-1}}\phi(t-1,c_{t-1}^{j})\times\Pr(c_t^k/c_{t-1}^{j})\Big)\Pr(w_t/c_t^k)\quad(*)$$

وتسمح لنا المعادلة الأخيرة بحساب قيم الدالة ϕ بصيغة تراجعية.

ومن أجل التعرف على المسار الأرجح فإننا نعرف الدالة ψ التي تسمح في كل لحظة t بتخزين التشكيل الذي يُحقق أكبر قيمة للمعادلة السابقة (*).

نُعرّف ψ كما يلي:

$$\psi(t,c_t^k)=\arg\max_{c_{t-1}^{j}\in C_{t-1}}\phi(t-1,c_{t-1}^{j})\Pr(c_t^k/c_{t-1}^{j})\qquad(**)$$

مع ملاحظة أن: $\psi(t,c_t^k)\in C_{t-1}$

هاتان المعادلتان (*) و (**) تسمحان لنا بإيجاد المسار الأرجح عن طريق خوارزمية فيتربي التراجعية التالية:

- **المرحلة الأولى الابتداء (Initialization) :**

for $1\le k\le n_1$

حساب $\phi(t,c_1^k)$: احتمال أن تبدأ الجملة بالكلمة w_1 ويكون تشكيلها c_1^k .

- **المرحلة الثانية الحساب التراجعي (Recursion) :**

for $2\le t\le n$ and $1\le k\le n_t$

$$\phi(t,c_t^k)=\Big(\max_{c_{t-1}^{j}\in C_{t-1}}\phi(t-1,c_{t-1}^{j})\times\Pr(c_t^k/c_{t-1}^{j})\Big)\Pr(w_t/c_t^k)$$
$$\psi(t,c_t^k)=\arg\max_{c_{t-1}^{j}\in C_{t-1}}\phi(t-1,c_{t-1}^{j})\Pr(c_t^k/c_{t-1}^{j})$$

- **المرحلة الثالثة الحالة الأخيرة (Final state):**

$$\psi(n+1) = \arg\max_{c_n^j \in C_n} \phi(n, c_n^j)$$

- **المرحلة الرابعة استنتاج المسار الأرجح (Deducing the best path):**
  - $c_n^* = \psi(n+1)$
  - For t = n-1 :1 $c_t^* = \psi(t, c_{t+1}^*)$

4. تدريب البرنامج

تحتاج "بارامترات" النموذج الإحصائي الوارد أعلاه، والمتمثلة في قيم المصفوفتين (a_{ij}) = **A** و (b_{it}) = **B**، إلى عملية تقييم –خلال مرحلة تدريب البرنامج– بالاعتماد على ذخيرة لغوية كافية.

فلو اعتبرنا ذخيرة لغوية $C = \{Ph_1, \ldots, Ph_K\}$ مكونة من عدد كبير من الجمل، فإن عملية تدريب النظام تتلخص في تقييم "البارامترات" بطريقة (Maximum Likelihood) على الشكل التالي: (Manning and Schütze, 1999)

$$a_{ij} = \frac{\sum_{n=1}^{K} (\text{عدد مرات الانتقال من التشكيل } c_i \text{ إلى التشكيل } c_j \text{ في الجملة } \text{Ph}_n)}{\sum_{n=1}^{K} (\text{عدد تكرارات التشكيل } c_i \text{ في الجملة } \text{Ph}_n)}$$

$$b_{it} = \frac{(\text{عدد مرات أخذ الصنف } w_t \text{ للتشكيل } c_i)}{(\text{عدد تكرارات التشكيل } c_i)}$$

ولإجراء عملية التدريب هذه قمنا بعزل مدوّنة مشكولة بلغ حجمها 1,24 مليون كلمة مشكولة موزعة بين نصوص مدوّنة "NEMLAR"، التي اخترنا 90% منها (460 ألف كلمة) واستبقينا 10% للاختبار، ومدوّنة "تشكيلة" التي اخترنا منها (780 ألف كلمة). ويرجع السبب في عدم استخدامنا لملايين

النصوص التراثية المشكولة التي لدينا في التدريب إلى محاولة إيجاد توازن في مدوّنة التدريب بين المحتوى المعاصر والمحتوى التراثي. فبالتوازي مع النصوص المعاصرة لمدونة "NEMLAR" قمنا بعزل 30 كتابًا تراثيًا من مدوّنة "تشكيلة" واخترنا بشكل عشوائي من كل كتاب قرابة 10% من محتواه. كما أجرينا على مدونة التدريب سلسلة من العمليات تمثلت في تقسيم محتوياتها إلى جُمل ثم تصنيف جميع كلماتها واستخلاص تسلسلات التشكيل فيها من أجل حساب "البارامترات" باستخدام طريقة الإمكان الأعظم (Maximum likelihood) الواردة أعلاه.

5. اختبار البرنامج

من أجل تقييم كفاءة برنامج التشكيل الآلي فقد اعتبرنا المقياسين المعروفين: نسبة الكلمات الخاطئة (WER : Word Error Rate) ونسبة الخطإ على مستوى الحروف (DER : Diacritic Error Rate). ويتفرع هذان المقياسان في الواقع إلى أربعة مقاييس بالنظر إلى اعتبار تشكيل الحرف الأخير في الكلمة من عدمه. فبذلك كانت المقاييس التي استخدمنا في عملية التقييم كالتالي:

- WER1 : ويقيس نسبة الكلمات الخاطئة مع اعتبار تشكيل الحرف الأخير.
- WER2 : ويقيس نسبة الكلمات الخاطئة مع تجاهل تشكيل الحرف الأخير.
- DER1 : ويقيس نسبة الخطإ في التشكيل على مستوى الحروف بما فيها الحرف الأخير.
- DER2 : ويقيس نسبة الخطإ في التشكيل على مستوى الحروف باستثناء الحرف الأخير.

وتتمثل تجربة التقييم في اختيار خمس عينات من مدونة الاختبار، تتكون كل عينة من 100 جملة، تم سحب كل جملة منها بشكل عشوائي، وذلك بغية

الحصول على القيمة التقريبية لنسب الخطإ الأربع على مستوى كامل مدونة الاختبار.

ويلخّص الجدول التالي النتائج التي حصلنا عليها.

العينة	عدد الكلمات	WER1(%)	WER2(%)	DER1(%)	DER2(%)
T1	2601	27,73	13,42	8,09	4,02
T2	2380	27,57	14,79	8,51	4,75
T3	2525	28,04	13,75	8,23	4,19
T4	2863	31, 34	16,49	9,68	5,24
T5	2356	27,81	13,97	8,34	4,28
المتوسط	**2545**	**%28,5**	**%14,5**	**%8,6**	**%4,5**

جدول1. نتائج تقييم البرنامج على عينات عشوائية من مدونة الاختبار

تُبيّن هذه النتائج أن نسبة خطإ التشكيل على مستوى الكلمات تقارب 29%، وأن تلك النسبة تهبط إلى النصف في حالة تجاهل الحرف الأخير لتصل 14,5%. ولنا على هذه النتيجة بعض الاستدراكات. فالمقياس "WER1" بالشكل الذي اعتمدناه في هذه التجربة هو مقياس **متشدد**، يفترض وجود نسخة من مدونة الاختبار مشكولة بشكل صحيح تام. فعند مقارنة الكلمة الأصلية بنتيجة معالجة البرنامج لنسخة غير مشكولة منها لا يعطي المقياس نتيجة إيجابية إلا في حالة التطابق التام بين الكلمتين. والواقع أن المدوّنات المتاحة لا تَسْلم، من

جهة، من الأخطاء الكتابية كالكلمات المتلاصقة والكلمات المفروقة والتساهل في الهمزات، وغير ذلك من الأخطاء الإملائية التي تُربك المحلّل الصرفي المدمج، كما أنها لا تخلو، من جهة أخرى، من الكلمات المشكولة جزئيًا التي قد يقوم البرنامج بتشكيلها تشكيلا تامّا صحيحًا يبقى رغم ذلك خاطئا بحسب المقياس "WER1".

ويدلّ هبوط نسبة الخطإ إلى النصف (14,5%) في المقياس WER2 على أن نسبة مهمة من أخطاء التشكيل هي أخطاء إعرابية كعدم الاتفاق، أحيانًا، بين حركة المتتابعَيْن (نعتًا وتوكيدًا وعطفًا وبدلًا) أو عدم جرّ المضاف إليه أو الخطأ في حركة بعض معمولات النواسخ وحروف الجرّ. ذلك بأن معيار الترجيح الذي يستند عليه البرنامج هو معيار إحصائيّ يصيب ويخطئ في هذه الحالات الإعرابية تبعًا لقيم الاحتمالات التي استخلصها من مدوّنة التدريب.

وتصل نسبة الخطإ في تشكيل جميع حروف النص "DER1" إلى 8,6%، وتهبط هذه النسبة أيضا إلى حدود النصف 4,5% (DER2) لتتجاوز بذلك نسبة الدقة على مستوى الحروف 95% في حال تجاهل الحرف الأخير.

6. الخاتمة

قدّمنا في هذه البحث برنامجًا جديدًا أطلقنا عليه اسم **"برنامج الخليل للتشكيل الآلي"**، يعتمد هذا البرنامج على مقاربة هجينة لتشكيل اللغة العربية تجمع بين التحليل الصرفي ونماذج ماركوف الخفية. وتختلف هذه المقاربة عن غيرها من المقاربات الهجينة على المستويين اللّغويّ والإحصائيّ.

فعلى المستوى اللغويّ تمّ توظيف أحد أهم المحلّلات الصرفية العربية مفتوحة المصدر، حيث يقوم البرنامج باستخدام نتائج تحليل برنامج الخليل للتحليل الصرفي واستخلاص التشكيلات الممكنة التي يقترحها للكلمات خارج سياقها من النص. وقد تطلَّب دمج المحلل الصرفي في إطار التشكيل الآلي إضافة

قاعدة معطيات معجمية تتضمن الكلمات الأكثر تكرارًا، وذلك بهدف ضبط تشكيلها وتفادي التعميم (over generation) الذي يظهر في كثرة المخرجات المقترحة من قبل المحلّل الصرفي. وقد تم استقاء قاعدة المعطيات المعجمية من مدوّنة تضم أزيد من 250 مليون كلمة جمعت من ثماني مدونات عربية متاحة على الشابكة (الإنترنت).

وعلى المستوى الإحصائيّ، قمنا باقتراح نموذج ماركوفي ينطلق من تصنيف جديد للكلمات العربية، بحيث تمثّل هذه الأصناف مشاهدات النموذج، بينما تمثل تسلسلات علامات التشكيل الحالات الخفية له. كما راعينا في تدريب البرنامج استخدام مدوّنة متنوعة تجمع بين النصوص الحديثة والتراثية بلغ حجمها أزيد من مليون ومائتي ألف كلمة.

وتعتبر النتائج التي حصلنا عليها جد مشجعة، إذ وصلت نسبة الدقة على مستوى كامل الحروف إلى 91,4%، وإلى أزيد من 95% بتجاهل الحرف الأخير. وهي نتائج نطمح إلى تحسينها بالعمل على مستويين متكاملين: مستوى المدوّنات، وذلك بتوسيع محتوى المدونة من اللغة المعاصرة وضبط تشكيل أكبر قدر ممكن منها. ومستوى التحليل اللغوي، وذلك بدمج المقاربة في إطار أشمل يتعامل مع باقي المعلومات التي يتيحها محلل الخليل الصرفي سعيًا لإيجاد محلل نحوي ذي كفاءة مقبولة، مما سينعكس إيجابًا على نتائج المشكل الآلي. كما نعتزم فتح مصدر هذا البرنامج لتعميم استخدامه وإتاحة المجال أمام اجتهادات المطورين في تحسينه ودمجه في تطبيقات أخرى.

مراجع باللغة العربية

1 – سلوى حماده، مروان والبواب: **"معايير وضوابط تقييم المحلِّلات الصرفية"**، تقرير من ضمن توصيات المشاركين في اجتماع خبراء المحللات الحاسوبية الصرفية للغة العربية، 26 - 28 إبريل 2009، دمشق.

2 – عثمان بن سعيد الداني أبو عمرو، **المحكم في نقط المصاحف**، تحقيق: د. عزة حسن، دار الفكر – دمشق، الطبعة الثانية، 1407 هـ.

3 – عز الدين مزروعي، عبد الوافي مزيان، عبد الحق لخواجه، عبد الرحيم بودلال، محمد ولد عبد الله ولد بباه،: **"برنامج الخليل الصرفي "**، المؤتمر الدولي لعلوم وهندسة الحاسوب باللغة العربية، ICCA 2011، 31 مايو ـ 2 يونيو 2011، الرياض.

4 – محمد عطية، **"التشريح البنائي لمشكِّل آلي عربي لتوظيفه في نظام تخليق آلي للصوت المنطوق من النص العربي المكتوب"**، ندوة تقنية المعلومات والعلوم الشرعية والعربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 2007.

5 – محمد ولد عبد الله ولد بباه، عبد الوافي مزيان، عز الدين مزروعي، عبد الحق لخواجه، عبد الرحيم بودلال: **"مقاربة صرفية إحصائية للتشكيل الآلي"**، اجتماع خبراء التدقيق الإملائي والتشكيل والتحليل النحوي الآلي، 18 - 20 إبريل 2011، دمشق.

6 – منصور الغامدي؛ محمد خورشيد؛ مصطفى الشافعي؛ فايز الحرقان؛ أبو أوس الشمسان؛ محمد الكنهل؛ سعد القحطاني؛ سيد زيشان مظفر؛ ياسر التويم؛ عدنان يوسف؛ حسني المحتسب؛ **"نظام حاسوبي لتشكيل النص العربي"**، التقرير الفني النهائي، مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية، 2006.

مراجع باللغات الأجنبية

1 – Abbas M., Smaili K.. Comparison of Topic Identification Methods for Arabic Language, International conference RANLP05 : Recent Advances in Natural Language Processing , 21-23 september 2005, Borovets, Bulgary.

2 – Abdelali A., Cowie J., Soliman H.: "Building A Modern Standard Arabic Corpus", Workshop on Computational Modeling of Lexical Acquisition, The Split Meeting, Crotia, 25-28 July 2005.

3 – Attia. M., Yaseen., M., and Choukri., K. :"Specifications of the Arabic Written Corpus produced within the NEMLAR project", www.NEMLAR.org. 2005.

4 – Berger, A., Della Pietra, S., Della Pietra, V., "A maximum entropy approach to natural language processing". Computational Linguistics 22 (1), 39–71. 1996.

5 – Buckwalter T.. Arabic Morphological Analyzer version 2.0. LDC2004L02. 2004.

6 – Debili F., ACHOUR H.: "Voyellation automatique de l'arabe" in Proceedings of the workshop on Computation approaches to Semitic languages, COLING-ACL '98., Montréal, 1998.

7 – Deltour A., « Méthodes statistiques pour la voyellisation des texts arabes », Projet de fin d'études, ENSIMAG-Universität Karlsruhe, 2003.

8 – El-Sadany, T., Hashish, M.,: "Semi-automatic vowelization of Arabic verbs". In: 10th NC Conference, Jeddah, Saudi Arabia. 1988.

9 – Elshafei, M., Almuhtasib H. and Alghamdi M, :"Machine Generation of Arabic Diacritical Marks", The 2006 World Congress in Computer Science Computer Engineering, and Applied Computing . Las Vegas, USA. 2006.

10 – Emam O. and Fischer V.: "Hierarchical Approach for the Statistical Vowelization of Arabic Text. Technical report, IBM Corporation Intellectual Property Law, Austin, TX, US 2005.

11 – Gal Y.: “An HMM Approach to Vowel Restoration in Arabic and Hebrew”, In ACL-02 Workshop on Computational Approaches to Semitic Languages 2002.

12 – Habash N. and Rambow O.: “Arabic Diacritization through Full Morphological Tagging”. In Proceedings of NAACL/HLT 2007. Companion Volume, Short Papers, Rochester, New York, April. 2007.

13 – Maamouri M., Bies A., and Kulick S.: “Diacritization: A Challenge to Arabic Treebank Annotation and Parsing”. In Proceedings of the British Computer Society Arabic NLP/MT Conference, 2006.

14 – Manning C. and Schütze H., Foundations of Statistical Natural Language Processing, MIT Press. Cambridge, MA: May 1999.

15 – Messaoudi A., Lamel L., and Gauvain J. : “The LIMSI RT04 BN Arabic system”. In Proc. DARPA RT04, Palisades NY, November 2004.

16 – Nelken R. and. Shieber S. M.: “Arabic Diacritization Using Weighted Finite-State Transducers. In Proceedings of the ACL 2005 Workshop On Computational Approaches To Semitic Languages”, Ann Arbor, Michigan, USA. 2005.

17 – Neuhoff D.L., The Viterbi Algorithm as an Aid in Text Recognition, IEEE Transaction on Information Theory, pp 222-226, March 1975.

18 – Rafalovitch A, Dale R.: “United Nations General Assembly Resolutions: A Six-Language Parallel Corpus”. In *Proceedings of the MT Summit XII*, pages 292-299, Ottawa, Canada, August.

19 – Saad M. K., Ashour W.: “OSAC: Open Source Arabic Corpora”, 6th ArchEng International Symposiums, EEECS’10 the 6th International Symposium on Electrical and Electronics Engineering and Computer Science, pp. 118-123, European University of Lefke, Cyprus, 2010.

20 – Schlippe T., Nguyen T. and Vogel S.: “Diacritization as a Machine Translation Problem and as a Sequence Labeling Problem,” 8th AMTA conference, Hawaii, 21-25 October 2008.

21 – Vergyri D. and Kirchhoff K., ‘Automatic diacritization of Arabic for Acoustic Modeling in Speech Recognition’. In Proceedings of the Workshop on Computational Approaches to Arabic Script-based Languages. COLING 2004, Geneva: 66-73.

22 - Zitouni I., Sorensen J. S. and Sarikaya R : ‘Maximum Entropy Based Restoration of Arabic Diacritics’. In Proceedings of the 21st International Conference on Computational Linguistics and 44th Annual Meeting of the Association for Computational Linguistics. Workshop on Computational Approaches to Semitic Languages, Sydney, Australia. July 2006.

خصائص الكتابة العربية
في ضوء الرسم القرآني عند ابن البناء المراكشي

د. نور الدين دنياجي(*)

تقديم

لقد تعددت البحوث في أصول الحرف العربيّ واختلفت مقاصد الباحثين ومرجعياتهم، وهكذا اتجهت بعض المباحث حول الحرف العربي وجهة تاريخية كالمقدمة التي كتبها ابن النديم في الفهرست. واتجه بعضها إلى بحث العلاقة الصوتية والدلالة الصرفية كما فعل ابن جني. وحاولت أخرى استخلاص الأبعاد الرمزية والإشارية في الحرف وعلاقاته بالعوالم الروحانية أو المادية كما فعل ابن عربي والبوني وغيرهما.

ولعل أهم المحاولات في بحث الخط العربي وبحث خصوصياته الدلالية والوظيفية - بشكل يستوجب إعادة النظر في الأصول التاريخية وفي الأهداف الوظيفية والدلالية للحرف العربي - نجدها ظاهرة وضامرة في الآن نفسه عند ابن البناء المراكشي في كتابه "عنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل"، لا سيما وأن هذا الرجل حاول الخوض، من خلال هذا الكتاب، في موضوع شائك في تركيبه وخطير في نتائجه ألا وهو رسم القرآن وتدوينه، هذا التدوين الذي كان

(*) جامعة الحسن الثاني - كلية الآداب بنمسيك – المغرب.

فارقا بين مرحلتين من وجود الخط العربيّ وبدايات توظيفه الحقيقية من أجل تشكيل وتخليد نصوص أعظم كتاب عند العرب والمسلمين. وإننا لنرى أن طرح مثل هذا الموضوع من شأنه أن يقارب بعض الآفاق التي يمكن أن تغني البحث في الكتابة بالحرف العربيّ.

1. قيمة مباحث الرسم القرآنيّ

تعتبر مباحث الرسم القرآنيّ من بين القضايا التي عالجها علم القراءات، بل اعتبرت مباحث فن الرسم من المباحث الأساسية في علم القراءات. وفن الرسم هو علم أوضاع حروف القرآن في المصحف ورسومه الخاصّة، لأن "فيه حروفًا كثيرة وقع رسمها على غير المعروف من قياس الخط، كزيادة الياء (بأييد) وزيادة الألف في (لا أذبحنه)، و(لا أوضعوا) أو الواو في (جزاؤ الظالمين)، وحذف الألفات في مواضع دون أخرى، وما رسم فيه من التاءات ممدودًا، والأصل فيه مربوط، على شكل الهاء وغير ذلك"[1].

وتظهر قيمة فن الرسم في كون هذه الأوضاع مخالفة لأوضاع الخط وقوانينه التي اصطلح عليها، "ولهذا احتيج إلى حصرها، فكتب الناس فيها أيضًا عند كتبهم في العلوم.وانتهت بالمغرب إلى أبي عمرو الداني فكتب فيها كتبًا من أشهرها المقنع، وأخذ به الناس وعولوا عليه، ونظمه أبو القاسم الشاطبي في قصيدته المشهورة على روي الراء، وولع الناس بحفظها، ثم كثر الخلاف في الرسم، في كلمات وحروف أخرى، ذكرها أبو داود سليمان بن نجاح من موالي مجاهد في كتبه وهو من تلاميذ أبي عمرو الداني"[2].

ويذكر ابن خلدون أن الخلاف حول هذه الأوضاع زاد إلى أن ألّف الخراز أرجوزته التي "زاد فيها على المقنع خلافًا كثيرًا، وعزاه لمن قبله، واشتهرت

(1) ابن خلدون، ص 347 .

(2) المرجع نفسه، ص 347-348.

بالمغرب واقتصر الناس على حفظها، وهجروا بها كتب أبي داود وأبي عمرو والشاطبي في الرسم"[3].

ورغم أن المعنى اللغوي لمادة (رسم) يدل على الأثر وعلى الكتابة[4]، فإن هذه المادة أصبحت علامة على الأوضاع التي خالفت فيها بعض كلمات القرآن قوانين الخط العربيّ العام، فهذه الأوضاع في المعنى اللغوي رسوم باقية، أثرها ظاهر وكأنه من قولهم "رَسَمت الناقة ترسِم رَسِيمًا: أثّرت في الأرض من شدة وطئها"[5]، أو من قولهم "ثوب مرسم بالتشديد: مخطّط"[6] ومنه قولهم في من "يرسم بالقلم أشكالا أو خطوطًا أو صورًا رسامًا ولم يسموه خطّاطًا"[7] .

وإذا كانت قيمة الدراسات حول نقط المصحف لها "فائدة في دراسة اللغة العربية ونحوها وكتابتها"[8]، كما أنها تكشف "بعض النواحي التي كان يحوطها الغموض في مسألة نشأة الكتابة العربية والنحو العربيّ"[9]، فإن قيمة الدراسات حول الرسم تعتبر أخطر لما لها من آثار في دراسة تاريخ العربية، وتاريخ كتابتها ونحوها ومناهج وقوانين الخط العربيّ، ونظرة النحويين واللغويين إلى أوضاع الرسم القرآنيّ. الشيء الذي يمكن من إغناء الدرس والبحث في اللّغة والنحو وسبل إصلاح وتطوير الخط العربيّ.

ولعلّ المزاوجة في الدراسة بين رسم المصحف أو الرسم العثمانيّ وبين الرسم القياسي قد يؤدي إلى نتائج مهمة، لا سيما وأننا نجد محاولة ابن البناء

(3) نفسه، ص. 348.
(4) ابن منظور، مادة (رسم).
(5) المرجع نفسه.
(6) نفسه.
(7) المعجم الوسيط مادة (رسم).
(8) عزة حسن (1986)، ص. 21.
(9) المرجع نفسه، ص. 15.

المراكشي في كتابه "عنوان الدليل" قد تجاوزت الوصف والاستعراض، كما هو الشأن في الكتب والرسائل التي سبقته[10] إلى التعليل. فقد أشار ابن البناء الذي "ينتمي إلى صف العلماء القائلين بوجوب اتباع رسم المصحف العثماني، لأن الاختلاف بين رسم المصحف والرسم القياسي ليس وليد اتفاق ومصادقة، بل هو نتيجة تحقق ودراية، فكان ذلك سببًا للبحث والتدبر سعيًا للكشف عن العلل الكامنة وراء ذلك الرسم"[11].

ويمكن أن نشير أيضًا إلى قيمة بحوث الرسم في كونها قد تلقي أضواء على الدراسات الصوتية، إذ إن هذه الأوضاع الخاصة في خط المصحف العثمانيّ لها أوضاع صوتية خاصّة بها لأن الخط تابع للقراءة، إلا أن هذا يحتاج إلى المزيد من البحث والتدقيق. ويمكن أن نقيس ظاهرة الدلالة في الرسم على ظاهرة الدلالة الصوتية عند ابن جني، حيث لاحظ أنها إما ذات دلالة صوتية مطردة وإما ذات دلالة صوتية غير مطردة[12].

2. تعدد مقاصد البحث في أصول "الحرف" العربيّ

وأما البحث في أصول "الحرف" العربيّ فإنه تعدّد وتنوّع بتعدّد الدارسين واختلاف مقاصدهم ومرجعياتهم، وهكذا نجد أن "الحرف" العربيّ قد عُولج في مباحث، منها ما اتجه وجهة تاريخية كالمقدمة التي كتبها ابن النديم في الفهرست، حول نشأة الكتابة العربية وتدوين المصاحف وأشكالها والأقلام العربية والقلم السريانيّ والقلم الفارسيّ والقلم العبرانيّ والقلم الروميّ وغيرها من الأقلام[13]. ومنها ما ذهب وجهة أخرى فحاول أن يستخلص بعض الأبعاد

(10) هند شلبي، (1990)، ص. 13.
(11) المرجع نفسه، ص. 15.
(12) عبد الكريم مجاهد عبد الرحمن، (1982)، ص،21.
(13) ابن النديم. (1978)، ص. 6-31.

الرمزية والإشارية في الحرف ليحاول التحكم في العوالم الروحانية أو المادية كمباحث علم السيمياء[14] والأوفاق وعلم الطلسم[15] وغيرها.

وقد اهتم ابن البناء بهذا الجانب الأخير وألّف فيه: رسالة في طبائع الحرف"[16] ولعله استفاد من هذا الجانب في صياغة كتابه "عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل"[17]. ومن الدراسات الحديثة نجد – مثلا – بحث الأستاذ أحمد العلوي بعنوان "رواية الحرف والعدد العربيين"[18]، حاول فيه أن يربط بين الدلالات الإشارية للحرف والعدد ومستويات الوجود والتماثل بينهما، كمحاولة لفهم أبعاد جديدة في اللّغة العربية وفي اللسانيات بشكل عام. ويمكن أن نحدد من الناحية اللغوية – عمومًا – ثلاثة مستويات من الأبحاث عالجت الحرف العربيّ:

أ- **الخط**: كأرجوزة عون الدين أبي المظفر يحيى بن محمد الوزير[19] (560ه)، ومؤلَّف أبي الفتح عثمان بن عيسى البلطي (599 ه) "أشكال الخط"[20].

ورغم أننا لا نجد للمغاربة مؤلفات في هذا الباب، فإنهم على مستوى التطبيق كانوا متفوقين. وقد ذكر ابن خلدون أن "أهل المغرب أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم"[21].

(14) "قال أبو الخير: هذا علم شريف يتوصل بالمداومة عليها على شرائط معينة وخاصة إلى ما يناسب تلك الحروف أو الأسماء من الخواص الموضوعة"، حاجي خليفة 413/1.

(15) انظرأحمدالبوني. وانظر حاجي خليفة (1641/2-1642) وابن عربي : حيث ذكر بعض ما تحتويه الحروف من الخواص والعلوم.

(16) ابن القاضي، 141/1، ورضا كحالة، 241/1.

(17) لابن البناء مؤلفات عديدة في هذا الباب، انظر عبد الله كنون، ص 11.

(18) أحمد العلوي (1998)، ص44-51، وانظر كذلك محمد بلاجي (1996).

(19) حاجي خليفة، 63/1.

(20) المرجع نفسه، 105/1.

(21) ابن خلدون، ص. 432.

ب - **المخارج والصفات**: كأرجوزة محمد ابن حرب النحوي الحلبي (-581 هـ) في مخارج الحرف[22]. وقد ألّف المغاربة في هذا الباب مؤلفات هي في الغالب عبارة عن منظومات، نذكر منها مخارج الحروف وصفاتها للإمام الصفار[23]، وقد وضع هذا الشيخ – أيضًا - رسالة في كيفيات تحسين النطق بالحروف فيما هو داخل في تجويد القرآن، وسمّاها "الجمان النضيد في معرفة الإتقان والتجويد". وألف كذلك تأليفا في"مخارج الحروف وصفاتها"[24]. ولابن بري رجز في مخارج الحروف، وقد ذكر بروكلمان أن منه نسخة موجودة في برلين رقم 548[25]، وهذا الرجز ذيل به ابن بري منظومته "الدرر في القراءات". ولعلّ له منظومة أخرى هي التي شرحها الخراز تحت عنوان "المقصد في شرح نظم ابن بري في أصوات القرآن". وهذا النظم مخطوط ببرلين رقم 1775 ودار الكتب الوطنية بتونس رقم 277.

ج- **الرسم**: وقد عولجت فيه مباحث تتصل بالنقط[26] ككتاب أبي عمرو الداني "المحكم في نقط المصاحف"، وكتابه "الاقتصاد في رسم المصحف"، وكتابه "المقنع في رسم المصحف" الذي ذكر فيه "ما سمعه من مشايخه من مرسوم خط الأمصار متفقا عليه ومختلفا فيه هو في معرفة رسوم المصاحف مع بيان القول في كيفية نقطه وأحكام ضبطه على وجه الإيجار والاختصار"[27].

---

(22) حاجي خليفة ، 69/1.

(23) ابن غازي (1970)، ص. 100.

(24) المرجع نفسه.

(25) بروكلمان، (1985)، ج.7، ص. 463.

(26) والحاجة إلى النقط لازمة وهي كما جاءت في كتاب تلخيص المتشابه في الرسم"إنما يشكل ما يشكل، ولا حاجة إلى الشكل مع عدم الإشكال"، ابن بري ، ص. 3.

(27) ابن عازي (1970)، ص. 44.

3. مؤلَّفات المغاربة في الرسم

وقد ألّف المغاربة أيضا في هذا الجانب، نذكر من ذلك: تأليف أبي وكيل ميمون "المورد الروي في نقط المصحف العلي"، وتأليف ميمون مساعد "الدرة الجلية"، وهي :

أرجوزة في نقط المصاحف[28]. وشرح الشوشاوي السملالي "مورد الظمآن"[29]. وشرح الجاديري ضبط القيسي[30]، وألّف المكناسي رسالة في رسم القرآن[31].

وإذا كان كتاب "المحكم في نقط المصاحف" من أهم ما حفظه لنا التاريخ من مؤلفات العلماء الكبار"[32]، فإن نظم الخراز لهذا الكتاب وشرح التنسي لهذا النظم أصبحا عمدة" كل الذين كتبوا في علم النقط وضبط القرآن"[33]. وقد كان الخراز إمامًا في الضبط عارفًا بعلله وأصوله[34] ألف "مورد الظمآن في رسم القرآن"، و"عمدة البيان في الرسم"، وهي أرجوزة ذيل بها الخراز الأرجوزة الأولى. وسوف نركز من هذه المؤلّفات على نموذجين اثنين: الأول: "مورد الظمآن" للخراز، وهو أرجوزة حوت، حسب ما ذكر ابن خلدون، جميع المؤلفات قبلها، وأصبح الاهتمام في المغرب والأندلس مقتصرًا عليها[35].

---

(28) بروكلمان (1980)، 415/7.

(29) المرجع نفسه.

(30) وهو عبد الرحمن بن علي بن طالب عافيته المعروف بالقيسي قاضي الجماعة بمراكش،الزركلي (1980)، 104/8.

(31) الزركلي (1980)، 68/6.

(32) علال الفاسي (1985)، ص. 20.

(33) المرجع نفسه، ص. 21.

(34) الكتاني ، 114/2، 172/1 و355 و357.

(35) ابن خلدون ، ص. 348.

الثاني: "عنوان الدليل" لابن البناء، وهذا المؤلف يعتبر بحثًا مغربيًا فريدًا في هذا الباب، لكونه تجاوز الوصف إلى التحليل ولهذا خالف ما قبله من مؤلّفات. ولهذا أيضا أصبح من جاء بعده عالة عليه في هذا الباب[36]. لقد جاء تأليف الخراز مورد الظمآن جامعًا لأصول هذين العلمين. ويظهر ذلك من خلال:

1.3. انتشار المنظومة وذيوعها الواسع

حتى إن ابن خلدون قال فيها عند حديثه عن الرسم القرآني وشيوع الخلاف فيه: "فلما جاءت هذه مخالفة لأوضاع الخط وقانونه احتيج إلى حصرها. فكتب الناس فيها أيضا وانتهت بالمغرب إلى أبي عمرو الداني فكتب فيها كتبا أشهرها المقنع وأخذ بهذا الناس وعولوا عليه، ونظمه أبو القاسم الشاطبي في قصيدته المشهورة على روي الراء، وولع الناس بحفظها، ثم كثر الخلاف في الرسم في كلمات وحروف أخرى ذكرها أبو داود سليمان بن نجاح من موالي مجاهد في كتبه، وهو من تلاميذ أبي عمرو الداني ثم نقل بعده خلاف آخر فنظم الخراز من المتأخرين بالمغرب أرجوزة أخرى زاد فيها على المقنع خلافا كثيرا، وعزاه لمن قبله، واشتهرت بالمغرب واقتصر الناس على حفظها وهجروا بها كتب أبي داود وأبي عمرو الشاطبي في الرسم"[37].

2.3. تخصيصها بشروح مهمة داخل المغرب وخارجه في عصر المؤلف وبعده

حتى إننا لا يمكن أن نقف على جميع الشروح التي عالجت هذه الأرجوزة، وسنذكر منها للاستئناس:

– الطراز في شرح ضبط "الخراز"، للتينسي التلمساني محمد بن عبد الله بن عبد الجليل (–899هـ) شرح فيه الأرجوزة المنظومة في الضبط التي جعلها المؤلف

(36) انظر هند شلبي (1990)، ص. 348.

(37) ابن خلدون ، ص. 348.

ذيلا على رسم الخط[38]، وقد وضع عليه أبو زيد عبد الرحمن بن إدريس الحسني المنجرة (–1179هـ)، حواشي سمّاها "حواشي" على شرح التسني المسمّى بالطراز في شرح ضبط الخراز المعروف بمورد الظمآن في رسم القرآن[39]. كما وضع حواشي على شرح عبد الواحد بن أحمد بن عاشر الأنصاري (–1043 هـ)، المسمّى "فتح المنان على مورد الظمآن"[40]. وقد حاول أبو زيد عبد الرحمان ابن القاضي (999 هـ –1082 هـ) وضع "رسالة على ما أغفله الخراز في مورد الظمآن وما سكت عنه التنزيل والبرهان"، ولكنه لم يتوافق في ذلك، لإحاطة نظم الخراز بأهم قضايا الرسم والضبط[41].

وعمومًا، فإن هذه الشروح التي اهتمت بمنظومة الخراز: مورد الظمآن. "تراوحت بين تكثير النقول والتعاليل والأبحاث والإعراب وبين الاختصار الشديد "[42]، حسب ما ذكر إبراهيم بن أحمد المارغني التونسي في شرحه لأرجوزة الخراز والذي سمّاه "دليل الحيران على الظمآن". لقد جمع الخراز في نظمه زبدة بحوثه واهتمامه بعلم القراءات والرسم تصنيفا، إذ ألف في هذا الباب شرحا على منظومة ابن بري "الدرر اللوامع"، وشرحًا على العقيلة وشرحًا على الحصرية. وقد افتتح أرجوزته[43] بالإشارة إلى تاريخ الرسم القرآنيّ واعتباره أمرًا توقيفيًا، يقول[44] :

وبعد فاعلم أن أصل الرسم ... ثبت عن ذوي النهى والعلم
جمعه في الصحف الصديق ... كما أشار عمر الفاروق
وذاك حين قتلوا مسيلمة ... وانقلبت جيوشه منهزمه

(38) انظر التينسي التلمساني.
(39) انظر أبوزيد المنجرة.
(40) انظر ابن عاشر .
(41) انظر ابن القاضي أبوزيد المنجرة .
(42) انظر أحمد الماغرني أبوزيد المنجرة .
(43) انظر ابن بري .
(44) ابن بري، ورقة 50، ص. 1.

وبعـــده جـــرده الإمـــــام في مـــصحف ليقتـــدي الأنـــام
ولا يكـــون بعـــده اضـــطراب وكـــان فـــيما قـــد رأى صـــواب
فينبغـــي لأجـــل ذا أن نقتفـــي مرســـوم مـــا أصـــله في المـــصحف
ونفـــتـــدي بفعلـــه ومـــا راءا في جعـــلـــه لمن يخـــط ملـــجئـــا

وبعد أن يشير إلى تعدد الكتابات حول الرسم – كالمقنع والعقيلة – وإلى محاولته استيعاب ما سبقه، يبسط خطته ومنهجه في العرض، إذ يقول[45] :

فجئـــت في ذاك بهـــذا الرجـــز لخـــصت مـــنهن بلفـــظ مـــوجز
وفـــق قـــــراءة أبي رؤيـــم المـــــدني ابـــــن أبي نعيـــــم
حـــسبما اشـــتهر في البـــلاد بمغـــرب لحـــاضر وبـــادي
جعلتـــه مفـــصلا مبـــــوبا فجـــاء مـــع تحـــصيله مقـــربا
وحذفـــه جئـــت بـــه مـــرتبا لأن يكـــون البحـــث فيـــه اقربـــا
وفى الـــذي كـــرر منـــه أكتفـــي بـــذكرما جـــاء أولا مـــن أحـــرف
منوعـــا يكـــون أو متحـــــدا وغـــير ذا جئـــت بـــه مقيـــدا
وكـــل مـــا قـــد ذكـــروه أذكـــر مـــن اتفـــاق أو خـــلاف آثـــروا
والحكـــم مطلقـــا بـــه إليهـــم أشـــير في أحكـــام مـــا قـــد رســـموا
وكـــل مـــا جـــاء بلفـــظ عـــنهما فـــابن نجـــاح مـــع دان رسمـــا
وأذكـــر التـــي بهـــن انفـــردا لـــدى العقيلـــة عـــلى مـــا وردا
وكـــل مـــا لواحـــد نـــسبت فغـــيره ســـكت إن ســـكت
وإن أتـــى بعكـــسه ذكرتـــه عـــلى الـــذي مـــن نـــصه وجدتـــه[46]

(45) ابن بري ، ورقة 53، ص. 2.

(46) ومن أمثلة إضافاته وتنبيهاته.ما أشار إليه في حذف الألف من كلمة "الشياطين":

والحذف عنهم في المساكين أتى والخلف في ثاني العقود ثبتا
وَحـــذف ادّارأْتُـــم رهَـــانُ حَيثُ يخَادعُونَ وَالشيـطَان
كَذاَ الْشَياطينُ بمقنـع أُثـــــر في سالم الجمع وفي ذاك نظر

"أخبر عن أبي عمرو الداني بحذف ألف الشياطين وأنه ذكر في المقنع مع جموع السلامة عند تمثيلية للجمع السالم ونصف"، وكذلك اتفقوا على حذف الألف من الجمع السالم الكثير = =

لأجـل مـا خـص مـن البيـان سميتـــه بمـــــورد الظمـــآن
ملتمســـا في كـــل مـا أروم عـــون الإلـــه فـهـــو الكريـــم

وعند انتهائه من الكلام في "رسم الخط" انتقل إلى الحديث عن فن الضبط[47] :

هـذا تمـام نظـم رسـم الخـط وهـــا أنـــا أتبعـــه بالـــضبـط
لكي يكـــن جامعـــا مفيـدا على الـــذي ألفيـتـــه معهـــودا

وإذا كان نظم الخراز متميزا، عن غيره من المصنفات، في باب الرسم والضبط، بجملة خصائص أجملناها في تضمنه لأغلب ما سبقه في هذا العلم وفي الزيادة عليه وفي الاختصار والتبسيط، ومن ثم كان نظمه نافعًا في بابه للعالِـم وللمبتدئ، فإن مؤلّف "ابن البناء" عنوان الدليل في مرسوم التنزيل يعتبر بلا منازع تصورا مغربيا في مجال الرسم. وذلك أنه يلقي إيضاحات جديدة في أبواب متعددة، كإعجاز القرآن والمعجم، والنحو والصرف وتاريخ الخط العربي.

لقد عمل "الخراز" في منظومته على حصر الخلاف في القراءات والرسم، حتى تتم الإحاطة به جملة، ويتم الوقوف أمام زيادة الخلاف فيه، بينما حاول "ابن البناء" أن ينطلق من الخلفية أو المرجعية التي انطلق منها الصحابة، في

= = الدور في المذكر والمؤنث جميعا والمذكر، نحو العالمين والصادقين والصابرين والفاسقين والمنافقين والكافرين والشياطين، "ثم عطف عليها أمثلة أخرى.قال الناظم "وفي ذاك نظر" في أخر الحذف في الشياطين من عده له مع جموع السلامة نظر أي تأمل إذ هو جمع تكسير لا جمع سلامة فيلزم أن لا يدل في قاعدة الجمع السالم تسامحا أو غفلة، ويحتمل أن لا يكون عنده محذوفا ولكن ذكر في إعداد الجموع السالمة سهوا، فلما رأى الناظم كلام أبي عمرو محتملا فرق النقل عن الشيخين في لفظ الشياطين فنقل فيما تقدم حذفه عن أبي داود، ثم ذكر هنا مأخذ حذفه من كلام أبي عمرو في المقنع ثم أعقبه بقوله وفيه نظر، واسم الإشارة في قوله "كذا" يعود على لفظ الشيطان المتأخر في البيت قبله...**"المارغني** (1906)، **ص**. 55.

(47) الخراز، ورقة 73 ، ص 2.

رسمهم للقرآن، مبيّنًا أوجه صحته من الناحية الشكلية والدلالية، قاطعًا الطريق بذلك على طعن الطاعنين في صنيع الصحابة وفي الرسم القرآني[48].

لقد رأى ابن البناء أنه إذا كان من شرط الخط أو الرسم أن يكون متقنًا بحيث يستوعب جميع ما في النفس والضمائر من دلالات، فكيف يعتبر نقصًا في حق الصحابة أنهم عملوا على وضع معاني القرآن وفق رسوم خاصّة، تكشف للقارئ كل المعاني، لا سيما وأنهم كانوا أحرص الناس على ضبط القرآن خطًّا ونصًّا ومعنًى. والواضح من ذلك أن العيب لم يكن في خط الصحابة بل في قصور فيهم في التصور لدى المهتمين بهذا الموضوع[49].

ولو عدنا إلى تاريخ الخط عمومًا، والخط العربي خصوصًا، لوجدنا أن الكتابة البشرية قد انتقلت عبر تاريخها من رسم يحاول رصد المعاني بشكل مباشر إلى رسم يعتمد التجريد عصرا بعد عصر إلى أن وصلت الكتابة إلى طورها النهائي[50]. ومن هنا لا نستبعد أن الاختلافات التي جاءت عبر خط الصحابة هي اختلافات طبيعية ناتجة عن طور من أطوار الخط العربيّ لا عن نقص وانعدام الكمال في صناعتهم. ثم كيف يعقل أن يختلف الصحابة حول قضايا تبدو لأول وهلة ساذجة لا يمكن أن يختلف فيها اثنان، كبسط التاء والوصل والفصل في الخط وغير ذلك، كما أنه يجب أن لا ننسى أن عملية تدوين القرآن لم

(48) انظر غانم قدوري الحمد (1982) ص. 197-233. حيث ناقش موقف علماء السلف من ظواهر الرسم. وهذا المؤلف لم يصل إليه كتاب عنوان الدليل، يظهر ذلك من خلال عدم إشارته إليه، ولو وصل إليه لكانت دراسته أكثرعمقا وجدة.

(49) انظر عماد حاتم (1982)، الفصل الخاص بتاريخ الكتابة، ص. 159-170 و الفصل الخاص ب "الكتابة اللوغرافية"، ص. 175-194 والفصل الخاص بالكتابة المقطعية، ص. 199-207 يقول في حديثه عن الكتابة الأبجدية: "وكان ظهور هاتين الطريقتين – أي طريقة الأنموذج الساكن – الصوتي، وطريقة إضافة الحركات – في كتابة الصوتيات لدى الشعوب السامية، مشروطا بسببين، أولهما، سبب ديني، إذ لجأ العرب إلى استعمال هذه الحركات من أجل التعبير الدقيق عن الحركات الإعرابية بالنسبة لشعوب لم تكن تعرف العربية قبل الاسلام، وطبعات القرآن ما تزال تؤكد على التعبير الدقيق عن أدق هذه الحركات".

(50) المرجع نفسه، ص. 235.

تكن عملية فردية بقدر ما كانت عملية جماعية ساهمت فيها جميع مكونات الأمة الإسلامية القادرة، ونعني بذلك عموم الصحابة والنخبة التي كانت خبيرة بصناعة الخط العربي[51]. ومعلوم أن عملية التدوين قد شدّدت فيما شدّدت عليه على مسألة الرسم لارتباطها بعنصر الدلالة والإبانة عن المقاصد.

ومع مؤلف ابن البناء ندرك أن مسألة الخط، وإن كانت مرتبطة – وكما يظهر لأول وهلة – بجانب صناعي، فإنها عند التحقيق ترتبط بجانب إعرابي بياني وعقائدي أيضا، خاصة وأن خصوصيات المعاني الإسلامية تقسم الوجود إلى مدركات بشرية وإلى مالا يدركه البشر، كما تقسم العلم إلى علم بشري قائم موجود وعلم رباني كلي وغيبي.

إن ما اتجه إليه الصحابة كان عن قصد وحرص في رسم دلالات القرآن. بينما نجد أن عملية تقعيد الخط فيما بعد قد استوجبتها عملية تعريب الأمة الإسلامية وشدة الحاجة إلى الخط في شكل بسيط ومباشر، وهذه القضية تذكرنا بمسألة التعريب في العصر الجاهليّ وصدر الإسلاميّ والعصر العباسيّ، إذ عرَّب القدماء عن ذوق وسعة، وعرَّب المتأخرون عن حاجة وضيق أمام المد الحضاريّ للأمم المفتوحة[52].

(51) نذكر منهم زيد بن ثابت (ر) كاتب الوحي لرسول الله وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام. ينظر صحيح البخاري، المجلد3، ص. 416، وجاء في ابن فارس (1993): "وكان في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كاتبون منهم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وعثمان وزيد وغيرهم"، ص 40، وجاء فيه أيضا: "ومن الدليل على عرفان القدماء من الصحابة في فقه اللغة بالعربية كتابتهم المصحف على الذي يعلله النحويون في ذوات الواو والياء والهمز والمد والقصر فكتبوا ذوات الياء بالياء وذوات الواو بالواو ولم يصوروا الهمزة إذا كان ما قبلها ساكنا في مثل "الخباء" و"الدف" و"الملة" فصار ذلك كله حجة وحتى كره من العلماء ترك اتباع المصحف من كره"، ص 42. وانظر: محمد المنوني (1982) في شكل الخط الحجازي وأن أصل المصاحف كانت بالخط المكي والمدني وأن لهذا الخط خصوصياته. و*غانم قدوري الحمد* (1982) ص. 232 وما بعدها، في أن الرسم بني على حكمة ذهبت بذهاب كتبه.

(52) يرى تمام حسان (1981) أن "الفصحاء الأولين عربوا عن عفو ومطابقة ذوق، ولكن المترجمين والمحدثين عربوا عن قصد ومراعاة حاجة، فكان لا بد أن يتسامح المتأخرون فيما تأنق فيه المتقدمون"، ص. 282.

وفي ظننا أن مسألة قلة الكتاب لأول الإسلام لا يمكن أن تعتبر معيارا لجودة الخط أو رداءته[53]، وذلك:

– لأن الرسول – صلى الله عليه وسلم – اتجه إلى تعليم الخط للصحابة، وأن الخط العربيّ في ذلك العصر استطاع أن يستوعب القرآن والحديث ومراسلات الرسول والصحابة بعده[54].

– أن الاهتمام بالخط كان يقصد منه الحفاظ على القرآن وسد الحاجات المتجددة في المجتمع الإسلاميّ الأول. وأن الإسلام ظهر وفي الأمة العربية كُتّاب يكتبون بالخط العبري وخطوط أخرى إضافة إلى الخط العربيّ.

ويمكن أن نجمل الآراء التي عللت الرسم العثماني قبل ابن البناء فيما يلي:

1 – طبيعة الخط في عصر التدوين الأول؛ أي عند تدوين القرآن[55].

2 – ضعف صناعة الخط عند الصحابة وعند العرب لكون الخط صناعة والصناعة لا يتقنها البدو[56].

3 – اختلاف القراءات وما نتج عنه من اختلاف الضبط عند الرسم[57].

---

(53) يقول ابن خلدون: "ومن حمير تعلمت مضر الكتابة العربية إلا أنهم لم يكونوا مجيدين لها شأن الصنائع إذا وقعت بالبدو، فلا تكون محكمة المذاهب ولا مائلة إلى الإتقان والتنميق لبون ما بين البدو والصناعة" المقدمة، ص. 330.

(54) انظر ابن عبد ربه الأندلسي: كتاب الرسول صلى الله عليه وسلم لأكيدر دومه ولوائل بن حجر الحضرمي– الجزء الأول، ص. 255-256.

يقول ابن الجزري ج1 ص11: قد خولف صريح الرسم في موضع، نحو: (السموات والصلحات والبلا والصلوة والزكوة والربوا)، وقد توافق بعض القراءات الرسم تحقيقا ويوافقها بعضها تقديرا، نحو: (ملك يوم الدين) فإنه كتب بغير ألف في جميع المصاحف فقراءة الحذف تحتمله تحقيقا، كما كتب (ملك الناس) وقراءة الألف محتملة تقديرا، كما كتب (مالك الملك) فتكون الألف حذفت اختصارا "، فهل هذه المخالفة كانت عن قصد أم لا؟

(55) السيوطي ج. 2، ص. 166-167. والزمخشري (1953) ج. 2، ص. 79 ، و ابن الجزري ج. 1، ص. 7.

(56) ابن خلدون ص. 330.

(57) ابن الجزري ج1، ص. 11-33.

4 – مراعاة جانب القراءة، كالاختصار والتفخيم والترقيق ومراد الأصل[58].

وأما آراء ابن البناء فقد اعتمدت على تعليل يقوم على منطلقات منهجية، منها:

أ – اعتبار الخط العثماني توقيفًا، واعتبار مخالفته لخطوط الأنام ناشئًا عن علم ودراية وتحقق، فقد كان "خط المصحف الذي هو الإمام الذي يعتمده القارئ في الوقف والتمام ولا يعدو رسومه ولا يتجاوز مرسومه قد خالف خط الأنام في كثير من الحروف و الأعلام، ولم يكن ذلك منهم كيف اتفق بل على أمر عندهم تحقق"[59] :

ب – تحديد عناصر الاختلاف بين الرسم القياسي والرسم التوقيفي، وهي:

1 – الهمزة.

2 – الألف/الواو/الياء (حروف المد).

3 – الزيادة.

4 – النقص.

5 – البدل.

6 – الوصل والفصل.

7 – الإدغام.

ج – تحديد العناصر التصورية التي تحكم العلاقة بين اللفظ والخط والسمع وأثر ذلك على دلالة الملفوظ أو المخطوط.

(58) أبو عمرو الداني(1)، ص. 44.

(59) ابن البناء (1990)، ص 30-30.

د – تحديد العناصر التي تحدث التغاير، في الحروف والألفاظ، وهي حروف المد وبيان الآثار اللفظية والخطية وعلاقتها بالآثار الدلالية.

هـ – رصد العلاقات بين الصور اللفظية – التصاريف – وبين الصور المعنوية – تصاريف المعاني– انطلاقًا من مفهوم الوجود، ومفهوم الإدراك، والأشكال المتخيلة، من خلال الرسم أو اللفظ.

هكذا، يظهر أن ابن البناء ينطلق من تصور يشكل بناءً هرميًا، قاعدته المنطلقات النظرية، وقمته حدود الرسم والدلالات الناتجة عن القاعدة، ولقد سبق ابن البناء إلى وضع اصطلاح "صورة" للموجات الصوتية وللرسوم الخطية، كما أنه قام بالربط ربطًا اصطلاحيًا بين اللفظ والصوت، وحدد المخارج تحديدًا دقيقًا، فقال: "إن الخط المحسوس له صورة تدرك بالأبصار واللفظ المسموع له صورة تدرك بالآذان، ومحل اللفظ الصوت وهو من لدن محل الهمزة في أقصى الحلق إلى الشفتين، ثم إلى حيث يبلغ في الوجود. وفي الصوت تحدث الحروف المقطعة المسموعة في اللفظ، وما وراء الهمزة في الصدر، من الهواء المندفع في الحجاب، الذي به يكون التصويت لا يسمع"[60].

ويرى ابن البناء أنه لما كانت المعاني "تعتبر اعتبارين: تعتبر من باب الوجود بالفعل سواء كانت في الوجود أو لم تكن. والتنزيل في الخطاب بين هذه الأقسام صارت اللفظة بحسب ذلك منزلة في الاعتبارين التامين وأقسام الوجود فاحتاجت إلى فرقان".

ويضيف ابن البناء أنه إذا "بطنت حروف في الخط ولم تكتب فلمعنى باطن في الوجود عن الإدراك وإذا ظهرت فلمعنى ظاهر في الوجود إلى الإدراك، كما إذا وصلت فلمعنى موصول وإذا حجزت فلمعنى مفصول، وإذا تغيرت بضرب من التغير دلت على تغير في المعنى في الوجود يظهر في الإدراك"[61].

(60) ابن البناء (1990)، ص. 30-31.

(61) المرجع نفسه، ص. 33-34.

وهكذا نرى تماثل الصورة السمعية والصورة الخطية في تأدية معنى أو تصور، تكون الصورة السمعية سمة وعلامة ودليلا عليها.

والتحديد الدقيق لمخارج الحرف بين مبادئها وآخرها مكن ابن البناء من وضع حدود ما يسمع وما لا يسمع انطلاقًا من وضع الهمزة، يقول: "الهمزة مبدأ الصوت فلا صورة لها لأنها حد بين ما يسمع وما لا يسمع ولا يتأتى النطق بها ساكنة، ولا شيء من الحروف الساكنة ابتداء، إلا بتقديم الهمزة فلا بد من حركتها ضرورة"[62].

إن وضع الهمزة جعلها تستأثر بالحركات الثلاث حيث تكون لها بالاضطرار، بينما تكون لسائر الحروف الساكنة بالاختيار، وطبيعة هذه الحركات تتأثر وتؤثر في الصورة الصوتية والشكلية للهمزة: "فإذا طولت الهمزة بمد الصوت، حدثت حروف المد واللين الثلاثة، تابعة للحركات الثلاث، فلها صورة ظاهرة في السمع وهي الألف والواو والياء"[63].

ولما كان الانفتاح هو أصل الصوت، كان النصب أول الحركات، وأخفها في الحس على النفس: "ثم يعرض له الضم والكسر وأثقلها فعل الرفع، ودونه فعل الخفض"[64].

ويرى ابن البناء أن حروف المد قد وجدت في أول الحروف كما توجد في آخرها، حتى لما تنعدم صورة الهمزة في الخط[65]، وذلك لأن هذه "الحروف

(62) نفسه، ص.30، ويلاحظ تقارب وصف المخارج بين ابن البناء والفقيه الكيا الهراسي (انظر السيوطي (1987) ج.1، 36-37. ووضع ابن البناء للهمزة في أول مخارج الحروف يتوافق مع ما ذهب إليه سيبويه (1982)، ج4، ص 431، وابن جني (1985)، ج1 ص45، وقد ذهب الجرجاني علي (1985) إلى شبه ما جاء عند ابن البناء، فقال إن الكلام" أصوات محلها من الأسماع محل النواظر من الأبصار"، ص. 42.

(63) ابن البناء (1990)، ص. 31.

(64) المرجع نفسه، ص. 31.

(65) نفسه، ص. 32.

الثلاثة من حيث اتصلت بالهمزة كانت أول الحروف كلها لأنها في مقطع الهمزة والحروف بعدها في مقاطع أنفسها. وإذا تحركت الحروف وطولت بالمد تبعتها هذه الحروف الثلاثة أيضا. فكانت بهذه الجهة آخر الحروف كلها. وهي مع مد حرف في مقطعه بينما تظل الهمزة مفتقرة إلى حروف المد إذا عضدت في موضع الخط"[66].

ثم إن لهذه أحوالا مناسبة لأحوال الوجود حصل به بينها ارتباط به يكون الاستدلال [67].

الحرف	دلالته	صفته
الهمزة	الأصالة والمبادئ	لا صورة لها-متحركة
الألف	الكون بالفعل في الوجود	مفضلة، أول الحروف في الفصل بين ما يسمع وما لا يسمع متصلة بهمزة الابتداء
الواو	الظهور والارتفاع والارتقاء	جامعة، لأنها من غلظ الصوت وارتفاعه بالشفة معا إلى أبعد رتبة في الظهور
الياء	البطون	مخصصة لأنها عن رقة الصوت وانخفاضه في باطن الفم

ودلالة كل حرف ترتبط بالمعاني الاعتبارية، وعن هذا الارتباط تظهر الصفة، ويتضح السر في ظهور أو إخفاء الحرف والمعنى تعتبر من بابين [68].

- باب الوجود بالفعل "سواء كانت محصلة لنا أو لم تكن".

(66) نفسه، ص. 32.

(67) نفسه، 32.

(68) نفسه، ص.33. وانظر قيمة الأصوات في دراسة الأسلوب والدلالة في:

Pierre Leon Precic (1993).

– باب الإدراك والعلم "سواء كانت في الوجود أو لم تكن".

وينقسم باب الوجود بدوره إلى قسمين: ما يدرك وما لا يدرك، والذي يدرك على قسمين : ظاهر ويسمى الملك، وباطن ويسمى الملكوت"[69].

والذي لا يدرك نتوهمه على قسمين:

– ما ليس من شأنه أن يدرك معاني أسماء الله وصفاته وأفعاله.

– ما من شأنه أن يدرك لكن لم نصله بإدراك "وهو ما كان في الدنيا ولم ندركه ولا مثله، وما يكون في الآخرة وما في الجنة".

وينقسم الإدراك إلى قسمين:

– ما مدركه الضرورة والأخبار، وهو التجريبي.

– ما مدركه النظر والاعتبار، وهو الاعتباري[70].

ويستنتج ابن البناء من كل ما سبق أنه لا بد من فرقان وبيان بين الألفاظ، عن طريق تلك الحروف" فبالتنزيل في الخطاب بين هذه الأقسام صارت اللفظة بحسب ذلك مشتركة في الاعتبار بين البابين وأقسام الوجود فاحتاجت إلى فرقان. فيجعل الألف تدل على قسم الملكوت منه لأنها أبطن في الإدراك[71]. ويظهر، من تحليل ابن البناء، توقفه في كشف أسباب مخالفة الرسم العثمانيّ للرسم القياسيّ. كما يظهر أن الوقوف على هذه الرسالة من شأنه أن يلقي

(69) ابن البناء (1990)، ص 33. رغم التشابه والتماثل الذي يظهر لأول وهلة بين اهتمام ابن البناء في هذه الرسالة واهتمامات علماء الأوفاق والسيميا وغيرها بالحروف، فإن واقع الحال لا يشي بذلك إذ لكل توجه خاص، فلو عدنا مثلا إلى البوني ص. 302-355، الجزء الثالث الفصل الحادي والثلاثون وهو في الحروف وحالات الخواص، فإننا لا نجد تماثلا، إذ المنطلقات الأساسية للبوني هي وجود أسرار الكون والروح في الحروف العربية ولهذا نزل بها القرآن الكريم (وسر كتاب الله في الحروف)، بينما ينطلق ابن البناء من مرجعية فكرية خاصة.

(70) ابن البناء (1990)، ص. 34.

(71) المرجع نفسه.

الأضواء على كثير من القضايا التي اختلف حولها في اللغة العربية وفي القراءات والرسم، والتي ظلت دون جواب مقنع فيها. وبعد أن نشير إلى نماذج ابن البناء في التحليل سنعود إلى بعض تلك القضايا.

نلاحظ أن ابن البناء قد قام بتحديد خصائص الهمزة الصوتية والخطية، "فالهمزة من جهة الابتداء من الألف الذي هو ألف الحروف التي للمد واللين ثم معضد في مواضع بأحد هذه الحروف الثلاثة ويتأتى سقوطها. فإن تأتى سقوطها، خرجت عن أصالتها، فلم تعضد، إلا أن يكون في المعنى ما يقوي ظهورها فتعضد"[72].

وإذا كانت الهمزة في أول الكلمة فإنه لا يتأتى سقوطها وذلك[73]:

- للتحرك وانعدام السابق.
- لأنها مبدأ الحروف من جهة المعنى.
- لأنها تعضد بالألف لأنها أول الحروف مهما كانت حركتها.

أما إذا وقعت الهمزة آخر الكلمة فإنها تخرج عن أصالتها لوضعها محل الوقف والسكون "فإذا كان ما قبلها متحركا، مثل يستهزئ فإنه لا يتأتى سقوطها بإلقاء حركتها عليه، لأنه متحرك" ويصح النطق بها ساكنة وتعضد بحرف من جنس حركة ما قبلها (هيأ-يهيئ)، إلا أن يقوى معناها في الكلمة بحيث تكون مرتبة ظاهرة أصلية في الاعتبار فتعضد بحرف حركتها، مثل: (الملوا) أربعة أحرف، عضد فيها الهمزة بالواو وتنبيها على أن معنى الكلمة ظاهر للفهم، في قسم الملك من الوجود. فهؤلاء (الملوا) هم أرفع الطبقات وهم أصحاب الأمر المرجوع إليهم في التدبير فقوي معنى الهمزة فعضدت وزيدت الألف بعد الواو تنبيها على أنهم أحد قسمي الملأ فظهورهم هم بالنسبة إلى

(72) المرجع نفسه، ص. 35.

(73) المرجع نفسه، ص. 36.

القسم الآخر في الوجود إذ منهم التابع والمتبوع قد انفصلا في الوجود"[74]. فزيادة هذه الحروف ونقصانها ينوب مناب ذكر صفات الوجود.

ويدلّ على هذا التأويل ما جاء في قصة نوح في سورة (المؤمنون) في وصف الملإ بالذين كفروا. وبعده نسبوا إلى قومه وقالوا في الآية: "يريد أن يتفضل عليكم". وآخرها" فتربصوا به حتى حين" فلهم الأمر في قومه ولا يرون أحدًا من البشر (فوقهم) لقولهم "وَلَو شَاءَ اللهُ لأَنزَلَ مَلائِكة" فهؤلاء الطبقة العليا في الملإ. ثم طبقة أخرى دون هؤلاء يدّل عليها ما في قصة نوح أيضا سورة (هود)، فإنهم وصفوا بالذين كفروا وبعدها نسبوا إلى قومه مثل أولئك. وقال هؤلاء في الآية: "وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَينا مِن فَضْلٍ بَل نَظُنُكمْ كَاذِبِين" فارفع طبقة وأظهره في الوجود هم الذين عضدت همزتهم[75].

وفي باب الألف يقول ابن البناء "تزاد الألف باعتبار معنى زائد بالنسبة إلى ما قبله في الوجود مثل "أو لأ اذبحنه" أ، "لا أو ضعوا خلالكم" زيدت الألف تنبيها على أن المؤخّر أشد وأثقل في الوجود من "المقدّم" عليه لفظا. فالذبح أشد من العذاب والإيداع أشد فسادا من زيادة الخبال وظهرت الألف في الخط لظهور القسمين في العلم"[76].

ويقول في الألف الناقصة: "كل ألف تكون في كلمة لمعنى له تفصيل في الوجود إذا اعتبر ذاك من جهة ملكوتية أو صفة حالية أو أمور علوية مما لا يدركه الحس فإن الألف تحذف في الخط علامة لذلك، وإذا اعتبر من جهة ملكية، أو صفة حقيقية في العلم وأمور سفلية، ثبتت الألف. واعتبر ذلك في لفظتي القرآن والكتاب. فإن القرآن هو تفصيل الآيات التي أحكمت في لفظتي

(74) نفسه.

(75) نفسه ، ص. 36-38.

(76) نفسه ، ص. 56.

القرآن والكتاب. فإن القرآن هو تفصيل الآيات التي أحكمت في الكتاب. فالقرآن أدنى إلينا في الفهم من الكتاب وأظهر في التنزيل، قال الله تعالى في هود: "ألر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكيمٍ خَبِيرٍ"[77].

ذكرنا فيما سبق أن بحث ابن البناء في تفسير دلالات الرسم العثماني يمكن أن تفيد في إعادة قراءة بعض القضايا التي طرحت في علوم القرآن وعلوم اللغة العربية، ونذكر من ذلك:

4. الإعجاز القرآني

معلوم أن درس الإعجاز قد ارتبط في بعض وجوهه بالبلاغة والفصاحة التي حازتها أساليب القرآن. ومن هنا يمكن أن نرى مسألة الدقة والفصاحة في ألفاظ القرآن الكريم من خلال طرح ابن البناء. يقول "الخطابي": "اعلم أن القرآن إنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنًا أصح المعاني، ثمّ اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات، هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام، موضعه الأخص الأشكل به، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إما تبدل المعنى، الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة. ذلك أن في الكلام ألفاظًا متقاربة في المعاني، يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب، كالعلم والمعرفة، والحمد والشكر، والبُخل والشُّحّ، والنعت والصفة، وكقولك اقعد واجلس، وبلى ونعم، وذلك وذاك، ومن وعن ونحوها من الأسماء والأفعال والحروف والصفات والأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك، لأن لكل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبتها في بعض معانيها وإن كانا قد يشتركان في بعضها"[78].

(77) نفسه، ص. 65.

(78) الخطابي ، ص. 24-26.

وأما ابن البناء فقد أضاف توجهًا جديدًا حول دقّة القرآن في عرض معانيه، وهذا النوع أرقى من النوع الأول الذي ذكره الخطابي، إذ إن المباينة في الدلالة بالنسبة للدقة عند الخطابي تظهر من خلال مادة اشتقاقية مقابل أخرى؛ أي بين البُخل والشُّحّ والحمد والشكر، بينما تظهر عند ابن البناء من خلال مستويات الصوائت في العربية إضافة إلى "الهمزة"، وذلك من خلال التقوية والإثبات أو الحذف داخل نفس "المادة"، ويظهر ذلك من خلال دلالة لفظ "الملوا"، وهم أرفع الطبقات وأصحاب الأمر المرجع إليهم في التدبير"، ولفظ "الملوا" دون تقوية للهمزة. فيكون المعنى "طبقة دون الطبقة الأولى في الشرف"[79].

إن الدلالة المقصودة داخل المادة المذكورة تظهر من خلال حذف الألف كقوله تعالى: "والذين سعو في آيتنا معجزين "هذا سعي بالباطل ملكوتي لا يصح له ثبوت في الوجود من حيث هم "معاجزون" فسعيهم باطل في الوجود، وكذلك" وجاء وبسحر عظيم" و"جاءو ظلما وزورا" و"جاءو أباهم عشاء" و"جاءو على قميصه" هذا المجيء ليس على وجهه من حالة الوجود الملكي الصحيحة"[80].

5. تاريخ الخط العربيّ والعربية

كما أن نظرية ابن البناء قد تسعفنا في إعادة قراءة تاريخ العربية وعلاقتها باللغات السامية. وواضح أن الصوامت تؤدي فيها فكرة عامة "في حين تحدد الصوائت هذه الفكرة تحديدًا دقيقًا"[81]، ومن ثمَّ كان التعبير بالصوائت في اللغات السامية وليد عملية واعية، هدفها تحسين العلاقة بين الصوت اللغويّ والرمز الكتابي؛ أي بين ال "signifiant" وال [82] "signifiant".

(79) ابن البناء (1990)، ص. 37-38.
(80) المرجع نفسه، ص. 58-59.
(81) رامز البعلبكي (1981)، ص. 321.
(82) المرجع نفسه، ص. 331.

وتتميز العربية عن غيرها من اللغات السامية في كون الفرق فيها بين الصوائت القصيرة الطويلة فرقا فونيميا؛ أي "أن معنى الكلمة قد يختلف بحسب طول الصائت، كالفرق بين قتل وقاتل، وبين خمر وخمور"[83].

وإذا كان الأمر كذلك، فإن آراء ابن البناء تقترب كثيرًا من جوهر الصوائت الذي اعتمدته العربية في الدلالة. ومن ذلك رأيه في الواو التي يرى أنها إذا زيدت دلّت"على ظهور معنى الكلمة في الوجود في أعلى طبقة وأعظم رتبة "[84]، ولعلّ هذا ما يفسر وجود الواو في أسماء الأعلام القديمة "كنزرو" الذي وجد في نقش النمارة و"فهرو" في نقش أم الجمال الأول.

وفيما يفسر لنا ابن البناء زيادة الواو "بالظهور" وفيما يظهر لنا من خلال ذلك أن الأعلام قديمًا كانت تزاد فيها الواو لظهورها بين أفراد جنسها – وتلك وظيفة العلم– تجد رمزي البعلبكي يفسر ذلك تفسيرا غير مقنع[85]، يقول: "ونزرو" نزار "بلا خوف"، أما الواو التي تظهر كتابة فمألوفة في كتابة الأعلام في النبطية والتدمرية، وقد بقي منها في العربية حرف واحد هو عمرو قيل إنه يكتب بالواو في الرفع والجر تفرقة بينه وبين عمر[86]. ولهذا فاعتباره "كتابة الواو" مع أغلب أسماء الأعلام راجعة إلى مبحث الإملاء ولا علاقة لها مطلقا باللغة[87]،لا يستند إلى أساس علمي مقبول ومعلل بالأدلة الكافية.

ونفس الشيء يمكن أن نقوله عن "مد التاءات وقبضها"، حيث لم يطالعنا البعلبكي بتفسير يساير واقع "التاء" في الكتابات السامية وفي الرسم العثماني ك "ال ه ت"؛ أي "الهة"، و"ب رت"؛ أي "ابنة"، و"ش ن ت"؛ أي سنة[88] أو

(83) نفسه، ص. 358.

(84) ابن البناء (1990)، ص. 87.

(85) وهذا لا يخرج عن تعليل النحاة القدامى.

(86) رامز البعلبكي (1981)، ص. 132-133.

(87) المرجع نفسه، ص. 160-162.

(88) نفسه، ص. 168-177.

"الرحمت" و"النعمت" وغيرها من الألفاظ في القرآن، والتي رأى ابن البناء أنها جاءت في الاسم المفرد المضاف الذي فيه علامة التأنيث، وذلك أن هذه الأسماء لما كانت يلازمها الفعل صارت تعتبر اعتبارين:

– أحدهما من حيث هي أسماء وصفات، وهذا تقبض فيه التاء.

– والثاني من حيث يكون مقتضاها فعلا وأثرًا ظاهرًا في الوجود، فهذا تمد فيه التاء كما تمد في: قالت وحقت. وجهة الفعل والأثر ملكية ظاهرة، وجهة الاسم والصفة ملكوتية/باطنة.

فمن ذلك "الرحمة" مدت في سبعة مواضع للعلة التي ذكرت يدل عليه ما جاء في أحدها "إِنَّ رَحمتَ الله قَرِيبٌ من المُحْسِنِين" فوصفها على التذكير فهو الفعل، وكذلك "فانظر إلى أثر رَحمت الله"، والأثر هو بالفعل ضرورة[89].

لقد كان التوجه المعياريّ القائم على الفصاحة والشيوع، سندًا مهمًّا للدراسات المعجمية والنحوية التي قعدت للعربية، "ويتضح الاعتماد على معيار الفصاحة في مجال المعجم في كون الذين دنوا اللغة وألفوها في قواميس قد جعلوا الفيصل بين ما ينبغي قبوله وما ينبغي رفضه هو (كلام العرب) أو (لغة العرب)[90]"، ومن جهة أخرى "وعلى مستوى الدرس النحويّ والصرفيّ استعملت (الفصاحة) أيضا معيارًا لوضع القواعد وتعميمها. فالكلام الذي استنبطت منه القواعد هو (كلام العرب) الذي لا يخرج عن حيز القبائل المسموح بالاستشهاد بلغتها في إطار الزمن والمكان المحددين. وداخل هذا الإطار العام (للفصاحة)، وقع أيضا ترتيب الكلام في درجات حسب الكثرة والقلة والقياس والشذوذ، فالكثير المطرد هو الأفصح والقليل أو الشاذ يترك جانبا ليحفظ ولا يقاس عليه"[91].

(89) ابن البناء (1990)، ص.109-111.

(90) عبد العلي الودغيري (1989)، ص. 50.

(91) المرجع نفسه، ص. 51.

وهذه المبادئ؛ أي الكثرة والقلة والقياس والشذوذ، هي التي دفعت القدماء إلى إهمال خصوصيات الرسم العثمانيّ من الناحية اللغوية والنحوية، فقد "قال ابن درستويه: "خطان لا يقاس عليهما خط المصحف وخط تقطيع العروض". وقال أبو البقاء في كتاب "اللباب": "ذهب جماعة من أهل اللّغة إلى كتابة الكلمة على لفظها إلا في خطّ المصحف، فإنهم اتبعوا في ذلك ما وجدوه في الإمام، والعمل على الأول.

فحصل أن الخط ثلاثة أقسام: خطّ يتبع به الاقتداء السلفي، وهو رسم المصحف، وخط جرى على ما أثبته اللّفظ وإسقاط ما حذفه، وهو خطّ العروض، فيكتبون التنوين ويحذفون همزة الوصل. وخطّ جرى على المعروفة، وهو الذي يتكلم عليه النحويّ"[92].

وفي رأينا أن الاستناد إلى قاعدة القلّة والكثرة بعيدا عن ظواهر الرسم العثماني، دفع إلى إسقاط بعض الملامح المهمة في اللّغة العربية، ومن المعلوم أنه "من العلوم التي ينبغي الاعتماد عليها في دراسة العربية الفصحى علم القراءات القرآنية، مشهورها وشاذها، لأن روايتها هي أوثق الشواهد على ما كانت عليه ظواهرها الصوتية والصرفية والنحوية واللغوية بعامة"[93]. وإذا كان الأمر كذلك فإن الظواهر الخطية لا يمكن أن تكون بدعا على اللغة العربية، لما سبق أن بيناه.

وهكذا نضيف إلى الجانب اللغويّ للقضايا الدلالية النيي تضيفها الهمزة حسب موقعها من الكلمة، والتي تضيفها حروف المد واللين عند زيادتها أو حذفها، كما نضيف إلى الجانب النحويّ الخصوصيات الدلالية المرتبطة بالعناصر المذكورة، من ذلك قول ابن البناء: "وكذلك الألف الزائدة في الجموع السالمة والمكسرة وفي مصادر بعض الأفعال مثلا القانتات والقانتين والأسرار والجلال

(92) الزركشي (1957) : 376/1.

(93) عبد الصبور شاهين (1966) ، ص. 7.

والإكرام واختلاف واستكبار، فإنها كلها وردت لمعنى فصل اشتمل عليه معنى تلك اللفظة فتحذف حيث يبطن التفصيل، وتثبت حيث يظهر"[94].

وقوله: "اعلم أن الموصول في الوجود توصل كلمته في الخط كما توصل حروف الكلمة الواحدة. والمفصول معنى في الوجود، يفصل في الخط كما تفصل كلمة عن كلمة.

فمن ذلك "إنما بكسر الهمزة، كله موصول إلا حرف واحد. "إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ" فصل حرف التوكيد لأن حرف "ما" يقع على مفصل فمنه خير موعود به لأهل الخير، ومنه شر موعود به لأهل الشر، فمعنى "ما" مفصول في الوجود والعلم.

ومن ذلك "أنما" بفتح الهمزة كلها موصول إلا حرفان "وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ"، "وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ". وقع الفصل عن حرف التوكيد إذ ليس لدعوى غير الله فعل في الوجود إنما وصلها في العدم والنفي.

ويدلك عليه قوله تعالى عن المؤمن "لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة". "فوصل "أنما" في النفي وفصل في الإثبات لانفصاله عن دعوة الحق"[95].

(94) ابن البناء (1990)، ص. 68.

(95) المرجع نفسه، ص. 119-120.

المصادر والمراجع:

1 – البعلبكي رامز (1980): **الكتابة العربية والسامية**، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، 1981.

2 – بروكلمان (1974): **تاريخ الأدب العربي**، تر. عبد الحليم النجار، مصر 1974.

3 – محمد بلاجي: **"الكتابة والجسد: قراءة في الخيال الشعري"**، مجلة المناهل العدد 51، السنة 21، (1487-1996).

4 – أحمد البوني : **"شمس المعارف الكبرى"**، المكتبة الثقافية، بيروت.

5 – التينسي التلمساني: **الطراز في شرح ضبط الخراز**، مخطوطة الخزانة العامة، 1939د.

6 – الجرجاني علي(1985): **"الوساطة بين المتنبي وخصومه"**، تح هاشم الشادلي دار إحياء الكتب العربية، 1985.

7 – ابن الجزري: **النشر في القراءات العشر**، تح. علي محمد الطباع ، دار الفكر، دمشق.

8 – عزة حسن (1986): **مقدمة تحقيق كتاب المحكم في نقط المصاحف**، دار الفكر، دمشق ط 2، 1986.

9 – الخراز: **"عمدة البيان ومورد الظمآن في الرسم والضبط"**، مخطوط الخزانة العامة رقم 1371د و1147د.

10 – الخطابي: **بيان إعجاز القرآن** (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تح. محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ص. 24-26.

11 – ابن خلدون : **المقدمة**. دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت.

12 – عماد حاتم (1982): **"فقه اللغة وتاريخ الكتابة"**، المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلام، طرابلس، ليبيا، ط1، 1982.

13 – حاجي خليفة: **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، دار العلوم الحديثة، بيروت.

14 – أبو عمرو الداني: **المقنع**، دار الفكر، ط1، دمشق.

15 – الزركشي (1957): **البرهان في علوم القرآن**، القاهرة، ط1، 1957.- عبد الصبور شاهين (1966): **القراءات القرآنية قي ضوء علم اللغة الحديث**، دار القلم، 1966.

16 – الزركلي (1980) **الأعلام**، دار العلم للملايين، ط 5، بيروت، 1980.

17 – الزمخشري(1953): **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، القاهرة، 1953، ج. 2، ص. 79.

18 – السيوطي: **الإتقان في علوم القرآن**، المكتبة الثقافية ببيروت، ج. 2، ص. 166-167.

19 – هند شلبي(1990): **مقدمة عنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل**، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت.

20 – عبد الواحد بن عاشر : **فتح المنان على مورد الظمآن**، مخطوط الخزانة العامة، 2124د.

21 – علال الفاسي(1985): **المدخل لعلوم القرآن والتفسير**، تح. عبد الرحمان الحديثي، مؤسسة علال الفاسي، مطبعة الدارلبيضاء، الدارالبيضاء، 1985.

22 – أحمد العلوي، **رواية الحرف والعدد العربيين**، المناهل، ع. 39، السنة 17، 1998.

23 – ابن القاضي، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بفاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1973.

24 – عبد الرحمان بن القاضي : **بيان الخلاف والتشهير والاستحسان** وما أغفله مورد الظمآن وما سكت عنه في التنزيل والبرهان وجرى به العمل بين الخلافات الرسمية، مخطوط الخزانة العامة رقم 1371د.

25 – ابن غازي (1970) : **فهرس ابن غازي**، تح. محمد الزاهي، دار المعز الدارالبيضاء 1970.

26 – غانم قدوري الحمد: **رسم المصحف**، دراسة لغوية تاريخية، مؤسسة المطبوعات العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 1402-1982.

27 – حمد بن فارس(1993): **الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها**، تح. عمر فاروق الطحاوي، مكتبة المعاريف، بيروت، ط1، 1993.

28 – الكتاني: **سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس ممن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس**، طبعة حجرية.

29 – رضا كحالة: **معجم المؤلفين**، دار الجيل للتراث العربي ، بيروت.

30 – عبد الله كنون: ابن البناء المراكشي: **ذكريات مشاهير رجال المغرب**، دار الكتاب اللبنانية بيروت.

31 – الماغرني(1906): **دليل الحيران على مورد الظمآن**، المطبعة العمومية، تونس، 1326هـ.

32 – مجاهد عبد الرحمن، (1982): **الدلالة الصوتية والدلالة الصرفية عند ابن جني**، مجلة الفكر العربي العدد 26، مارس 1982 – بيروت.

33 – مجمع اللغة العربية بالقاهرة: **المعجم الوسيط**، المكتبة الإسلامية ، استانبول.

34 – أبوزيد المنجرة : **حواشي على شرح التينسي**، مخطوط الخزانة العامة، 1532د.

35 – ابن منظور: **لسان العرب**، دار صادر، بيروت.

36 – محمد المنوني(1982): **"لمحة عن تاريخ الخط العربي"**، مجلة المناهل، ع.24، س9، 1982.

37 – ابن النديم. (1978): **الفهرست**، دار المعرفة ، بيروت.

38 – عبد العلي الودغيري(1980): **قضايا المعجم العربي في كتابات ابن الطيب الشرقي**، منشورات عكاظ، الرباط، ط1، 1409-1989.

39 - Pierre Leon Precic de phonostylistique: Parole et expressivite-édition NATHAN, 1993.

أسلوب التّقديم والتّأخير
بين عبد القاهر الجرجاني ونوام تشومسكي

أ. عالية زروقي(*)

ملخّص المقال:

يُعدُّ **التقديم والتأخير** أسلوبًا ذا أهمية بالغة، يرتبط أساسا بصميم اللغة وما تتضح به من مقاصد عبر التواصل بمختلف أشكاله وأنواعه، وتبعا لذلك أولاه اللغويون القدامى بالغ اهتمامهم وفائق عنايتهم، لا سيما **عبد القاهر الجرجاني** الذي حدّد طرقه، وحصر دلالاته. ولكن الاهتمام بهذا الأسلوب لم يبقَ حبيس الدراسات العربية القديمة، إذ نجده اليوم في أحد أهم النظريات اللغوية الحديثة لدى **نوام تشومسكي** من خلال **نظريته التوليديّة التحويليّة**، ولمعرفة الفرق بين الدرسين، بين المنطلقات والأهداف، نطرح جملة من التساؤلات الجوهرية: كيف اعتنى كلّ من العالِمَيْن بأسلوب التقديم والتأخير؟ ما هي الأدوات الإجرائية لكلّ منهما؟ والنتائج المتوصَّل إليها على مستوى الدرسين؟ وبمَ يمكن تفسير ذلك؟

الكلمات الدالة: التقديم والتأخير، التحويل، الترتيب، الجملة النواة، البنية العميقة، البنية السطحية.

(*) جامعة الشلف – الجزائر.

اللّغة أيًّا كانت طبيعتها لها علاقة بالفكر الإنسانيّ ومقاصده، والمجتمع وعوائده وطباعه وسلوكات أهله، وهذه العلاقة أكسبت اللغة عبر العصور مرونة عجيبة في التعبير عما يريده الإنسان، وحرية واسعة في الإفصاح عن المشاعر والأحاسيس، وما ذاك إلا لاتساعها، وتنوع طاقاتها التعبيرية وكثرة أساليبها، فكان فيها الإضمار والإظهار والكناية والتصريح، والإشارة والتلميح والتقديم والتأخير.

ونظرًا لأهمية **التقديم والتأخير** كموضوع يرتبط أساسًا بصميم اللّغة وما تتضح به من مقاصد عبر التواصل بمختلف أشكاله وأنواعه، أولاه الدارسون اللغويون بالغ اهتمامهم وفائق عنايتهم، سواء القدامى منهم أو المحدَثين. وإذا كان هذا الأسلوب معروفًا أكثر عند البلاغيين العرب أمثال **عبد القاهر الجرجاني**، فإننا اليوم نتلمَّس الاهتمام به في إحدى أهم النظريات اللّغويّة المعاصرة التي قدّمها **نوام تشومسكي** فيما يُعرف **بالنظرية التوليديّة التحويليّة**[1]. ويعد هذا الاهتمام والتشابه في الطرح ذريعة للقيام بعملية مقارنة بين طبيعة تحليل تشومسكي لأسلوب التقديم والتأخير وبين ما قدّمه البلاغيّ العربيّ الشهير عبد القاهر الجرجاني.

والتقديم والتأخير مسألة لغوية يجدر تقديم تعريف لغويّ ومن ثمّة اصطلاحيّ لها، لتحديد المفاهيم الأوليّة، حيث جاء في (قاموس المحيط) للفيروزآبادي التعريف اللغويّ للّفظيْن:

(1) النظرية التوليدية التحويلية من أكثر النظريات اللسانية المعاصرة شهرة ودقة في النتائج، من خلال ما قدمه نوام تشومسكي من دراسات ونظريات متدرجة في التطور، حيث كانت البداية مع كتاب التراكيب النحوية 1957 الذي راعى فيها السلامة النحوية كشرط أساسي لتركيب جمل سليمة، وبعد الملاحظات التي قدمها له تلامذته كاتز وبوسطل، استدرك العنصر الدلالي معتبرا إياه مكونا أساسيا لا مجال لإغفاله، ثم انتقل إلى مرحلة النموذج المعيار الموسع لم يتغير فيه مفهوم المكون الدلالي وإنما تم ربطه بالمستويين السطحي والعميق.

التقديم : من الفعل قدّم: "قدَم القوم، كنصَر، قُدْمًا وقُدومًا وقدّمهم واستقدمهم، تقدّمهم، (...) تقدّم إليه في كذا: أمره، وأوصاه به والمقدمة كمحدثة، صرب من الامتشـاط (...) وقدّمت يمينا : حلفتُ وأقدمتُه"[2].

التأخير: من أخر: "الآخر بضمتين : ضدّ القدُم، وتأخر وأخر تأخيرًا، استأخر وأخرته، لازم متعدٍّ، وآخرة العين ومؤخرتها، والغائب كالأخير"[3].

أما من الناحية الاصطلاحية : فإنّ التقديم عكس التأخير، و"هو تبادل في المواقع، تُترك الكلمة مكانها في المقدّمة لتحلّ محلّها كلمة أخرى، لتؤدي غرضًا بلاغيّا ما كانت لتؤديه لو أنها بقيت في مكانها الذي حكمت به قاعدة الانضباط اللغويّ"[4]. و"التقديم يكون أصلا في بعض العوامل والمعمولات، ويكون طارئًا في بعضها الآخر، ومما يجب التقديم فيه وهو أصل الفعل مع الفاعل والمبتدأ مع الخبر والفاعل مع المفعول وبقية الفضلات والمكملات"[5]، والتقديم يستلزم تأخيرًا، فكل تقديم يلزمه تأخير بالضرورة.

وبناءً على ذلك فإن "التأخير في الاستعمال النحويّ حالة من التغيير تطرأ على جزء من أجزاء الجملة وتوجب وضعه في موضع لم يكن له في الأصل"[6]. والعناصر اللغويّة التي تتقدّم يحدث تبادل بينها وبين عناصر أخرى تتأخَّر بتقدُّم الأولى.

---

(2) الإمام مجد الدين محمد الدين بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الفيروزآبادي، (1420 هـ – 1999م)، ص 128.

(3) المرجع السابق، ص 5.

(4) منير سلطان، ص 138.

(5) محمد سمير نجيب اللبدي، (1406هـ 1986م)، ص 183.

(6) المرجع السابق، ص 9.

والتقديم والتأخير من أهم الطرق التحويلية[7] التي أشار إليها تشومسكي في نظريته الواردة في كتاب "البنى التركيبية" 1957 ؛ ذلك أن عملية "التأليف بين الوحدات اللغويّة الصغرى تهدف إلى بناء مكونات أكبر فمركبات فجمل، وهذه العملية تنتظمها رتب تختلف في اللّغة الواحدة أو في اللغات المختلفة، غير أن تغيّرات الرتبة ليست اعتباطيّة أو غير محددة، بل هناك ما يدلّ على وجود قيود على رتب المكونات الكبرى داخل الجمل"[8]، فلكل لغة نظام خاص تتآلف حسبه مكونات الجمل من فعل وفاعل ومفعول، ولكلٍّ من هذه المكوّنات مكان خاص أو رتبة معينة يحتلّها داخل التركيب، غير أن هذا النظام ليس ثابتًا في جميع أحواله، وإنما يمكن الخروج عنه بتغيير رتب مكوّناته دون حدوث أي خلل يمسّ المعنى العميق الحقيقيّ له.

بما أن الجمل لها ترتيب خاص على مستوى البنية العميقة[9]، وآخر على مستوى الجملة النواة[10] – الناتجة عن مجموع التحويلات الإجبارية[11] –

(7) قدم تشومسكي عددا من التحويلات التي يمكن أن تولّد جملا مختلفة من حيث التركيب الشكلي، متماثلة من حيث البنية العميقة التي تحوّل عنها، فهذه التحويلات إذن تتم بين الجمل النواة والبنى السطحية الظاهرة من خلال: الحذف، الاستبدال، الزيادة والتقديم والتأخير. وينظر: حليمة أحمد عمايرة، (2006م)، ص 54.

(8) عبد القادر الفاسي الفهري، (1982)، ص103.

(9) مصطلح البنية العميقة يدل على مجموع العلاقات القائمة بين عدد من الوحدات في المستوى العميق غير الظاهر، وهي بذلك شكل تجريدي داخلي يعكس العمليات الفكرية التي تتم على مستوى الذهن تبعا لما يرغب المتكلم التحدث به؛ أي أنها تعكس المعنى الذي يقصده المتكلم، وعلى أساسه يكوِّن جمله المنطوقة. ينظر أحمد مومن، (12-2002)، ص 202.

(10) الجملة النواة تكون بين البنيتين العميقة والسطحية، يقود إليها نوع من أنواع القواعد التحويلية التي تطبق على البنية العميقة، وهي تتصف بصفات معينة – كأن تكون بسيطة، مبنية للمعلوم، مثبتة، خبرية، لم يطبق – عليها سوى تحويلات إجبارية – مثل التوافق في العدد، وإحلال الأفعال المساعدة على نحو صحيح .... وهي بذلك جمل تحتوي على جميع مكونات البنية العميقة وعلى أقل عدد من المكونات التحويلية. ينظر: جودث جرين، (1993)، ص61 .

(11) التحويلات الإجبارية وهي جزء من التحويلات الخاصة إلى جانب التحويلات الاختيارية، والتي تشمل قواعد الزمن والملحقات والحدود الفاصلة والإضافة. وتشمل الاختيارية قواعد المجهول، والنفي والاستفهام والأمر.

وأخيرًا على مستوى البنية السطحية[12] – التي تُعدّ خلاصة العمليات التحويلية التي تخضع لها الجملة في بنيتها العميقة – بترتيب معين. يرى الدكتور"الفاسي الفهري" أنه من الخطإ أن" يُسوّى بين مفهوم نظريّ كمفهوم الرتبة العميقة، ومفهوم عفويّ غامض كمفهوم الرتبة الأصليّة"[13]، وما دامت البنية العميقة تخضع للتحويل، فإن ترتيب وحداتها يتعرّض هو الآخر للتغيير ،" وقد حاول الألسنيون معرفة الترتيب في البنية العميقة؛ أي في البنية الأصلية التي توحيها قواعد اللغة أولا، ثم تلك التي تظهر على مستوى الإنجاز الفعليّ للّغة، قصد البحث عن القواعد التي تحوِّل هذا الترتيب إلى أنماط مختلفة في الكلام الفعلي في السطح"[14].

وقد توصّل الباحثون إلى ثلاث طرق تترتب وفقها اللغات الإنسانيّة:

"إذ الأولى عبارة عن الفاعل (المبتدأ) + الفعل + المفعول به (SVO).

أما الثانية فهي: الفاعل (المبتدأ)+ المفعول به + الفعل (SOV).

أما الثالثة فهي: الفعل + الفاعل + المفعول به (VSO)"[15].

ويَعتبر تشومسكي أن أصل الرتبة في الإنجليزية هو (SVO)، إذ يقول عن ذلك:

"ونجد في بعض اللغات أن الترتيب هو : الفعل – الفاعل – المفعول، وهو خروج فيما يبدو على المبدإ، (...) وهناك دليل في الواقع على أن البنية

(12) البنية السطحية نتيجة حتمية لما يحدث في المستوى العميق، وهي بذلك الجملة كما هي مستعملة في عملية التواصل؛ أي في شكلها الفيزيائي بوصفها مجموعة من الأصوات أو الرموز، وبالتالي فإن البنية السطحية هي البنية الظاهرة التي يمكن من خلالها معاينة التراكيب ونظام القواعد الذي يتحقق وفقه، وكذا التحويلات التي تعرضت لها، ومن ثمّ البنية العميقة التي تولدت وفقها. ينظر: أحمد مومن، (12-2002)، ص 212، مرجع سابق.

(13) المرجع السابق، ص 104.

(14) عبد الحليم بن عيسى، ص 76.

(15) المرجع السابق، ص 76.

الأساس للجملة في مثل هذه اللغات هي (م س- م ف)، وأن الفعل ينتقل إلى بداية الجملة بصورة تشبه ما يحدث في الترتيب السببي في اللغة الإسبانية"[16]، فقوله هذا دليل على أن المبدأ الذي تترتب فيه الوحدات- حسبه- هو: الفاعل + الفعل+ المفعول، ويرى في تحويل الفعل إلى رأس الجملة نوعًا من أنواع التحويلات التي يسمح بها النحو الكليّ، إذ يقول أيضا: " والقاعدة التي تنقل العنصر الفعليّ إلى مقدمة الجملة قاعدة عامة يسمح النحو الكليّ باختيارها، وتستعمل اللغات المختلفة هذا الاختيار بطرق مختلفة بعض الشيء"[17]. إذن فهو يعطي القاعدة العامة التي تترتب وفقها الوحدات، ولكنه يرى في تغيير الترتيب حريّة تعود إلى اختيارات اللغة المعينة، ومكمن الاختلاف في تغيير الترتيب بين اللغات يعود إلى الاختلاف الموجود بين اللّغات نفسها.

وتحويل التقديم والتأخير يُطبّق على الجملة النواة، ليخرجها إلى السطح بشكل ظاهر جَليّ؛ فالجملة في بنيتها العميقة تخضع لترتيب معين لوحداتها، مثلا جملة: "A detective hunted down the killer"، يمكن أن تتحول بالترتيب نفسه إلى السطح، ويمكن أن يتغير الترتيب لنقل كلمة "down" لتصير : "A détective hunted the killer down".

وقد لقيت هذه القواعد ترحيبًا من قبل الباحثين العرب حيث ترجموها إلى العربية، وطبّقوها على جملها، مثل "مازن الوعر" الذي يرى أن كل تقديم أو تأخير.... يُعدّ اشتقاقًا من الأساس أو من البنية التحتية، ويُقدِّم مثالا على ذلك: "تسلّم الفائز الجائزة"، التي هي جملة في بنيتها العميقة تمثل وفق المشجر التالي :

(16) نوام تشو مسكي، (ط1، 1990)، ص 70.
(17) المرجع السابق، ص 71.

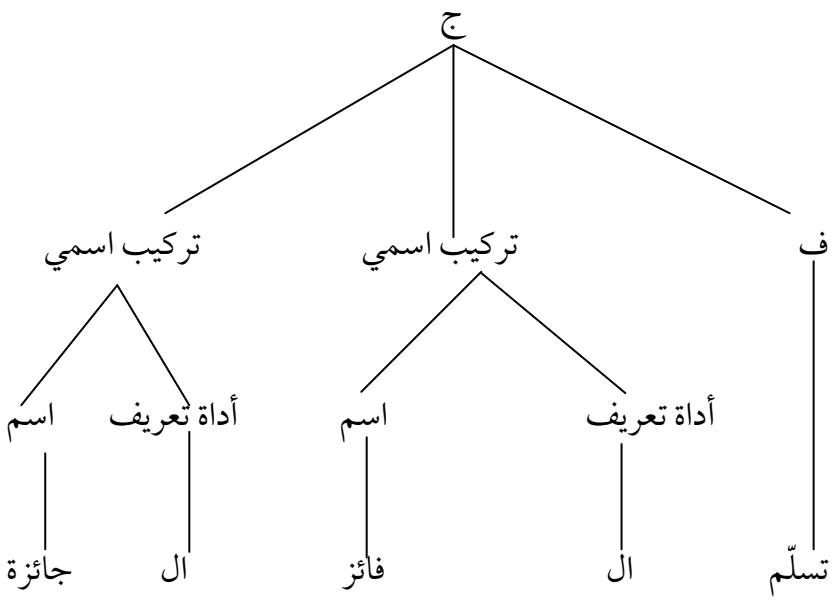

ثم يقدّم على ذلك أمثلة لجمل مشتقة :

- الفائز تسلّم الجائزة.
- الجائزة تسلمها الفائز.

ويرى أن هذه الجمل الثلاث تعتبر مترادفة في معناها بوجه عام"[18]، ويمكن تمثيل الجملة الثانية وفق المشجر التالي:

(18) مازن الوعر، (ط1، 1989م)، ص 243 وما بعدها.

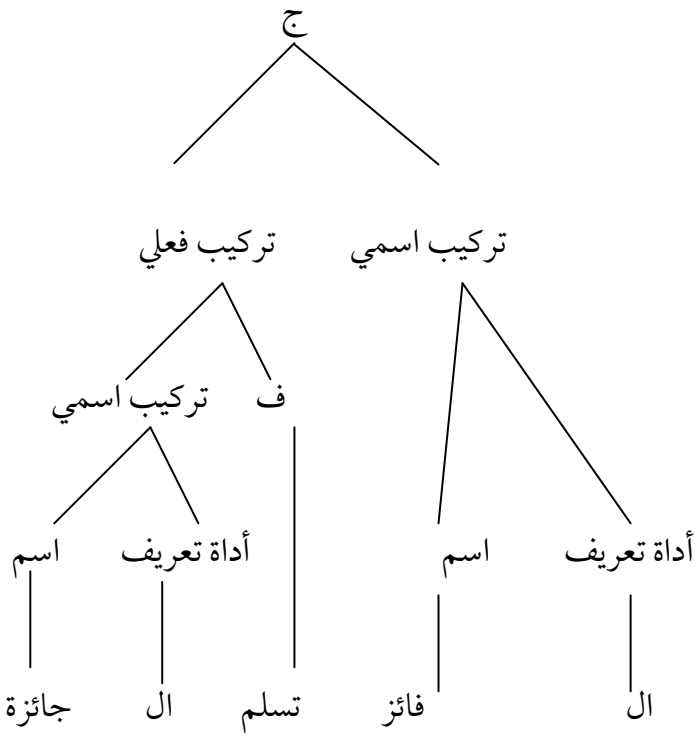

تقوم "القواعد التوليديّة التحويليّة على اعتبار الجملة وحدة لغوية أساسية، وعلى تمييز البنية الظاهرية للجملة عن بنيتها العملية (العميقة). وقد ميّز تشومسكي بين نوعين من تغيير ترتيب الكلمات في الجملة، تغيير لا يؤدي إلى تبديل النظام الأساسيّ القواعديّ للجملة، ويحمل فقط طابعًا أسلوبيًا، سمّاه: التقديم والتأخير الأسلوبي(Stylistic inversion)، وتغيير يؤدي إلى تبديل النظام الأساسي القواعدي للجملة وتنجم عنه تحويلات قواعدية، سمّاه التقديم أو التأخير (transformation inversion)"[19]، فالأول هو الذي تتقدّم فيه كلمة على أخرى دون حدوث أي تغيير في الوظيفة النحويّة، أما الثاني فهو الذي يحدث في

(19) جعفر دك الباب، (تموز وآب، 1982)، ص1 .

الجملة ويغيّر نظامها الأساسيّ والوظائف النحويّة التي يشغلها كل عنصر، وهو ما سيوضّح من خلال الشرح لطرق التحويل بالتقديم والتأخير التي تمسّ عناصر التراكيب والتي بيّنتُ فيها، أنواع التراكيب التي قد يعتري وحداتها تغيير وفقًا لما أقرّه تشومسكي من خلال نظرية 1957، ونظريّة **الأثر اللغويّ** بعد التعديل الذي أجراه على مستوى التحويلات بإضافة المكوِّن الدلاليّ.

يُماثل هذان النوعان من أساليب التقديم والتأخير ما قدّمه عبد القاهر الجرجاني في نظرية النظم فيما يُعرف **بالتقديم على نيّة التأخير** و**التقديم لا على نيّة التأخير**، حيث يكون الأول" في كلّ شيء أقررته مع التقديم على حكمه الذي كان عليه، وفي جنسه الذي كان فيه، كخبر المبتدإ إذا قدمته على المبتدإ، والمفعول إذا قدّمته على الفاعل، كقولك: (منطلق زيد، وضرب عمرًا زيد). معلوم أن (منطلق) و(عمرًا) لم يخرجا بالتقديم عما كانا عليه، من كون هذا خبر مبتدإ ومرفوعًا بذلك، وكون ذلك مفعولا ومنصوبًا من أجله، كما يكون إذا أخرت"[20]. وفي هذا إشارة إلى أن التقديم لا يغير الوظيفة النحْويّة للوحدة اللغويّة فتبقى محافظة على ما كانت عليه من قبل، إذ "تأخذ الكلمة كلّ صلاحياتها وتشغل بها الصدارة، وكأن الصدارة لم تضف إلى هذه الكلمة شيئًا سوى أن أتاحت لها فرصة التقدّم بإمكاناتها"[21]، فهو بالتالي تحويل اختياريّ، يُغيّر فيها المتكلم مواقع الوحدات اللغوية انطلاقًا مما يسعى إبلاغه، إذ يترتب الكلام وفق ترتّب المعاني في النفس وانسجام الوحدات اللغويّة فيما بينها وفق القواعد التي تخضع لها.

ويحصل النوع الثاني من التقديم عن طريق نقل "الشيء عن حكم إلى حكم وجعله بابًا غير بابه وإعرابًا غير إعرابه، وذلك أن تجيءَ إلى اسميْن، يحتمل كلّ واحد منهما أن يكون مبتدأ ويكون الآخر خبرًا له فتقدّم تارة هذا على ذاك

(20) عبد القاهر الجرجاني، (1422 هـ-2002م)، ص 148.

(21) منير سلطان، ص 140، مرجع سابق.

وأخرى ذاك على هذا، ومثاله ما تصنعه (بزيد والمنطلق)، حيث تقول مرة (زيد المنطلق) وأخرى (المنطلق زيد)"[22] بتغيير موقعيهما، وهدف التقديم هنا هو التغيير الجذريّ للتركيب ونوعه، ذلك أن تغيير مواقع الوحدات اللغويّة يؤدي إلى تغيير في وظائفها، فاحتمال تحوّل التركيب الاسميّ إلى آخر فعليّ يكون عن طريق تقديم الفعل وتأخير الاسم، "فالكلمة تفقد طاقاتها وتحلّ بها ميزات الصدارة، فالخبر (المسند) حينما يقدّم ليكون مبتدأ (مسندًا إليه) يتجرّد من طاقات (الخبريّة) ويتلبّس ميزات (الابتدائيّة)، وكذا المفعول الذي يتحوّل إلى مبتدإ، فالتبادل هنا بين ميزات الصدارة وميزات شاغل الصدارة[23]، إذن هذا التغيير في الترتيب، لا يكون بهدف تبيان الدلالات الإضافية عن طريق تقديم عنصر على آخر لحاجة في نفس المتكلم، وإنما يكون إخراجًا جذريًا للعنصر اللغويّ من الباب الذي كان فيه إلى باب آخر.

فإذا اعتبرنا النوع الأول من التقديم (على نية التأخير) تركيبًا مشتقًا أو محوّلا لتغيير في ترتيب عناصره فإن النوع الثاني يعتبر تركيبًا أصليًا أو أساسيًا غير محوّل.

ويتَّضح نوعا التقديم والتأخير عند تشومسكي – واللذان يقتربان كثيرًا مما حدّده عبد القاهر الجرجاني– من خلال التطبيقات والأمثلة المستخْرَجة من كتبه التي حاول أن يشرح فيها تدريجيّا كلّ ما يتعلَّق بالتقديم والتأخير كأحد الطرق الأساسية في عملية التحويل والتي سمّاها الترتيب أو خرق معياريّة الترتيب.

1 - التقديم والتأخير في نظريّة التراكيب اللّغويّة 1957:

إن تغيير الترتيب الذي أكد عليه تشومسكي في هذه المرحلة هو تحويل شكليّ نحويّ يمسّ التراكيب السطحيّة بعيدًا عن الدَّلالة المتوخاة منها، ويمكن

(22) عبد القاهر الجرجاني، (1422 هـ – 2002م)، ص 148، مرجع سابق.

(23) منير سلطان، ص 140، مرجع سابق.

في ذلك البدء بالتراكيب الاستفهاميّة ثم المنفيّة ووصولا إلى التراكيب الخبريّة المثبتة:

أ – التراكيب الاستفهامية:

التراكيب الاستفهاميّة هي جمل مُحوَّلة أو مُشتقّة من الجمل النواة بواسطة التحويلات الاختياريّة التي تُطبّق عليها، وهي في الغالب تراكيب يحدث على مستواها تحويل بإدخال أدوات الاستفهام على الجمـل المثبتة، " إذ يدخل عنصر الاستفهـام على جملـة توليديّة أو تحويليّة فعليّة أو اسميّة، فيحوِّل المعنى إلى معنى الاستفهام وهذا يكون عن الحدث أو عن المكان أو الزمان...."[24].

وقد عالج تشومسكي الجمل الاستفهاميّة بشتى أغراضها وبمختلف الأدوات التي تدخل عليها، غير أن ما يهم في هذا المقام هو الاستفهام التصديقيّ الذي يكون جوابه بـ "نعم" أو "لا"، وذلك لما يظهر على مستوى البنية السطحيّة من تحويلات وتغييرات خاصّة برُتب الوحدات.

وما يوضّح هذه التحويلات بعض الجمل التي تكون في الصيغة العادية المثبتة تتحوّل إلى جمل استفهاميّة عن طريق القلب المكانيّ لمكوناتها، واعتمدتُ في ذلك على الجمل الإنجليزية التي مثّل بها تشومسكي نفسُه، والبداية مع التحويل الخاص بالجملة المثبتة إلى جمل استفهاميّة:

– فعل التركيب في زمن الحاضر (present) :

الجملة المثبتة: John writes poetry in his study

تتحول عن طريق القلب المكاني بين الفعل والاسم إلى جملة استفهامية على النحو التالي[25]: Does john write poetry in his study?

– فعل التركيب في زمن الماضي (past) :

الجملة المثبتة: John gave the book to bill

(24) خليل أحمد عمايرة، (ط1، 1407 هـ – 1987م)، ص 110.

(25) Noam Chomsky ; Questions de sémantique, p 40 .

تتحول إلى[26]: Did John give the book to bill ?

- فعل التركيب في زمن المستقبل: (future)

الجملة المثبتة: I shall go downtown

تتحول إلى جملة استفهامية من خلال الإبدال المكاني للمكونين (I) و(Shall) إلى[27]: shall I go downtown?

إضافة إلى تلك التحويلات الخاصة بتوليد الجمل الاستفهاميّة انطلاقًا من تغيير الترتيب في مكوّنات الجمل المثبتة، هناك تحويل آخر يمسّ البنى السطحيّة الاستفهاميّة كما يلي : Did bill give john **the book**?

تتحول إلى [28]:

Did bill give **the book** to john?

لقد حافظت الجملة الثانية على نفس مكوّنات الجملة الأولى، مع حدوث إبدال بين العنصرين، حيث تأخّر الأول وتقدّم الثاني.

وما يُلاحظ على هذه التحويلات أنها تهتم بتقديم الجمل السليمة نحْويّا، التي يمكن أن تتولّد عن البنية العميقة، دون التصريح بأهمية الجانب الدلاليّ - في هذه المرحلة - وإن كان مُراعًى في التراكيب، لأنه لا يمكن صياغة وتحويل جمل خاطئة دلاليًا. وهذا خلافا لما قدّمه عبد القاهر الجرجاني من دلالات متنوعة ودقيقة توافق كل منها الموضع الذي تحتلّه الوحدة اللغويّة، لا سيما فيما يتعلق بالتراكيب الاستفهاميّة التي يرى أنها ذات دلالات خاصة تبعًا للمتقدِّم وطبيعته، إن كان اسمًا أو فعلًا، فإذا **تقدّم الفعل** فإن الشكّ في الفعل نفسه،

(26) المرجع السابق، ص 48.
(27) المرجع السابق، ص 60.
(28) المرجع السابق، ص 54.

والغرض من ذلك التقديم تلميح المتكلِّم إلى علمه بالمستفهَم عنه، ومثاله: "أبنيت الدار التي كنت على أن تبنيها؟ (...) تبدأ في هذا ونحوه بالفعل، لأن السؤال عن الفعل نفسه، والشك فيه، لأنك في جميع ذلك، متردِّدٌ في وجود الفعل وانتفائه مجوِّزٌ أن يكون قد كان، وأن يكون لم يكن"[29].

أما إذا **تقدّم الاسم**: فالغرض من ذلك هو الشكّ في الاسم نفسه أو في الفاعل نفسه، ومثاله: "أ أنت بنيت هذه الدار؟ (...) فتبدأ في ذلك كله بالاسم، ذلك لأنك لم تشك في الفعل أنه كان (...) وإنما شككت في الفاعل من هو"[30]، على أنه لا يجوز الاستفهام عن الفعل في مثل هذه الحال، كالقول: "أبنيت هذه الدار؟"، لأن الاستفهام عن الفعل يقتضي الشك في وجوده، غير أن الإشارة إليه بأنه موجود، تُبطل مصداقية الدّلالة التي يحملها الاستفهام، كونه يشك ويثبت في التركيب نفسه.

والاستفهام بالفعل محدّدة دلالاته أيضا من خلال زمن الفعل، من حيث كونه ماضيًا أو مضارعًا، والمضارع يقتضي الحال والمستقبل، والدلالة تتراوح مابين الإقرار والإنكار[31].

ب – التراكيب المنفية:

وتعرّض تشومسكي أيضا للتراكيب المنفيّة بالدّراسة والتحليل لمكوّناتها، ويهدف المتكلم بالنفي إلى : "إخراج الحكم في تركيب لغويّ مُثبت إلى ضدّه،

(29) عبد القاهر الجرجاني، (1422 هـ – 2002م) ، ص 151، مرجع سابق.

(30) المرجع السابق، ص 151.

(31) الاستفهام التقريري "هو علم المتكلم بما سأل عنه، ولكنه يريد من المخاطب أن يوافقه، لغرض من الأغراض، والاستفهام التقريري يأتي في الأزمنة الثلاث: الماضي والحال والاستقبال". والاستفهام الإنكاري يقصد به" الخروج من الاستفهام الحقيقي إلى معنى التكذيب أو النفي، ويجب أن يلي فيه الأمر المراد إنكاره الهمزة، سواء أكان فعلا أم فاعلا أم مفعولا، أم غير ذلك". ينظر منير محمد المسيري، (ط1، 1426 هـ – 2005م)، ص69.

وتحويل معنى ذهنيّ فيه الإيجاب والقبول إلى حكم يخالفه"[32]؛ أي أنه تحويل جملة مثبتة (جملة نواة) إلى جملة أخرى بإضافة أداة النفي، ومثاله تحويل الجملة المثبتة التالية إلى جملة منفية:

John writes poetry in his study.

تتحوّل إلى:

John doesn't write poetry in his study.

والتقديم والتأخير على مستوى التراكيب المنفيّة يكون من خلال تغيير في رتب الكلمات بعد إدخال أداة النفي، أو تغيير المكان الذي تحتله أداة النفي، ومثال الأول:

John didn’t argue with bill about money.

تتحول إلى[33]:

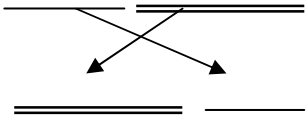

John didn't argue about money with bill.

لقد ارتبطت أداة النفي (not) بالفعل لنفيه عن الفاعل، ولم يتغير المعنى في الجملة الثانية لأن التحويل الحاصل متعلق بالفضلة، بعيدًا عن المكوّنات الأساسية (الفعل والفاعل)، فحدث تبادل في المراتب وتغير في شكل التركيب فقط، يمكن إدراج ذلك ضمن **التقديم على نيّة التأخير**؛ أي أنه تقديم خاص بتغيير الأماكن الخاصّة، الذي لا تتغير فيه الوظائف النحويّة للوحدات

كما يمكن أن تُغيّر أداة النفي الرتبة المخصّصة لها، بدخولها مرة على فعل وأخرى على فاعل ومثالها التحويلات التالية[34]:

(32) خليل أحمد عمايرة ، (ط1، 1407 هـ – 1987م) ، ص 154، مرجع سابق.

(33) Noam Chomsky ; p 48; Ibid.

(34) المرجع السابق، ص 57.

1) Not many demonstrators were arrested by the police

2) Many demonstrators were not arrested by the police.

ففي الجملة الأولى تمّ نفيُ الفاعل على عكس الثانية التي نُفي فيها الفعل عن الفاعل، فأداة النفي تتصل بالشيء المراد نفيه وهي لذلك تتقدّم وتتأخّر، ويوجد نوع آخر من التقديم والتأخير، حيث يتقدّم المفعول ويتأخّر الفاعل مثل الجملة:

John did not buy many arrows.

ويتغير الترتيب كالآتي[35]:

Many arrows were not bought by John

فهذا التحويل خاصّ بالجمل المنفيّة المبنيّة للمعلوم، إذ تتحوّل إلى مبنيّة للمجهول من خلال التبديل في المواقع بين المفعول والفاعل، على أن التحويل يُغيّر من الوظيفة النحوية لكل منهما، إذ يصبح المفعول فاعلا، والفاعل مفعولا، لذلك يدرج هذا النوع ضمن **التقديم لا على نيّة التأخير**.

وقد وضّح عبد القاهر الجرجاني التقديم والتأخير الحاصل في مثل هذه التراكيب بدرجة دقيقة وأكثر وضوحًا، حيث سعى من خلالها إلى توضيح التراكيب الناتجة وما الأصحّ فيها أو الخطأ، مستثمرًا الأوجه النحويّة السليمة، والدلالات المترتبة عنها، ومنها إذا تقدّم الفعل في النفي فإنه يستلزم نفي فعل لم يثبت أنه مفعول، أما إذا تقدم الاسم في النفي، فإنه يقتضي نفيُ فعل ثبت أنه مفعول، أما إذا احتوت البنية على عنصر آخر وهو المفعول به، فإنّ ذلك يقتضي النفي عن الفاعل، أما المفعول فقد ثبت أنه وقع فعلا.

(35) المرجع السابق، ص 57.

ومثال الأول: "ما قلت". نفيت عنك فعل القول، ولا يجب أن يكون قد وقع.

ومثال الثاني: "ما أنا قلت". نفيت عنك فعل القول، مع أن الفعل قد وقع فعلا.

ومثال الثالث: "ما أنا قلت هذا". نفيت أن الفعل قد وقع منك، مع أنه ثابت، ودليله (هذا) ؛ أي أنه مقول فعلا وانتهى.

فهذه أوجه التركيب المنفي، والتي يكون في الأول منها عامّا، أما في الثاني (نفي الفاعل) يكون المنفي خاصّا، ولهذا لا يجوز الجمع بينهما، لأن ذلك يقتضي المحال، حيث لا يمكن القول: "ما أنا قلت شعرًا قط (...) وذلك لأنه يقتضي المحال وهو أن يكون ههنا إنسان قد قال كل شعر في الدنيا (...) فنفيت أن تكونه"[36].

فكما لا يجوز الاستفهام بمثل هذه التراكيب كالقول: أ أنت قلت شعرا قط؟ وما دام الاستفهام استخبارًا والخبر المثبت أو المنفي جوابًا، فإنّ الجواب بالنفي عن مثل هذا السؤال يكون: ما أنا قلت شعرًا قط، ولفساد تركيب الاستخبار، يفسد بالضرورة الجواب المنفي المترتب عليه.

ج - التراكيب المثبتة:

إن التراكيب الظاهرة هي تراكيب محوّلة عن الجمل النواة من خلال التحويلات الاختيارية، ومما تتميز به الجمل النواة هو الإثبات، والمحافظة على الرُتب الأصلية للوحدات، ولكن قد تحافظ الجمل المحوّلة على الإثبات: غير أن تحويل الرُتب الخاصّة بالوحدات قد يكون من وسائل توليد عدّة جمل من خلال الجملة النواة تلك، ويتضح هذا النوع من التحويل من خلال الأمثلة التالية:

(36) عبد القاهر الجرجاني، (1422هـ-2002م)، ص 160، مرجع سابق.

Each of the men hates his own brothers.

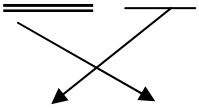

تتحول هذه الجملة بواسطة تغيير مراتب الوحدات إلى[37]:

The men each hate his own brothers.

إذن حدث تقديم الوحدة (the man) وتأخير (each)، مع حذف العنصر (of) لأن التركيب الأول يحتاجه كرابط في حين أن الثاني يستغني عنه.

وهناك مثال آخر يدل على تقديم عنصر وتأخير آخر لتوليد جمل جديدة من نفس المكونات الأولى: The sonata is easy to play on this violin

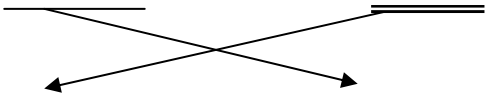

تتحول إلى[38]:

This violin is easy to play the sonata on

وهذا التركيب قد تمّ فيه التقديم والتأخير دون التغيير في الوظيفة النحويّة للعناصر وهو قريب من الجملة النواة، حيث تحتوي على أقل عدد من التحويلات وهو تقديم العنصر "this violin" وتأخير "the sonata" دون إضافة أي عنصر جديد على التركيب. فالمثال الأول والثاني يُدرجان ضمن التقديم على نيّة التأخير، كونهما يحافظان على النظام النَّحْوي العام، إضافة إلى محافظة الوحدات اللغوية على وظائفها النحويّة.

وهناك تحويلات أخرى تُغيّر من الوظائف النحويّة للوحدات اللغوية بتغير مراتبها، وأفضل مثال على ذلك؛ التحويل الذي يكون من المبنيّ للمعلوم إلى المبنيّ للمجهول وهو نظير ما تمّ توضيحه في الجمل المنفيّة حيث يتقدّم المفعول ويصبح فاعلا ويتأخّر الفاعل ويصبح "مفعولا" ؛ أي تبادل الوظائف بتبادل المراتب، فالجملة المبنية للمعلوم:

(37) Noam Chomsky ; p 64; Ibid.

(38) المرجع السابق، ص59.

Each of Mary's sons hates his brothers

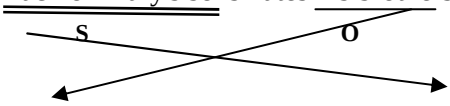

تتحول إلى الجملة المبنيّة للمجهول[39]:

His brothers are hated by each of Mary's sons

O=S S=O

في هذه التراكيب التي استدللنا بها على عملية التحويل للوحدات اللغوية بحسب ما قدمه تشومسكي في نظريته الأولى، نلاحظ أنها عملية تقليبٍ وخرق لمعيارية ترتيب ثابتة دون أية إشارة إلى الدلالات المترتبة على هذه التحويلات، على خلاف الجرجاني الذي كانت له منذ البداية مقاصد واضحة، ففيما يخص التراكيب اللغوية المثبتة فإنه يراعي فيها المتقدم على أنه المقصود في الإخبار، وفي ذلك وجهان:

- **القصد إلى الفاعل مع انفراده بالفعل دون غيره**، ومثاله: (أنا كتبت في معنى فلان) وتريد بذلك أنك وحدك تفعل هذا، أو أنك تفعله دون فلان، "فتزيد أن تدعي الانفراد بذلك، والاستبداد به وتزيل الاشتباه فيه"[40]؛ أي تُبعد الشك عن كونه الفاعل دون غيره.

- **القصد إلى الفاعل دون الانفراد به**، مع إبعاد الشك عنه، فيبدأ بالفاعل لإقراره وعدم إنكاره ومثاله:

هم يفرشون اللّبدَ كلّ طمرة وأجردُ سبّاح يبذ الـمُغالبا

"فهو لم يُرد أن يدّعي لهم هذه الصفة، دعوى من يفردهم بها وينص عليهم فيها(...) إلا أنه بدأ بذكرهم لينبّه السامع لهم، ويعلم بديّا قصده إليهم، بما في نفسه من الصفة، ليمنعه بذلك من الشك، ومن توهم أن يكون قد وصفهم

(39) المرجع السابق، ص 64 .

(40) عبد القاهر الجرجاني، (1422هـ-2002م)، ص 162، مرجع سابق.

بصفة ليست هي لهم أو أن يكون قد أراد غيرهم فغلط إليهم"[41]. فهو هنا يوجه قصده إلى الفاعل دون التفرُّد به وإنما للتنبيه إليه.

إلى جانب ذلك أورد عبد القاهر مزايا تقديم المسند والمسند إليه، وأهم الدلالات التي تترتب على ذلك، والتي من بينها: التنبيه والتحقيق، تأكيد الخبر وتقويته، الشك أو التكذيب، الوعد والضمان، المدح والفخر ....

التقديم والتأخير في نظرية الأثر اللغوي (trace theory) :

إن التقديم والتأخير كتحويل أساسيّ اعتمده تشومسكي، أخذ مفهومًا مغايرًا من خلال **النموذج المعياريّ الموسَّع**، ولاسيما بعد إدراج المكوّن الدلاليّ كعنصر ذي أهمية بالغة في تحويل الوحدات اللغوية وتوليد تراكيب جديدة وفقا لها، وتوجّهت الأنظار فيها إلى اعتبار "البنية السطحية هي التي ينبغي أن تفسر المعاني اللغوية وليس البنية العميقة أبدا"[42]، ذلك أنه في النظرية المعيارية كان ينظر إلى البنية العميقة على أنها الأساس في تفسير المعاني الخاصة بالبنية السطحية.

وتُعدُّ نظرية (**الأثر اللغويّ**) "trace theory" إحدى النظريات المصاغة ضمن النموذج المعياري الموسع، وقد تمحورت حول إبراز الرابط المسؤول عن ربط البنية العميقة بالبنية السطحيّة والمتمثل في القاعدة التحويليّة العامة (حرّك- ألفا)، وهذه النظريّة تقوم على اعتبار عناصر البنية السطحيّة مرتبة وفق نسق معين، وهذا الترتيب هو الذي يوضح المعنى الدقيق و المقصود من ورائها.

ويقدم" مازن الوعر" أمثلة توضيحيّة عن ذلك، إذ يقول: "لنأخذ على سبيل المثال ركن الجارّ والمجرور(...) الذي يمكن أن ينتقل من آخر الجملة إلى أولها، وذلك بتطبيق القاعدة التحويليّة (حرك- ألفا) الجار والمجرور= ألفا"[43].

(41) المرجع السابق، ص 163.

(42) ينظر مازن الوعر، (ط1، 1987 م)، ص 243.

(43) المرجع السابق، ص 241.

فنظرية الأثر اللغويّ المعروفة بـ **(move - α)**، كانت بعد إدخال العنصر الدلالي و**(α)** هو العنصر اللغويّ الذي يتحول من مكان إلى آخر دون أي تغيير في المحل الإعرابي، على أن هذا النوع من التقديم هو **التقديم على نيّة التأخير**، ومثاله [44]:

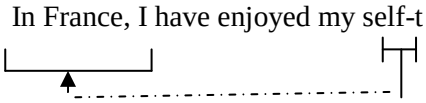

I have enjoyed my self in France

فالمركب (in France) تحول من مقدمة الجملة إلى مؤخرتها، دون التغير في الحالة الإعرابيّة التي كان عليها في الجملة الأولى.

كما يمكن للمفعول أن يتحول من مؤخرة الجملة إلى مقدمتها؛ أي يتقدم على الفاعل والفعل، مثل[45]:

I like beans
s v o

Beans I like t (race)
O S v

ويشير (t) إلى المكان الذي تحوّل منه العنصر اللغويّ، وكما يُلاحظ فإنّ الوحدات اللغويّة بقيت محافظة على وظائفها النحويّة على الرغم من تحوّل مراتبها ، كما بقي المعنى العام للتركيب الأول نفسه في التركيب الثاني، وإن كان هناك اختلاف في ظلال وحواشي المعنى الذي أحدثته العناصر المحوّلة حيث بقي في الذهن أثر مغاير كما كان في التركيب الأول.

(44) المرجع السابق، ص 242.

(45) المرجع السابق، ص 522.

ولهذا يرى تشومسكي أن الأثر الذهني أو المعنى يختلف بحسب اختلاف ترتيب العناصر وأن المقدم في الجملة هو الذي يعنى ويهتم به أكثر. وهذا التقديم يُراعى فيه المعنى بصفة عامة وليس في أدقّ تفاصيله؛ أي ما يقصده المتكلم من تقديم وحدة لغويّة على أخرى إلا من باب العناية والاهتمام وهو ما يُعرف بالتقديم على نيّة التأخير.

وعلى العموم فقد كان التقديم والتأخير عند تشومسكي نوعًا من أنواع التحويلات الاختياريّة، التي يُقدّم فيها عنصر ويؤخّر آخر، اهتم فيه بالشكل والسلامة النحويّة – في نظريته الأولى – وبعد تطوّر النظريّة وإدراج المكوّن الدلاليّ، تحوّلت الأنظار إلى البنية السطحية واعتبارها المسؤولة عن التفسير الدلاليّ الذي يقصده المتكلم من خلال الوحدات اللغوية المرتبة وفق نسق نحويّ معين، وبالتالي مراعاة ترتيب العناصر فيه على أساس نحويّ ودلاليّ معين، وإن كان التفسير الدلاليّ لتلك البنى مقتصرًا على القول بأهمية الـمُقدّم والعناية به.

وتجدر الإشارة إلى أن التقديم عند تشومسكي كان تقسيمُ أنواعه وفقًا للنظام النَحْويّ، فكلما حافظ التركيب على النظام النَحْويّ للتركيب المحوّل عنه، وحافظت الوحدات اللغويّة المحوّلة على وظائفها النحويّة كان التقديم على نية التأخير، وكلما اختلّ النظام النَحْويّ باختلال الرتب كان التقديم لا على نيّة التأخير.

يُعدّ التشابه الكبير بين نظرتيْ تشومسكي والجرجاني لمسألة التقديم والتأخير ما يلفت الانتباه للبحث في ثناياه، إذ كانت نظرة عبد القاهر الجرجاني واضحة منذ البداية، حيث يرى أن كل موضع تتخذه الوحدة اللغويّة في التركيب إلا وله دلالة يقصدها المتكلِّم، ويفهمها المخاطَب، وذلك لأنه ينطلق من دورة تخاطُب معينة، يمكن توضيحها وفقا لما يلي:

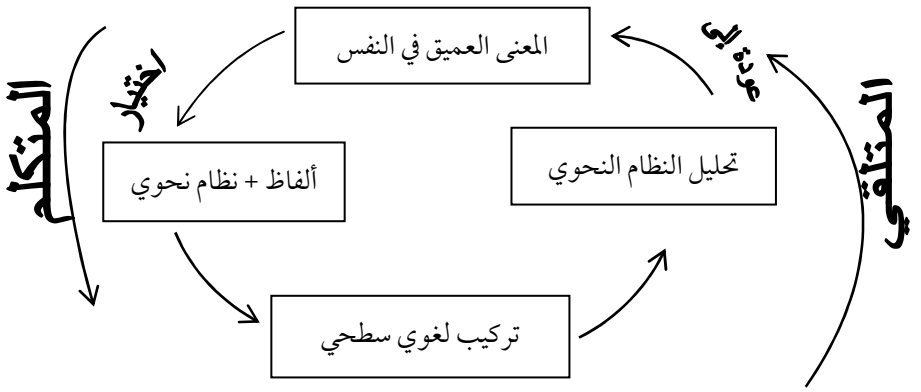

وبهذا فإن عبد القاهر الجرجاني راعى جميع عناصر الاتصال بما في ذلك المعنى المقصود من قِبَل المتكلم وكيفية ترتيبيه لوحداته اللغويَّة، ثم دور المتلقي في الوقوف على تلك التراكيب اللغويَّة وفهم مقاصد المتكلم من خلال المكان الذي تحتلّه الوحدات، فالمستوى العميق يعادل البنية العميقة والتركيب اللغويّ الظاهر يعادل البنية السطحيّة، وفي دراسة عبد القاهر لهذه الأخيرة كشفٌ لأهم مكوّناتها والعلاقات الجامعة بينها وفق نظام نَحْويّ معين، إذ تترتب على الجملة السطحية دلالات خاصة حسب ترتيب الوحدات المكونة لها، على أن أي تغيير في مراتب تلك الوحدات يفضي إلى تغيير في المعنى الدقيق المتوخّى منه، يتضح أكثر بوضوح الألفاظ في الشكل الظاهر لها. وما عرضه عبد القاهر على مستوى البنيتين وما يعتريهما من تغيير لا سيما بالتقديم والتأخير، الذي يؤدي بالضرورة إلى تغيير المعنى يمكن توضيحه بالمخطط التالي:

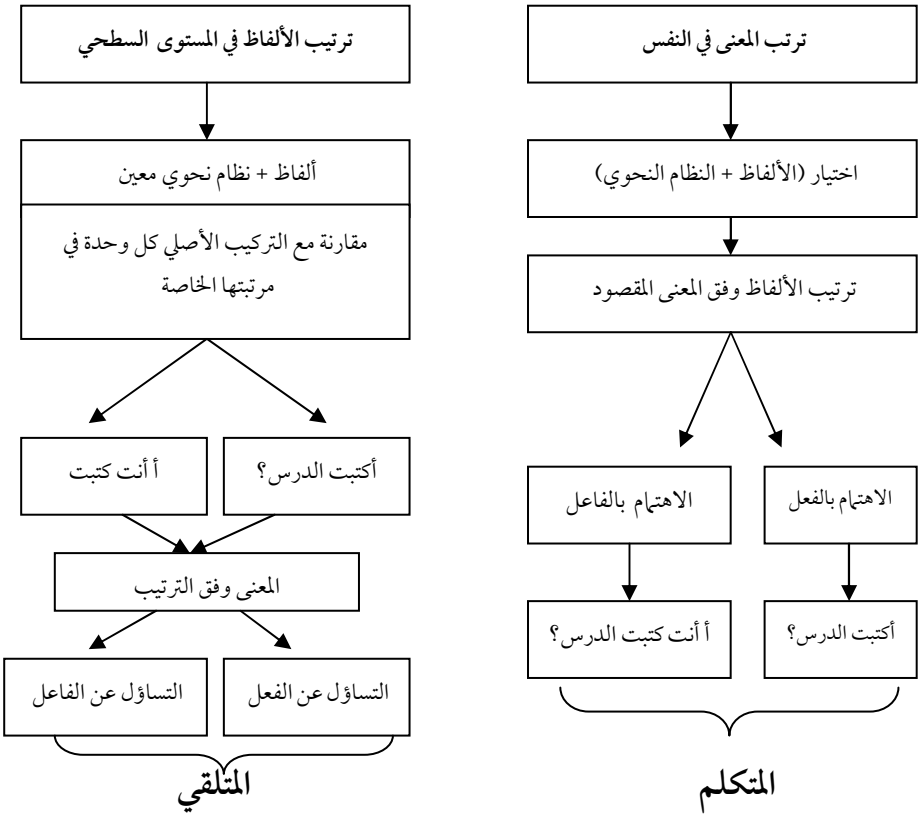

فالتقديم والتأخير كما وضّحه عبد القاهر الجرجاني جاء وفقًا لملاحظات ونتائج دقيقة، في حين نجد أن نوام تشومسكي احتاج إلى وقت طويل حتى تختمر الفكرة الدلالية جيدا في ذهنه وينتقل بها إلى أفق التطبيق والاستدلال المنطقيين، وما يمكن تتبعه في مراحل تطور نظرياته؛ مفهومه للعلاقة بين البنيتين العميقة والسطحية، واللتين تتولد عنهما عدّة جمل فيها من الإبداع ما يجعلها جملا جديدة ومبتكرة، وذلك من خلال طرق التحويل الكثيرة (الوجوبية والاختيارية)، والتي منها التقديم والتأخير.

في النظرية الصادرة في كتاب **"جوانب من النظرية التحويلية"**، 1965، اعتبر تشومسكي البنية العميقة هي المسؤولة عن إدراك المعنى، وأن البنية السطحية هي ما يتمّ تشكيل وتركيب الألفاظ على مستواها، أما في النموذج المعياريّ الموسَّع 1971 تحولت وجهة نظره إلى البنية السطحيّة واعتبرها المسؤولة عن المعاني التي يقصدها المتكلم من خلال صياغته تلك لمجموع الألفاظ ضمن نظام نَحْويّ معيّن.

وما دامت عملية التقديم والتأخير ترتبط بالمستويْن: العميق والسطحي، فإنها كانت حسب تشومسكي في بداية الأمر نتيجة لنوع من التحويلات الاختيارية التي تطرأ على الجملة النواة المُشكَّلة من معاني البنية العميقة بواسطة التحويلات الوجوبية دون التركيز على معناها، في حين صارت عملية التقديم والتأخير ذات اهتمام خاص في النظرية الثانية، إذ اعتمد فيها على المستوى السطحي كموضّح وشارح للمعنى من خلال ما يطرأ على التركيب من تحويل لعناصره. وهو ما عُرف **بالأثر اللغويّ** الذي بتحريك عنصر فيه، يتغير الأثر الناتج عن ذلك التركيب.

ولتوضيح الاهتمامين في كلتا النظريتين يمكن الاستعانة بالمخطط التالي:

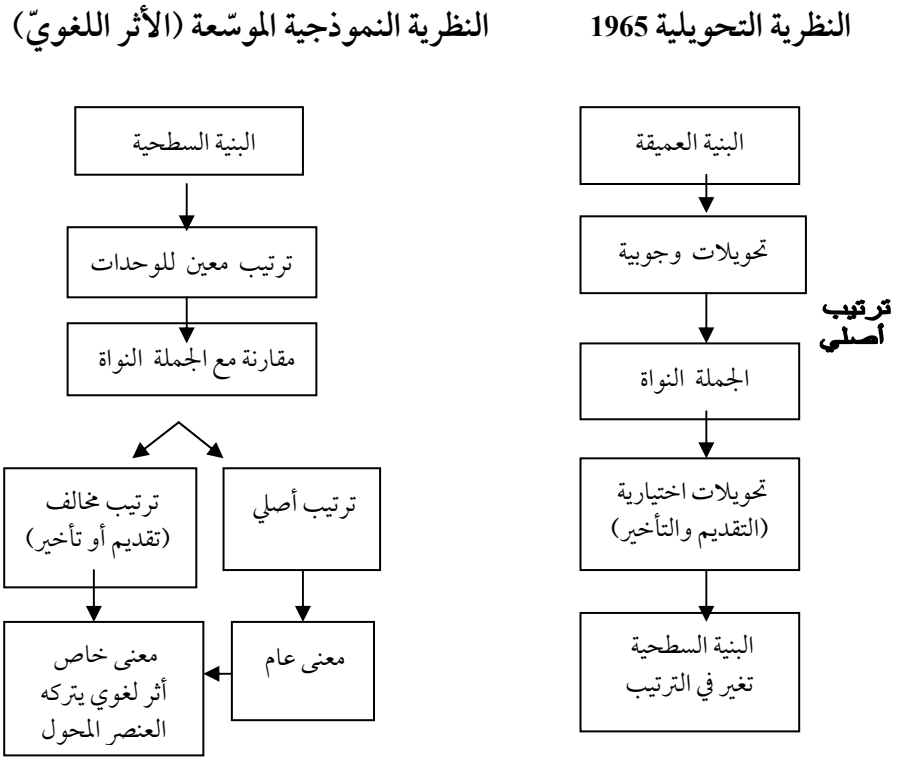

تطور مفهومي البنية العميقة والبنية السطحية في نظريات نوام

يعدّ اهتمام تشومسكي بمسألة التقديم والتأخير أمرا بالغ الأهمية، من حيث إدراكه لقيمة الدلالات المتوخاة من التراكيب اللغويّة وما يطرأ عليها من تحولات اختياريّة، بعد تخطيه لشرط السَّلامة النحويّة، وهو بذلك يكاد يقترب مما قدّمه البلاغيون العرب وما أفردوا به هذا الدرس من عناية واهتمام، ويمكن إلحاق الفروق بين الدرسيْن إلى طبيعة الهدف المتوخّى من التحليل والتعليل لا سيما بين نوام تشومسكي و عبد القاهر الجرجاني، حيث كان هدف الأول ذا بعد علميّ حاول من خلاله إثبات قدرة الإنسان على الإنتاج اللغويّ والإبداع فيه، إذ بحث عن جملة القواعد النحويّة الكليّة الخاصّة باللّغات الإنسانيّة عامّة، فإذا كانت اللّغة هي تعبير يستخدمه الإنسان للتواصل مع غيره، وهي لغة تتسم

بصفة الخطية، مُكوّنة تراكيبها من عدد من الألفاظ ينتهي المعنى بانتهائها، كما يتوقف عددها على مدى التوفق في إبلاغ المعاني والمقاصد، وإذا كانت اللغة كذلك فهي لغة واحدة لا اختلاف فيها، إلا من حيث الأصوات المستعملة عند قوم من الأقوام. أما عبد القاهر الجرجاني فإنه انطلق من وازع ديني محض حاول من خلاله إثبات الإعجاز في القرآن الكريم من ناحية لغته، والطريقة الـمُحْكمة التي انتظمت وفقها وحدات تراكيبه، بشكل يجعل منها ذات مستوى راقٍ لا يمكن للبشر الإتيان بمثله.

إن ما عرض إليه عبد القاهر الجرجاني من جهة، ونوام تشومسكي من جهة أخرى، إنما يدلّ على ذلك التّوجه المختلف في التوقف عند المستوى النَحْويّ أو تجاوزه، ذلك أن عبد القاهر وهو بصدد الحديث عن التراكيب اللغويّة وما يحدث فيها من تغيير في ترتيب وحداتها، لم يبتعد كثيرًا عن مجال الدراسة المتخصّصة، إذ حاول أن يضبط الدلالة بالنحو أو يُخصّصها بتخصيصه بخلاف تشومسكي الذي حاول منذ البداية الاعتماد على النحو كأساس قائم في التراكيب، غير أن عدم إدراجه للمعنى كمنطلق يعتمد عليه، خلق في دراساته بعض الصعوبة التي نجمت عنها بعض التناقضات، مما أدى إلى وصف النظرية بعدم الثبات في مفاهيمها، حيث كان كلما ظهرت فكرة جديدة غيَّر وفقها المبادئ العامة التي تحكم النظريّة السابقة، على الرغم من ذلك فإن أبحاثه –وما توصل إليه من نتائج– أصبحت رائدة في مجال الدراسات اللغويّة المعاصرة، غيَّرت وجهة النظر السابقة المرتكزة على الملاحظات الوصفيّة أو السلوكيّة للّغة والإنسان. ومضارعة هذه الأخيرة لما قدّمه علماؤنا العرب يجعلنا نفتخر بما حقّقه أجدادنا، ونسعى بدورنا إلى مواكبة واستيعاب الدراسات الغربية المعاصرة لإثبات ذواتنا وتحقيق غاياتنا.

قائمة المراجع:

1 - أحمد مومن، (2002)، **اللسانيات النشأة والتطور**، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون- الجزائر.

2 - حليمة أحمد عمايرة (ط1، 2006م)، **الاتجاهات النحوية لدى القدماء** – دراسة تحليلية في ضوء المناهج المعاصرة، دار وائل للنشر والتوزيع، عمان – الأردن.

3 - جودث جرين، (1993)، **علم اللغة النفسي**(تشو مسكي وعلم اللغة)، ترجمة: مصطفى التوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.

4 - خليل أحمد عمايرة ، (ط1، 1407هـ – 1987م)، **دراسات وآراء في ضوء علم اللغة المعاصر** (في التحليل اللغوي منهج وصفي تحليلي وتطبيقي على التوكيد اللغوي والنفي اللغوي وأسلوب الاستفهام)، مكتبة المنار، الأردن.

5 - عبد الحليم بن عيسى، **البنية التركيبية للحدث اللساني**، دار الأديب، السانية – وهران.

6 - عبد القادر الفاسي الفهري، (1982)، **اللسانيات واللغة العربية**، منشورات عويدات، بيروت – لبنان.

7 - عبد القاهر الجرجاني، (1422هـ – 2002م)، **دلائل الإعجاز**، تحقيق: ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.

8 - مازن الوعر، (ط1، 1987م) **قضايا أساسية في علم اللسانيات الحديث**، دار طلاس، دمشق – سوريا.

9 - مازن الوعر، (ط1، 1989م)، **دراسات لسانية تطبيقية**، دار طلاس، دمشق- سورية ، منشورات عويدات، بيروت – لبنان.

10 - مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الفيروزآبادي، (ط1، 1420هـ – 1999م)، **القاموس المحيط** ، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

11 - محمد سمير نجيب اللبدي، (ط2، 1406هـ – 1986م)، **معجم المصطلحات النحوية والصرفية**، مؤسسة الرسالة، دار الفرقان.

12 - منير سلطان، **بلاغة الكلمة والجملة والجمل**، منشأة المعارف الإسكندرية، جلال حزي وشركاه، مصر.

13 - منير محمد المسيري، (ط1، 1426هـ–2005م)، **دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم** – دراسة تحليلية، مكتبة وهبة، القاهرة – مصر.

14 - نوام تشومسكي، (ط1، 1990)، **اللغة ومشكلات المعرفة**، ترجمة: حمزة بن قبلان المزيني، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء – المغرب.

15 - جعفر دك الباب، (تموز وآب، 1982)، **مدخل إلى اللسانيات العامة والعربية والمنهج الوصفي الوظيفي**، مجلة الموقف الأدبي – مجلة شهرية، العدد 135، 136، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق.

16 - Noam Chomsky ; Questions de sémantique ; traduit de l’anglais par : BEBARD Cerquiglini ; édition du seuil ; 27 rue Jacob- paris VI.

في الحجاج المغالطي سبيلا إلى الهيمنة باللّغة(*)

أ. الصحبي هدوي(**)

I – مقدّمة :

عملنا لا يعدو أن يكون مجرّد مدخل إلى دراسة كيفيّة استخدام الأعمال اللغويّة في الحجاج المغالطي سبيلا للهيمنة باللّغة. وننوي أن ننضوي به من خلال البحث في العلاقة بين "الأعمال اللّغويّة" و"الحجاج" ضمن المنظور اللّغويّ، دونما إغفال كليّ لبقيّة زوايا النّظر، آخذين بما انبثق عن بعض التّصوّرات التّداوليّة اللّسانيّة، شأن تصوّر أوزفالد ديكرو (Oswald Ducrot) وكلود أنسكمبر (Jean-Claude Anscombre)، اللّذيْن يقولان «إنّنا نريد أن نصل إلى القول إنّ الإخباريات في الواقع تُعدّ من درجة ثانية بالمقارنة مع الأقوال الحجاجيّة، فالزّعم بوصف الحقيقة قد لا يكون إذن إلاّ قناعًا لزعم أكثر جوهريّة **بممارسة ضغط على آراء الآخرين**»، وهو ما يُسعفنا بالتّشريع للحديث عن علاقة مّا بين "اللّغة والهيمنة" في ضوء الدّراسات التّداوليّة الّتي ننوي أن نصدر عنها في بحثنا.

(*) المقال في الأصل نصّ مداخلة ألقيناها خلال فعاليات منتدى نور الدّين سريب للتّاريخ الاجتماعي والثّقافي في دورته الحادية عشرة المنعقدة بجرجيس، تونس أيّام 31/30/29 جويلية 2010 حول "اللّغة والهيمنة" ضمن المحور الأوّل: اللّغة؛ تشكّلها، تاريخها، مقارباتها النّظريّة، وخصائصها.

(**) أستاذ باحث – تونس.

ولذلك سنسعى خلال هذه الورقة إلى دراسة الأعمال اللّغويّة المساهمة في الحجاج، أو ما يمكن أن نسمّيه مبدئيًّا وبشيء من المجازفة "الأعمال اللّغويّة الحجاجيّة"، ولا نعني بذلك أنّ من الأعمال ما هو حجاجي أو صالح للحجاج ومنها ما هو غير ذلك، ولكنّنا نعني أيّ عمل لغوي ننجزه في وضعيّة حجاجيّة مخصوصة ولتحقيق غاية أو وظيفة حجاجيّة مضبوطة، على أن نخصّص القول أكثر في الأعمال اللّغويّة المستخدمة للمغالطة، فقد يعمد المحاجّ في بعض الأقوال الحجاجيّة إلى تكثيف الاستفهامات الإنكاريّة ذات البعد الإثباتي لتذكير المخاطَب بما يعلم عن الأطروحة والزّج به في الخطاب، ومن ثمّة دفعه إلى الاقتناع دفعًا، على أنّ الاقتناع هنا ليس تلقائيّا يحدث عن طواعيّة، كما يُفهم عنه في العادة، وإنّما هو نتاج عمليّة حجاجيّة إقناعيّة يسخّر لها المحاجّ كلّ طاقاته اللّغويّة وأساليبه المغالطيّة.

فقد يعمد المحاجّ إلى إظهار بناء منطقيّ لخطابه بتسخير أعمال الشّرط أو الحصر أو أيّ عمل لغويّ ينجز بأحد التّراكيب التّلازميّة، كالشّرط الممكن (إنْ فعلت... حدث.../ من يفعل...يفعل...) أو الشّرط الممتنع (لو فعلت... لَحَدَثَ...) سواء لبناء حجاج عقلاني صارم أو لمجرّد المخاتلة والمداهنة والمغالطة بجعل غير المنطقي منطقيًّا وبإخضاع ما لا يُعقَلُ لسلطان العقل استنادًا سافرًا إلى ما يفصله عن المخاطب في مستوى القدرة على تطويع اللّغة وتأويل المتواليات من أعمال القول الّتي تكوّن نسيج الخطاب الحجاجي المنجز، وهنا يكون الحجاج بالقوّة وتحدث المغالطات الحجاجيّة وتحصل الهيمنة على عقول الآخرين باللّغة لأنّ تلك الأعمال لا تعدو في النّهاية أن تكون أعمالا منجزة في اللّغة وبها.

ولتحقيق هذه المقاصد رأينا أن نستهلّ بتعرّف الحجاج لنقف في خطوة إجرائيّة لاحقة تمثّل جوهر الموضوع عند ضرْب من الحجاج هو الحجاج المغالطي، ونحاول الكشف في الحين عن إمكانات لتوظيف الأعمال اللّغويّة في بناء حجاج مغالطي تبدو من خلاله "الهيمنة باللّغة".

II – ماذا نعني بالحجاج ؟

1 – المعنى اللّغويّ :

جاء في لسان العرب لابن منظور: «حاججته أي غلبته بالحجج الّتي أدليت بها، ويقال حاجّه محاجّة وحجاجًا أي نازعه الحجّة. والتّحاجّ هو التّخاصم، والرّجل المحاجج هو الرّجل الجدل.

والاحتجاج، من احتجّ بالشّيء؛ أي اتّخذه حجّة. ويقال أنا حاججته فأنا محاجّه وحجيجه؛ أي مغالبه بإظهار الحجّة الّتي تعني "الدّليل والبرهان"». (اللّسان، مادّة حجج).

كما ورد في قاموس "روبير" (Robert) الفرنسي أنّ «لفظة "Argumentation" تشير إلى الدّفاع عن اعتراض أو أطروحة بواسطة حجج، أو عرض وجهة نظر معارضة مصحوبة بحجج»[1].

وبناءً على هذا التّعريف اللّغويّ يُلاحظ الباحث المغربي حبيب أعرب في مقال له بعنوان: "الحجاج والاستدلال الحجاجي"[2] أنّ هذه التّحديدات المعجميّة تكشف عمّا يحمله لفظ الحجاج والمحاجّة في مضمونه من دلالة على معاني "التّخاصم" و"التّنازع" و"الجدل" و"الغلبة" عمليّات مأخوذة هنا بمعانيها الفكريّة والتّواصليّة.

2 – المعنى الاصطلاحيّ :

يعرّف الحجاج اصطلاحًا تعريفات مختلفة تتعدّد بتعدّد المناويل والمرجعيّات الفكريّة، ومن بين هذه التّعريفات اعتباره "آلات الخطاب الّتي يعتمدها الفرد أو تستخدمها المجموعة لِحَمْل المخاطَب على تبنّي وجهة نظر مّا

(1) Le Grand Robert : Dictionnaire de la langue française, T 1, Paris 1989, p 535.

(2) أعرب (حبيب)، الحجاج والاستدلال الحجاجي، مجلّة عالم الفكر، المجلّد 30، يوليو– سبتمبر 2001، الكويت، ص 99.

والتّسليم بها ثمّ العمل على تحقيقها"[3]، ويبين هذا التّعريف الوظيفي عن خصائص الحجاج الأساسيّة التّالية :

- أنّه يستدعي حضور أطراف متعدّدة، هي: مُنشئ الحجاج أو المحاجّ ومخاطبَه وجمهور السّامعين أو الشّهود.
- أنّه ليس عمليّة ذهنيّة، وإنّما هو تمشّ يهدف فيه المخاطِب إلى التّأثير في المخاطَب بإقناعه أو حمله على التّسليم بقضيّة أو أطروحة معيّنة.
- أنّ صاحبه يستخدم مجموعة من الحجج والتّبريرات تعتمد الأدلّة العقليّة والمنطقيّة.

3 – الحجاج في النّظريّة الحجاجيّة اللّسانيّة :

يتعارض معنى الحجاج في نظريّة الحجاج في اللّغة مع معانيه في كثير من النّظريات والتّصورات والمناويل الحجاجيّة الكلاسيكيّة الّتي تعدّ الحجاج متفرّعا عن البلاغة الكلاسيكيّة مع أرسطو، أو البلاغة الحديثة مع أولبريخت تيتيكا، وميشال مبير.. وبرلمان الّذي يعرّفه بكونه "مجموع تقنيات الخطاب الّتي من شأنها أن تبعث على إذعان المتلقّين للقضايا الّتي نعرضها عليهم أو أن نزيد في درجات هذا الإذعان"[4]، كما يعتبر أنّ غاية الحجاج إنّما هي "التّأثير في الإنسان بأن يجد نفسه مدفوعًا إلى العمل أو مهيّأ لإنجاز عمل محتمل"[5]،

ويعرّفه اللّسانيّ الفرنسيّ أوزفيلد ديكرو الّذي قام بتطوير أفكار أوستين بالخصوص، واقترح في هذا الإطار إضافة عمليْن لغوييْن، هما: عمل الاقتضاء

(3) Perelman (ch) : Article Argumentation, in, Encyclopesia Universalis Corpus 2, Paris, 1990; p. 638.

أو ضمن محمد علي القارصي، 1997، من مظاهر الحجاج في "كليلة ودمنة"، حوليات الجامعة التونسيّة عدد 41، ص 136.

(4) Perlman (Ch) et Tyteca (Olbrechts) : Traité de l'argumentation, Presses universitaires de Lyon 1981, p 92 .

(5) السّابق، نفس الصّفحة.

(Pré-suppositon) وعمل الحجاج (L'argumentation)، بأنّه "عمل لغويّ يقصد إلى إحداث تغييرات ذات طبيعة قانونية تراعي مجموعة من الحقوق والواجبات. فعمل الحجاج حينئذ يفرض على المخاطَب نمطًا مضبوطًا من النّتائج باعتباره الاتجاه الوحيد الّذي يمكن أن يسير فيه الحوار. والقيمة الحجاجيّة لقول مّا هي نوع من الإلزام ارتبط بالطريقة الّتي ينبغي أن يسلكها الخطاب بخصوص تناميه واستمراره.

ويطلق ديكرو وأنسكمبر على ذاك الحجاج الخطابي اسم "الحجاج في اللّغة" أو "داخل اللّغة" بما أنّه يمثّل تلك القواعد الدّاخليّة الّتي يبنى بها الخطاب وتتحكّم في ترابطه وتسلسله[6].

3 – الحجاج الخاطئ (أو الزّائف) وأنواع المغالطات[7]:

إنّ أيّ بحث دقيق في المغالطات الحجاجيّة يمكن أن يكشف عن إمكانات للهيمنة باللّغة عبر هذه المغالطات على اختلاف طرق استعمالها وسبل تأديتها لمقاصد متكلّم يعدل بالخطاب الحجاجي عن نيّة حسنة لا بدّ أن يصدر عنها ليلبسه لبوسًا سيّئ النّوايا، وهذه المغالطات عديدةٌ أنواعها، ربّما يعسر حصرها في مثل هذا العمل، لعلّ أهمّ ما تناول منها الدّارسون على علمنا: التّناقض المنطقي، التّناقض الأخلاقي العملي، الحجاج وجه ذات، الحجاج وجه ذات الاستهجاني، الاحتجاج بالسّلطة، حجاج القوّة، المحاجّة الجماهيريّة، المحاجّة بالتّجهيل: (مغالطة معرفيّة ومغالطة جدليّة)، المصادرة على المطلوب، مغالطة المسائل المتعدّدة، التّركيب والقسمة أو التّأليف والإفراد... [8]، وبما أنّ المجال لا

(6) Ducrot (Oswald): Les échelles argumentatives. Editions de Minuit. Paris, 1989. p 18-19.

(7) العزاوي (أبو بكر)، الحجاج في اللّغة ينظر الموقع على الشابكة (الإنترنت).

(8) ينظر على سبيل المثال: النّويري، محمد، الأساليب المغالطيّة مدخلا في نقد الحجاج، ضمن أهمّ نظريّات الحجاج في التّقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم، كليّة الآداب منوبة، 1998، ص ص 403 – 447.

يسع لاستعراضها وإطناب الحديث فيها، فإنّنا سنقتصر على تقديم بعضها ممّا سنحتجّ به على أطروحة "الهيمنة باللّغة" في بعض وجوهها المتعلّقة بالحجاج.

4 - 1 – الحجاج بالسّلطة : هو ضرب من الحجاج يُبنى على قياس وهمي، وهي نموذج شائع في الثّقافة العربيّة، فهي بمثابة حجّة النقل الّتي تقابل حجّة العقل، ويمثّل الباحث الجزائري نعمان بوقرّة لهذا النّمط من المغالطة الحجاجيّة بالقول[9]:

- «إسرائيل دولة نوويّة وهي قوّة عسكريّة فـــهي إذن على حقّ».

مقدّمة أولى مقدّمة ثانية نتيـــجة

فهذا النّوع من المغالطة يشمل الحجاج بالسّلطة لأنّ القوّة العسكريّة هي الّتي منحت إسرائيل خلال المثال سلطة مّا، أكسبتها حقّا غير مشروع في الأصل. ونستنتج حينئذ أنّ إنجاز عمل الإثبات موجّه توجيها مغالطيّا: إثبات حقيقة (موضوع المقدمتين) لطمس حقيقة ثانية (نقيض النّتيجة) بإظهار علاقة منطقيّة مزيّفة بين المقدّمتين والنّتيجة.

وهنا يرى سلمون (Salmon) أنّ الاستناد إلى السّلطة يجعل الحجّة غير سليمة استنباطيّا، ذلك أنّ المقدّمات فيها يمكن أن تكون صحيحة والنّتيجة خاطئة[10] .

4 – 2 – حجاج القوّة : يخرجه البعض من مفهوم الحجاج باعتباره حوارا عقليّا، ويبرّر ذلك بأنّ هذا النّوع لا يعتمد على استنتاج عقلي يؤدّي إلى النّتيجة،

(9) بوقرّة (نعمان)، نظريّة الحجاج، مجلّة الموقف الأدبي، إصدار اتّحاد الكتّاب العرب بدمشق، العدد 407، آذار 2005.

(10) ينظر: John Woods & Douglas Walton : Critique de L'argumentation, Kimé, 1992, p 40، وينظر كذلك ضمن النّويري، السّابق ص 424.

ولكن على إثبات النّتيجة بموجب أنّ فلانًا فرضها (القوّة) شأنه في ذلك شأن حجّة السّلطة حيث تُقبل النّتيجة بموجب أنّ فلانا قالها[11].

ويطغى على المقدّمات في حجاج القوّة الأسلوب الإنشائي من قبيل الأوامر والنّواهي:

- افعل كذا وإلاّ ضربتك.

- لا تفعل كذا وإلاّ ضربتك.

فيفعل المخاطَب أو يحجم عن الفعل خشية الضّرب لا بموجب اقتناع، ولا يعني المحاجّ حينئذ إن كان المخاطَب مقتنعًا بما فعل أو لا بقدر ما يعنيه تحقّق الفعل.

ولنا من الأمثلة الدّالة على هذه الخاصيّة الأسلوبيّة خطبة زيد بن المقنّع العذري الّذي كان يسعى إلى ضمان ولاية العهد ليزيد بن معاوية، فرغم أنّ الصّيغ الظّاهرة فيها هي صيغ الخبر فإنّه يمكن أن نردّها في يسر إلى الأسلوب الإنشائي، فقد خطب في حضرة معاوية قائلا :

"هذا أمير المؤمنين، (وأشار إلى معاوية)، فإن هلك فهذا، (وأشار إلى يزيد)، ومن أبى فهذا (وأشار إلى سيفه)"[12].

وهكذا نستنتج أنّ حجاج القوّة لا يتّجه نحو مواقف المخاطبين وقناعاتهم بقدر ما يسعى إلى تكييف أعمالهم وسلوكاتهم بحسب إرادة المتكلّم ووفق ميولاته ورغباته[13].

---

(11) يضيف الباحث نفسه نوعا آخر من الحجاج المغالطي هو "التّناقض الإثباتي" الّذي تنبّه إليه الآية التّاسعة عشرة من سورة مريم حيث يقول تعالى : ﴿**إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَانِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا**﴾. إذ ذهب بعض المفسّرين إلى أنّها لم تنذر في الحال بل صبرت حتّى أتاها قومها فذكرت لهم كونها نذرت، فيكون هذا منها تناقضا، فقد تكلّمت من حيث نذرت عدم الكلام، بينما ذهب آخرون إلى إمساكها واكتفائها بالإيماء بالرّأس.

(12) الباهي (حسّان)، تهافت الاستدلال في الحجاج المغالط، ص 6.

(13) هذا المقصد يتعارض مع أبسط تعريفات الحجّة بما أنّها كما ورد عن النّويري "تخاطب المنظومة الفكريّة للمتقبّل قصد توجيهها توجيها ينجم عنه انتظام جديد للأفكار؛ انتظـام يذهـب = =

4 – 3 – المغالطة المنطقيّة : تتشكّل بقياسات منطقيّة مغالطة تقوم على مقدّمات وهميّة كاذبة، شبيهة بما يبنى على الحقيقة أو الشّهرة والشّيوع، ومن أمثلتها[14]:

- كلّ ميّت يجب دفنه، والحجر ميّت، لذا يجب دفنه.
- أن يشير أحدهم إلى صورة فرس على الحائط، ويقول: هذا فرس، وكلّ فرس صهّال، فهذا صهّال.
- أن تقول في رجل يتكلّم في العلم على غير هدى: هذا يتكلّم بألفاظ العِلْم، وكلّ من هو كذلك فهو عالِم، فهذا عالِم.

فهذه القياسات المنطقيّة تُوهم بأنّها قياسات حقيقة، بل هي مضللّة ومغالطة.

4 – 4 – المغالطة العمليّة (Tu quoque) كما سمّاها ريشر(N .Resher): تتجسّد في ذاك التّناقض البيّن بين أقوال المحاجّ وأفعاله، ونجد في النّص القرآني ما يشير إليها إشارة واضحة في الآية الرّابعة والأربعين من سورة البقرة. يقول تعالى : ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ**﴾. كما يمكن ترجمة هذه المغالطة بذاك القول المأثور : "ينهى عن خلق ويأتي مثله".

والأمثلة على ذلك كثيرة، منها :

- أن يقول أب مدخّن لابنه: "لا تدخّن، يا بنيّ (فالتّدخين يضرّ بالصّحة)".
- أن يتظاهر عاقّ بنصح صديقه فيقول: "أطع والدتك (إنّ الجنّة تحت أقدام الأمّهات)".

= = ببعضها ويبوّئ غيرها محلّها فيدع ما كان يعتقده، بعضه أو كلّه. ويقتنع بما لم يكن مقتنعا في حركة ذاتيّة للفكر هي الأثر المباشر لعمليّة الحجاج". (النّويري، محمد، الأساليب المغالطيّة مدخلا في نقد الحجاج، أهمّ نظريّات الحجاج في التّقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم، كليّة الآداب منوبة، 1998، ص 427).

(14) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت، 1965، 508/3.

4 – 5 – الحجاج وجه ذات: ويتمثّل في مهاجمة الخصم الحجاجي والسّخرية منه والتّهكم عليه لتشويه صورته أمام المستمعين وجعلهم يستنتجون أنّ كلّ ما يقوله خطأ[15].

وتجلو المغالطات بإنجاز أعمال لغويّة عديدة كالتّهديد والوعيد والتّرهيب وغيرها من الأعمال الّتي تعتمد أساليبَ خطابيّة إقناعيّةً، وهو ضَرْب من الحجاج ينحو منحى استسلاميّا. ومن الأمثلة الشّهيرة على ذلك: خطبة الحجّاج بن يوسف في أهل العراق...

ونفهم من ذلك أنّ استعمال بعض الأعمال اللّغويّة يضمن للمحاجّ قدرًا من القوّة أو السّلطة ممّا يتيح له المغالطة، ويسعفه بتبرير موقفه تبريرًا مغالطيّا زائفا يفتقر إلى البعد الحقيقي للخطاب الحجاجي السّليم، فيستحيل بالتّالي حجاجًا زائفًا.

5 – اللّغة؛ من مجرّد وسيلة للتّواصل إلى أداة سلطويّة للإقناع بالقوّة :

من المعروف أنّ للّغة رسالتين، تهدف الأولى إلى أن تكون مجرّد معلومة خالصة، فينحصر دور المتكلّم المرسل في إيصال الرّسالة إلى المتلقّي ليفهمها. بينما تتجاوز الثّانية إلى إقناع المتلقّي بمضمونها، ولا تقف عند مرحلة فهمه إيّاها. وهنا يشير استيتية[16] إلى ما يمكن أن ينجرّ عن الاقتناع كأن «يعتقد المستقبل

(15) ينظر كورنيليا فون راد – صكوحي في مقدّمة كتابها «الحجاج في المقام المدرسي»، كليّة الآداب بمنّوبة، تونس 2003، حيث تقول الباحثة وهي تتحدّث عن الحجاج بالسّلطة والحجاج بالقوّة أنّه «كما يمكن أن نستعمل السّلطة أو الحجاج وجه الذّات بطريقة سليمة في ميدان العلم مثلا حيث نقبل قول الاختصاصيّ ولا نقبل قول غير الاختصاصيّ، يمكن أيضا استعمال هذا النّوع من الحجاج الّذي يربط بين صفات الشّخص وسلامة كلامه **بطريقة مغالطيّة**، إذ إنّ سلطة شخص ما لا تمنع أنّه يمكن أن يخطئ، كما أنّ شخصا تشوّهت صورته يمكن أن يقول الحقّ» (ص 27).

(16) نعني الباحث استيتيّة (سمير شريف) مدير مركز النّطق والسّمع – جامعة اليرموك – المملكة الأردنيّة الهاشميّة.

بصدق الرّسالة، لا بمجرّد صحّتها، وأن يجعل احتمال توجيهها لأفعاله أمرًا واردًا، إمّا بفعل الحدث، وإمّا بالكفّ عنه وتركه»[17]، ويعني ذلك أنّ الرّسالة ترد مضمّنة بأعمال لغويّة شأن الأوامر والنّواهي يتأوّلها المتلقّي بحسب معطيات مقاميّة محدّدة فتوجّهه إلى إيقاع الفعل إذا كان مأمورًا وتركه أو الكفّ عن إيقاعه إذا كان منهيّا، وقد تطرح مع هذا النّمط من الأعمال مسألة التّعسّف على المخاطبين فقد يعمل بعض النّاس على «بثّ الرّسالة بأيّ طريقة كانت لإقناع النّاس بها، وهم من أجل ذلك يسوّغون لأنفسهم كلّ وسائل التّرغيب والتّرهيب...»[18]،

وقد يحدث ألاّ يحرص المتكلّم المحاجّ على إقناع المخاطَب بأطروحته بقدر ما يحرص على إلزامه بمضمونها، «وهي طريقة استعلائيّة في بثّ الرّسالة وتوجيه الخطاب، ولعلّ أكثر ما تعتمد عليه هذه الطّريقة هو كون المخاطَب غير قادر على المواجهة، أو أنّه يرى نفسه غير قادر على ذلك أو أنّه لا يريد المواجهة أصلا، وفي مثل هذه الحال يستمرئ القويّ قوّته والضّعيف ضعفه، وتكون لغة هذا صورة لقوّته ولغة ذاك مرآة لضعفه»[19].

ومهما يكن، فأن يفرض المتكلّم سلطته على المخاطَب يصبح حينئذ أمرا بديهيّا لإنشاء الأوامر والنّواهي، على أن تكون هذه السلطة حقيقيّة وضعيّة ثابتة، إذ «يمكن أن تقول لي مثلا ونحن في جزيرة مقفرة «اِجْمَعْ حَطَبًا» فأجيبك: «أَنَا لاَ أَقْبَلُ مِنْكَ أَوَامِرَ» أو«لَيْسَ لَكَ مَا يُؤَهِّلُكَ إِلَى أَنْ تَأْمُرَنِي»، فأنا لا أقبل منك أوامر حين تحاول «فرض سلطتك» في جزيرة مقفرة، وهي سلطة يمكن لي أن أعترف

(17) استيتيّة (سمير شريف)، ثلاثيّة اللّسانيات التّواصليّة، عالم الفكر، العدد 3، المجلّد 34، الكويت، مارس 2006. ص 23.

(18) نفسه، ص 26.

(19) نفسه، ص 28.

بها كما يمكنني ألاّ أعترف بها. وهذا خلافًا للحالة الّتي تكون فيها قائد سفينة حيث تكون لك سلطة حقيقيّة»[20].

وهنا يثير أوستين مسألة هامّة تتّصل بوضعيّة التلفّظ عند إصدار الأوامر وتخصّ أساسًا علاقة المتكلّم بالمخاطَب بما هي علاقة توتّر، إذ تكتنف هذه العلاقة رابطة سلطويّة يحتكم إليها المتكلّم لدى توجّهه للمخاطَب آمرًا أو ناهيًا، وهذا ما يتجسّد في ضابط الاستعلاء خلال التّصوّر البلاغي لمثل هذه الأعمال، فهو شرط من شروط إنجاز الأوامر[21]. ولكنّ استغلال مثل هذه الوضعيات والضّوابط المقاميّة قد يكون مغاليًا في بعض الأقوال، حتّى إنّ الجاحظ يتحدّث عن «التّخلّص من الخصم بالحقّ والباطل...»[22]، رغم أنّه يعود في السّياق ذاته ليذكر تخليص الحقّ من الباطل والإقرار بالحقّ، ولذلك قد توسّم بسمات من قبيل السّلطة والقوّة والهيمنة، وربّما أمكننا حينها أن نتّخذها دلائل نستدلّ بها على ضرب من ضروب المغالطات الحجاجيّة متى استقرّ عندنا أنّ كلّ الأقوال متلبّسة بالحجاج، وأنّ الحجاج حينئذ سمة عامّة لكلّ استعمال للّغة. إذ نجد في الصّيغة الّتي يقدّمها ديكرو أنّ «كلّ قول حجاج»، فأن تتكلّم يعني أن تحاجج، ولا وجود لكلام دون شحنة حجاجيّة[23].

---

(20) ينظر :

AUSTIN, J.L, 1962,- How to do things with words, Cambridge. Mass. Harvard university. Press. p28// Trad. Française : quand dire c'est faire. Servil. Paris 1970.

ويمكن أن يراجع ضمن مقالنا الموسوم بـ«كيف ننجز بالأقوال أعمالا:الأوامر والنّواهي أعمالا لغويّة»، مجلّة رحاب المعرفة، السّنة 12، العدد 68، مارس – أفريل 2009، ص 52.

(21) ينظر فصل "الأوامر والنّواهي أعمال طلب تحقّق مطابقة العالم للقول: معيار سلطة المتكلّم وإرادته" من عملنا الموسوم بـ«الأوامر والنّواهي أعمالا لغويّة؛ مقاربة نحويّة تداوليّة للأمر والنّهي في اللّغة العربيّة»، مرقون بالمعهد العالي للغات بتونس، 2004، ص 102.

(22) البيان والتّبيين، ج 1، ص ص 212 – 213.

(23) **DUCROT,O,**1984, Le dire et le dit, les Editions de Minuit, Paris.p 108.

5 – العدول بالحوار العقلاني إلى الجدال فالمغالطة ضربا من الهيمنة باللّغة:

يمرّ الحوار الحجاجي عادة بمراحل تختلف تسمياتها، يمكن أن نلخّصها، بناءً على ما ذهب إليه الباحث المغربي حسّان الباهي، في أربع هي[24]:

- أوّلا : الفتح أو الاستهلال.
- ثانيا : المواجهة أو المقابلة.
- ثالثا : التّدليل أو المحاجّة.
- رابعا : الختم أو الإنهاء.

إلاّ أنّ هذه المراحل قد لا تُستوفى وقد لا يُلتزم بها، إذ قد يبدأ الحوار مشروعا يحترم كلّ طرف واجباته ويلتزم ما تُمليه عليه سنن التّخاطب والتّعامل القولي (L'interaction verbale)[25]، وقوانين المحادثة (Lois de conversation) ليكون التّفاهم ويتحقّق التّواصل وفق قواعده الّتي تتحكّم في نمط الاستدلال الّذي يقترحه سورل (Searle) (أي مراحل الاستدلال الذّهني)[26] حتّى يتيسّر للمخاطَب فهم قصد المتكلّم فيكون الإقناع الحجاجي رديفه يحصل باستغلال الأعمال اللّغوية في إنشاء المحادثة طبق نواميسها وسُبل المتكلّم في التّعبير عن ذاته والكشف عنها للآخرين بطرق تيسّر على المخاطَب فهم مقاصده، وهو ما يعمل على توضيحه غرايس (Grice)[27] من خلال تلك القواعد التّحاوريّة الّتي ضبطها مؤكّدا أنّ نجاح عمليّة التّواصل يتطلّب الالتزام بمبدإ التّعاون، وهو مبدأ تنبثق عنه حكم أربع، هي[28]:

---

(24) الباهي (حسّان)، تهافت الاستدلال في الحجاج لمغالط.

(25) لمزيد التّوسّع في المفهوم يمكن النّظر في :

Kerbrat-Orecchion,C, 1990, Les interactions Verbales, Armand Colin.

(26) Searle, 1979, 71-77.

(27) ينظر : Logique et conversation – communication N°30 ed. Seuil 1979 -1

(28) حكم المحادثة عند غرايس ضمن مقالنا الموسوم بـ "كيف ننجز بالأقوال أعمالا: الأوامر والنّواهي أعمالا لغويّة"، مجلّة رحاب المعرفة، السّنة 12، العدد 68، مارس – أفريل 2009، ص 48.

- **حكمة الكمّية** : اجعلوا خطابكم أكثر غنى بالأخبار، على ألا يتعدّى ذلك حدّه، ليصبح هدفًا في التّواصل.
- **حكمة النّوعية (أو الكيفية)** : لا تقلْ ما تعتقده خاطئًا، وتفتقر للبراهين الكافية عنه.
- **حكمة العلاقة (أو الإفادة)** : كن دقيقًا.
- **حكمة الصيغة** : كن واضحًا، دون اللّبس، وموجزًا ومنظّمًا.

هذه الحكم عادة ما يتغافل عنها المحاجّ عندما ينحو بخطابه نحو المغالطة، ويضمر قصد التّضليل والإكراه، ولّما يصدر خطابه عن نيّة سيّئة فيستهدف تغليط خصمه ويتجرّد من أخلاقيات الحوار الحجاجي السّليم. وبناءً على ذلك تنقلب مراحل الحوار الحقيقي إلى أضدادها كما يحدث في المثال التّالي الّذي أورده حسّان الباهي بخصوص واقعة بسيطة قد تحدث بين زوجيْن[29]:

- أوّلا : الفتح أو الاستهلال : نقاش هادئ.
- ثانيا : المواجهة أو المقابلة : تباين في وجهات النّظر.
- ثالثا : التّدليل أو المحاجّة : صدام ونزاع وعراك وضرب وتضليل أمام تدخّل الأسرة.
- رابعا : الختم أو الإنهاء : ينتهي إلى المحاكم بعد ادّعاء كلّ منهما أحقيته في الحضانة.

ونفهم من ذلك أنّ الحوار الحجاجي قد يبدأ مشروعًا يقف فيه كلا الطّرفيْن في حدود ما له وما عليه بقدر كبير من المسؤوليّة، لكن بمجرّد أن ينتهك أحدهما سنن الحوار العقلاني، جميعها أو بعضها أو إحداها، حين يستغلّ مثلا حدثا معيّنا، ينقلب ذاك الحوار العقلاني الهادئ إلى جدال، فمغالطة[30]. ومن ثمّ

(29) الباهي (حسّان)، السّابق، نفس الصّفحة.
(30) السّابق، نفس الصّفحة.

فإنّ أيّ تناظر عقلانيّ هادئ رزين يمكن أن ينقلب في أيّ لحظة وبطريقة أو بأخرى إلى مغالطة صارخة تستخدم فيها مختلف أساليب التّضليل، كأن يعمد المحاجّ إلى إلغام خطابه بالأعمال اللّغويّة غير المباشرة، فتحضر أساليب تقوم على القوّة والهيمنة والإكراه والوعيد، كأن يقول:

- افعل (وسترى)!

- ألا تسمع كلامي؟

فيبدو الملفوظ الأوّل في معناه الأوّلي مجرّد نصيحة بصيغة أمر، لكنّ قوّته المقصودة بالقول (force illocutoire) هي قوّة التّوعد أو الوعيد عملا لغويّا غير مباشر. بينما قد يفهم الملفوظ الثّاني فهما حرفيّا على أنّه مجرّد استفهام أو سؤال، بينما يقصد المحاجّ إلى إنجازه بقوّة الإنكار. بل قد يعمد إلى الجمع بين أعمال لغويّة مباشرة وأخرى غير مباشرة، كأن يقول :

- ما أروع أن تعبّر عن رأيك، (قاصدا إلى التّعجّب عملا أوليّا مباشرا).

ثمّ يقول لاحقا :

-لكنْ أن تعبّر عن رأيك لا يعني أن تقول كلّ شيء، (قاصدًا بالإثبات إلى التّحذير).

فيحصل بذلك إرباك المخاطب وتحدث ممارسة ضرب من التّعمية والمراوغة والالتفاف عليه.

وقد ينبثق عن ذلك ضرب آخر من المغالطات الحجاجيّة تسَوم بـ :

- **المغالطة بالتّجهيل**: وهو نوع من المغالطات الّتي قد يحتال فيها المحاجّ على خصمه بدعوى التّعمّق في صورة استعمال الأعمال غير المباشرة لإجهاد المخاطب في تتبّع المعاني الحافّة، فلا يُفهم من كلامه إلاّ القليل لكثرة الغموض الّذي يكتنفه وكثافته.

وإذا كان أوستين قد قسّم العمل اللّغوي إلى عمل قولي (Acte locutoire)، وعمل مقصود بالقول (Acte illocutoire)، وعمل تأثيري بالقول (Acte perlocutoire)، فإنّ ثالثها؛ أي التّأثيري بالقول بما هو الأثر غير المباشر الّذي نحقّقه بالقول، ويرتبط بردّ فعل المخاطب يجاوز القول و يخرج عنه. قد يحصل بعد قول المتكلّم وقد لا يحصل، في حين أنّ العمل القولي والعمل المقصود بالقول عملان حاصلان، عرفيان، اصطلاحيان على خلافه[31]، فإذا كان للعرف تحكّم في إلزام المتكلّم بإبلاغ القصد بالقول أو القوّة المقصودة بالقول (illocutoire force)، فليس له في إبلاغ القصد التأثيري تواضع فهو لا يُلزم المتكلّم بأن يُوصِل قصده التّأثيري إلى المخاطب.

فهبْ أنّك قلت لشخص: «آمرك بالمغادرة» أو قلت له : «أنهاك عنها» وفي نيّتك وقصدك إذلاله وتحقيره أمامك، فأنت لم تأمره أو تنهاه إلاّ بعقد النيّة والقصد على الأمر أو النّهي، فقصد الأمر أو النّهي حاصل بفعل أمرك أو نهيك، أمّا قصد الإذلال والتّحقير فليس بالحاصل حتما لأمور منها مثلا:

- أنّ سامعك قد يُظهر لك الاستهزاء حيث انتظرت منه التذلّل.

- قد لا يبدر منه أيّ ردّ فعل إذا لم يفهمك.

- قد لا يردّ الفعل لأنّه لم يدرك قصدك لبلادة ذهنه.

فليس من اللاّزم أو المؤكّد، حينئذ، أن يبلغ قصدك التّأثيري المخاطب، بل إنّك قد تقصد أثرا ما لقولك فلا يقع وقد تحدثه دونما قصد، وقد يحدث حيث قصدت غيره[32].

(31) الشريف (محمد صلاح الدّين)، تقديم عام للاتجاه البراغماتي، ضمن كتاب "أهم المدارس اللّسانيّة"، منشورات المعهد القومي لعلوم التربية، تونس 1986، ص 106.

(32) نفسه، ص107.

الخاتمـــة :

لقد سخّرنا هذا العمل في كلّيته للكشف عن بعض مظاهر الهيمنة باللّغة؛ أي من خلال استعمالها استعمالا موجّها بسوء نيّة إلى مقاصد وأغراض ذاتيّة معياريّة مشبعة بتلك النّزعة الفردانيّة الّتي لا توافق المغزى الإنساني للّغة، باعتبارها آلة مطواع خدوم تؤمّن التّواصل بين الأفراد بذاك المعنى الشّمولي الواسع لمعنى التّواصل حين يستحضر مستعملها أنّه "كائن لغوي" حقيق به أن يسخّرها دون أن يناقض ذاته(33).

ولم نجد من حيث اختصاصنا اللّسانيّ التّداوليّ أفضل من الحجاج، وتخصيصًا "المغالطات الحجاجيّة"، لتوضيح سبل العدول بالاستعمالات اللّغويّة عن وظائفها الأصليّة، والإبانة عن شكل من أشكال التّسلّط والهيمنة أداته اللّغة بعد إذ هي أداة "إنشاء للكون" كما ينظّر لذلك الكثير ممّن يشتغلون على التّداوليّة(34).

وبناءً على ما تعرّفناه عن الحجاج في النّظريّة الحجاجيّة اللّسانيّة، أمكننا أن نبدي بقدر كيف يمكن أن توجّه الأعمال اللغّويّة توجيها مغالطيّا يعدل بها عن أيّ وظيفة حجاجيّة ممكنة إلى تشكيل حجاج زائف عادة ما يلغم بتلك الأعمال الإنشائيّة القابلة للتأويل بكثافة مثّلنا لها بـ"الأوامر والنّواهي" الّتي توحي عادة بقدر من التّسلط.

وبالتّوافق إلى ما استخلصنا ونحن نقارب المغالطات الحجاجيّة من خلال بعض ضروبها، وتأكيدا لخلاصة تلك النّتائج، تبيّنا أنّ كلّ محاولة للعدول بالحوار العقلانيّ إلى الجدال فالمغالطة يعدّ عندنا ضربا من الهيمنة باللّغة.

---

(33) ينظر شحاته (عبد المنعم)، التّحاور الكفء: محدّداته وتنميته، عالم الفكر، العدد 1، المجلّد 37 يوليو- سبتمبر 2008، ص 111.

(34) ينظر: الشّريف (محمّد صلاح الدّين)، الشّرط والإنشاء النّحوي للكون؛ بحث في الأسس المولّدة للأبنية والدّلالات، منشورات كليّة الآداب بمنّوبة، تونس 2002.

وفي المحصلة استنتجنا أنّ التّشريك الحجاجي سلوك عقلانيّ من شأنه أن يعطّل إمكان الهيمنة باللّغة في الوسط الاجتماعي العام، ويقي الكيان الاجتماعيّ من التّصدّع عندما ينشأ أفراده على تقاليد حجاجيّة بمنأى عن المغالطات، تجعلهم شركاء إيجابيين في التّأسيس لسلوك حجاجيّ عقلانيّ.

بين الفصحى والعاميّة: أغاليط الخطاب التلهيجي[*]

د. محمد وحيدي[**]

مقدّمة

منذ أكثر من قرن، دخل العالم العربيّ في صراع وجود حضاريّ، فيما سُمّي صدمة الحداثة. وقد كانت المسألة اللّغوية عنوانًا لهذا الصراع، وكانت أحد تجلياته في معترك مقارعة المحتلين، وميادين المغالبة السياسية والنقاش الفكريّ. وقد ظهر هذا الوعي بأهمية اللغة في تحرّر الأمة ونهوضها وسعيها لدخول نادي الحضارة والتقدم مبكرًا عند مفكري النهضة والإصلاح. لكن ذلك لم يمنع ظهور دعاوى تُعادي هذا التوجه العام وتشوّش عليه. فتبلورت فكرة تقول إن "جمود" اللغة العربية ينتصب عائقًا أمام التقدّم الذي لن يتأتّى- زعمًا - إلا إذا تخلّينا عن هذه اللغة، ولهجنا بألسن الحضارة والعلم. وفي سياق ذلك، طُرِحت العامية باعتبارها هذا البديل المحتمَل للفصحى. وتتأسّس هذه الأطروحة على ضرورة إحلال العامية (الدارجة) في محل العربية الفصحى لتقوم بكلّ أدوارها في الحياة العامة كما في الإدارة والتعليم، وتكون لغة الكتابة والتواصل اليومي.

(*) قدمت بعض محتويات هذه المقالة ضمن أنشطة الندوة التكريمية التي نظمت احتفاء بالدكتور عبد القادر الفاسي الفهري في كلية اللغة العربية، ماي 2011.

(**) أستاذ باحث في اللسانيات - جامعة المولى إسماعيل – مكناس – المغرب.

وبالرغم من التطوّر الهائل الذي عرفته اللغة العربية، والجهود الجبّارة التي بذلتها أجيال من المفكرين والأدباء والعلماء لتطوير هذه اللغة والبحث فيها وفي أدوات تأهيلها، فإن هذه الأطروحة القائمة على استئصال اللغة العربية (الفصحى) تُبعَث في صور شتى تشويشا وضِرارا. تحاول هذه الورقة إضاءة هذه المسألة وسياقاتها وتضمناتها. وهي تتوخّى أساسًا كشف مفارقات الخطاب التلهيجي وأغاليطه. وسنبيّن أن هذا الخطاب، الذي يدعي التطوير والحداثة، خطاب جامد لم يطوّر أدواته؛ بل ظل يردّد الأفكار والحجج ذاتها، من قبيل أن العربية لغة جامدة، وأن موتها حتمي، وأن المستقبل للعاميات (الدوارج). وهذا دليل واضح على تهافته. سنتناول سياق بروز فكرة العامية، وغايات إعادة إحيائها الظاهرة والمخفية. ثم ننتقل إلى إبراز زيف بعض الأفكار التي تأسست عليها وتَداعي الاستدلالات التي سيقَت لتعزيزها؛ حيث سنركّز على طبيعة العلاقة بين الفصحى والعامية وما بينهما من اتصال. ثم نعرض مسألة الموت الحتمي المزعوم للعربية قياسًا على اللاتينية التي أخلت مكانها للهجات. كما نعرض فيها أيضا قضايا اللغة والانفتاح والتعدد.

1. أطروحة العامية: السياق والتضمنات

1.1. فكرة استعمارية في ثوب جديد

يتداول أدعياء أطروحة العاميّة جملة من الأفكار، منها أن العربية الفصحى لم تَعُد صالحة لمواكبة التطور، وأنها ليست لغة علم، وأنها لغة جامدة ومشحونة بالمقدس. وهي إضافة إلى ذلك تعوق النموّ الفكريّ والوجدانيّ للطفل العربيّ، لأنها ليست اللّغة الأم (lingua materna) بالنسبة إليه. من أجل كل تلك "النقائص"، لا بدّ من التخلّص منها وإحلال العاميّة محلّها من أجل تجاوز هذا الازدواج الذي أصبح عائقًا. ويستلزم كل ذلك كتابة العامية –ولِمَ لا بحروف لاتينية؟!– وتمكينها في الإدارة والتعليم وجعلها لغة الكتابة والعلوم،

وتزويدها بالمعاجم والكتب المدرسية والترجمة إليها، و"نقل" القرآن الكريم إليها حتى يصبح متاحًا للجميع.

إن هذه المضامين مُتدَاوَلة في الخطاب التلهيجي جزئيا أو كليا. ويقتضي نقضها فهم السّياق الذي تبلورت فيه أول نشأتها. من المعلوم أن أطروحة العامية ليست جديدة، بل ظهرت في أوساط بعض الكُتَّاب العرب منذ نهاية القرن التاسع عشر، أمثال أمين شميل، ولويس عوض وسلامة موسى وغيرهم. وقد كانت في الأصل صدى لأفكار روّج لها بعض المستشرقين، أمثال فيلهِلم سبيتا (Wilhelm Spitta) في مصر، وجورج كولان (Colin) في المغرب الأقصى. ولا تخفى ارتباطاتُ هؤلاء المستشرقين الواضحة بالدوائر الاستعمارية، وأدوارُهم في خدمة المشروع الكولونيالي في بُعْدَيه الثقافيّ واللغويّ. ونظرا للخلفية الاستعمارية لتلك الأفكار حول اللغة العربية الفصحى وصِلتها بالعامية، وخاصة الدعوة إلى العامية، فقد لقيت مقاومة شديدة من قبل المثقفين العرب الذين دافعوا عن العربية الفصحى وسعوا إلى تطويرها وتجديدها لنقض هذه الأطروحة من أساسها. في هذا الإطار، نُذكِّر بالسياسة اللّغوية في المغرب الأقصى التي قامت على الفصل بين المكوّنات اللّغوية في المشهد اللّغويّ المغربيّ على أساس أنه يقوم على عنصريْن أساسيْن، هما: المازيغية والعامية المغربية. أما العربية الفصيحة فقد عُدَّت مكونًا غريبًا ولا صلة لها بلغات المغرب. وقد كان من أدوات تنفيذ هذه السياسة إنشاء معاهد تكرّس هذا الميز اللغوي، مثل **معهد الأبحاث العليا المغربية** (Institut des Hautes Etudes Marocaines) الذي أسّسته سلطات الحماية الفرنسية في الرباط واستمر عمله بين 1915 و1959. ويمكن اعتبار المعهد الوطني للغات والحضارات الشرقية (inalco) في باريس اليوم استمرارا لهذا التوجه في خدمة أجندة استعمارية قديمة. وقد كان دور الحركة الوطنية حاسمًا في التصدي لهذه الأفكار التي رَوّج لها المستعمِر حول العربية والعامية. يبدو جليا إذن أن هذه الدعوات هي استعادة لمطامح استعمارية قديمة فشل الاستعمار في توطينها بنفسه، فاصطنع لها أتباعا يروجونها بضاعة مزجاة.

2.2. مفارقات وأغاليط

يقوم الخطاب السائد حول العامية وعلاقتها بالفصحى على جملة من الأغاليط والمفارقات التي لا نجد لها تفسيرا. وقد أوضحنا في الفقرة الفرعية السابقة أن هذه التصورات تشكّلت في سياق "كولونيالي" كان هدفه المعلن والخفي التمكينَ لثقافة المستعمِر، وضمنها لغته. وقد كانت تلك سبيلَه إلى حماية مصالحه، وإضعاف النزوع إلى المقاومة الذي كان ردّ فعل طبيعيًا من المستعمَر.

لا يُقدّم لنا هذا الخطاب تفسيرًا لملاحظتيْن رئيستيْن: الأولى هي أن المناداة بالعامية جاءت في سياق كانت فيه اللغة العربية قد بدأت تخرج من قرون من الجمود والضعف أحالها قوالب جامدة من التعبير. وقد أثمرت جهود أجيال من المفكرين والأدباء والفلاسفة والعلماء المخلصين، فنزعت اللغة العربية عنها أثواب البِلى، وجدّدت نفسها معنى ومبنى، وعاد لها بعض ألقها وبدأت تستعيد حيويتها وإشعاعها. والثانية هي أن هذه الفِرية سيقت في وقت كان الإنسان العربي مغلوبًا على أمره، فكان الاستمساك بلغته عنوانا للمقاومة. والغريب أن يستمر تداول هذه المقولات – التي رددها الاستعمار – في زمن تحرر الإرادة العربية.

من الأفكار التي لا يملّ دُعاة هذه الأطروحة من تكرارها أن اللغة العربية لغة ميتة لا تتطور. بداية لا بدّ أن نقرر أن التغير ناموس يحكم اللغة، فلا يصحّ أن تشذّ العربية عنه. وإذا كان في مقدور المتكلّم بالعربية اليوم أن يتواصل مع تراثه الثقافي بيسْرٍ غير قليل، رغم الفارق الزمني المعتبر، فإن ذلك لا يعني أن هذه اللغة ظلّت جامدة. ولعلّ مقارنة بسيطة بين ما كان يُنشر في بداية القرن الماضي في الصحف وما كان يكتبه الأدباء من جهة، وبين ما يُكتب اليوم من جهة أخرى، تعطينا فكرة عن التجديد الذي طال هذه اللغة. ولولا هذا التجدّد لما ارتفع أدباء العربية إلى قمم المجد الفكريّ والأدبيّ. ثم كيف يُزعَم أن العربية لم تتطور ولم تتجدّد وهي اليوم إحدى لغات التواصل الإعلامي الرائدة؟ وهل

يصحّ أن يتكلّم الشرق والغرب -ويصطنع لها الفضائيات الناطقة بها كلية- لغة جامدة؟ إن العربية اليوم في عصر الشابكة (الإنترنت) والفضائيات ليست لغة جامدة معزولة، بل هي لغة حية تتفاعل مع محيطها تأثّرًا وتأثيرًا. وهذه ليست انطباعات أو أمانيّ، بل هي أرقام. فأعداد مستعملي العربية على الشابكة (الإنترنت) في تزايد مطّرد، والعربية الأنيقة علامة تجارية مطلوبة. وهي إلى ذلك لغة ينفتح بها علينا الشرق والغرب. فهل سمعت عن لغة ميتة هذه أوصافها؟

ومن تلك الأفكار أيضا أن اللّغة العربية الفصيحة لا تصلح للتواصل اليومي. وهذه فكرة تدلّ على ضحالة في الفكْر وتسطيح في الفَهْم. فهُم يقصرون التواصل على التعبير عن الحاجات اليومية. لذلك يجادلون بأن استعمال الفصحى في الشارع مَدعاة للتندّر. ومعلوم أن من سمات الازدواج (diglossia) ارتباط الفصحى والعامية بمجالات وظيفية متمايزة؛ حيث ينبغي استخدام الشكل المناسب في الوظيفة المناسبة. فمن الطبيعي أن يثير استخدام الفصحى في غير مجالها الوظيفي سخرية، وهذا ينطبق على العامية بالقدر نفسه. علاوة على ذلك، ينطوي هذا القول على مغالطة كبرى، هي أن اللّغة التي يستعملها الناس في تواصلهم اليومي لا تمتُّ إلى العربية بأية صلة. وهذا غلط كبير. وسنعود إلى ذلك في الفقرة القادمة. إن كثيرًا مما يستعمله الناس بعفوية وتلقائية عربي فصيح. والمغالطة الثانية هي أنهم يسجنون التواصل في هذه المجالات المتصلة بحاجات الناس اليومية. أليست الأرقام العالية والمتقدمة التي تحققها العربية (الفصيحة) في الإذاعة والتلفزة والصحف اليومية والمواقع الإلكترونية الجادة دليلا قويا على أنها لغة تواصل بامتياز؟ ولا أحد يفسّر لنا لماذا لم تستطع العامية (الدارجة) أن تحقق نتائج معتبرة في هذه المجالات التواصلية التقليدية وغير التقليدية؟ لماذا لا نجد جريدة واحدة واسعة الانتشار بالدارجة[1]؟

(1) كان استخدام العامية واسعا في مصر مثلا منذ نهاية القرن التاسع عشر. ولم يكن استخدامها مقصورا على بعض الداعين إليها. بل لجأ إليها حتى بعض المفكرين الذين كانوا ينتصـرون = =

وارتباطًا بالفكرة السابقة، يدّعي أصحاب أطروحة العامية أن اللغة العربية الفصيحة لا تُعبّر عن وجدان المتكلّم العربي. ونحن لا نعثر عندهم على مقصودهم بالوجدان. وهم لا يخبروننا ماذا نفعل بكلّ هذا التراث الشعري الغني في التعبير عن أدق الأحاسيس وأنبلها، بل وأكثرها التصاقًا بالنفس البشرية.

نختم هذه الملاحظات بالحديث عن اللّغة والمقدس. إن اللّغة العربية – في زعمهم – عاجزة عن التطور لأنها مشحونة بالمقدس، لذلك تجد لسان المتكلم بها مغلولا لكثرة القيود. ولا بُدّ من بعض التوضيحات ههنا. أولا، إن اللّغة هي مجال القيود بامتياز. فاللّغة بالتعريف هي نسق من القواعد يستبطنها المتكلّم ويلتزم بها. والعربية ليست بدعًا من اللّغات. ثانيًا، لا يعني ذلك فرض قيود قاهرة على متكلّم العربية على طريقة قُل ولا تقُل. ثالثًا، إذا كان ربط اللّغة بالمقدس يُحيل على العلاقة بين اللغة العربية والقرآن الكريم، فإن هذا الأمر مردود من وجوه عدّة، نذكر منها اثنين: أولها، أن العربية لغة المسلمين وغيرهم كما يشهد بذلك التاريخ. بل إن ارتباط المسيحيين في المشرق العربي (في سوريا ولبنان) باللغة العربية كان عظيمًا. ولسنا في حاجة إلى التذكير بجهود المسيحيين في إحياء العربية وتطويرها وتيسيرها. بل إن المسيحيين كانوا يتعاملون مع القرآن لأنه كتاب هذه اللّغة. فالمُعتقَد لم يكن عائقًا أمام التعامل مع اللّغة العربية[2]. وثانيها أن اللغة العربية اتسعت في تعبيرها للمقدس الديني والمدنّس الدنيوي. فكيف يقال عن لغة اتسعت للشعر والقرآن، لأهل الفقه والحديث والباطنية والدهريين والملحدين والمتكلمين والفلاسفة إنها لغة مشحونة بالمقدس؟!

= = للعربية الفصيحة أمثال عبد الله النديم. ومع ذلك لم تستطع العامية اختراق المجالات التقليدية للعربية الفصيحة، وظلت محدودة في استعمالها كمًّا ونوعا. بل إن العربية تتفوق حتى على اللغة الأجنبية في هذا المجال.

(2) يروي المفكر الفلسطيني منير شفيق في أحد حواراته أن أباه –وقد كان مسيحيا– كان يحفزه على حفظ القرآن الكريم من أجل صقل ملكته اللغوية.

2. الفصحى والعامّية وما بينهما من اتصال

1.2. تحديدات أولية

تحفل الأدبيات، في حقلي اللسانيات الاجتماعية أو اللهْجِيات (Dialectology)، بكثير من المفاهيم المتصلة بالتنوع اللغويّ. ومن أمثلة ذلك مفردات لغة، ولهجة، وعامية أو دارجة، ولغة معيار ولغة غير معيار، إلخ. ويطرح استخدام هذه المصطلحات إشكالات كثيرة، لأنها ليست محايدة، بل هي مشحونة بالإيحاءات والدلالات التي يسعى الكثيرون إلى تجنّبها. ولا ندّعي في هذا المقام بسط هذه الفروق، ولكننا نحاول فهم السياقات التي تَرد فيها حتى نتبين دلالات استخدامها في سياق الحديث عن وضع اللّغة العربية.

إن ثنائية فصحى-عامية ليست واضحة، بل يلفها كثير من الغموض. وسبب ذلك أن مصطلح عامية (vernacular) نفسه لا يعني شيئًا واحدًا في جميع السياقات والاستخدامات. علاوة على ذلك، تُسهم بعض الإيحاءات القدحية في زيادة الغموض المتصل به. وهذه الدلالة القدحية مرتبطة أساسًا بتشكّل المصطلح ذاته[3] [4].

(3) يثير مصطلحا *عامية* العربي أو"vernacular" اللاتيني إشكالات كثيرة، فاستخدامهما مشحون بالدلالات القدحية التي تنشأ عن النظرة التنقيصية لهما. وهذا مرتبط بسياق نشأتهما. فكلمة عامية ارتبطت نشأتها بما يسمى ظاهرة اللحن التي ينظر إليها عادة على أنها نوع من فساد اللغة. وقد ظهر نوع من الكتابات ترصد هذه الظاهرة تسمى كتب لحن العامة. لذلك ينحو البعض إلى استبدال كلمة دارجة بها لأنها تخلو من هذه الدلالة الإيحائية. وفي السياق اللاتيني، تثير كلمة "vernacular" نقاشا أوسع لأنها كانت جزءا من الجدل الذي كان دائرا حول ما كان يسمى عند رواد الحركة الإنسية (Humanism) "*المسألة اللغوية*" (questione della lingua). وتشير أثالة الكلمة إلى ارتباطها بالكلمة اللاتينية "vernaculus" التي تعني جِبلِّي أو فطري. وقد وردت كلمة "vernaculus" في محاورة "بروطوس" الشهيرة لشيشرون. ثم دخلت الجدال الفكري بين مفكري الحركة الإنسية في إيطاليا في القرن الخامس عشر الذين استبدلوها بالكلمة الأقدم "vulgaris". انظر رامينغر، 2010 للتفاصيل.

(4) تشير سياقات استخدام كلمة "vernacular" في الدراسات اللسانية المعاصرة إلى التباين الكبير في التعامل مع هذه الكلمة. فالدراسات ذات التوجه الأنثروبولوجي تتجنب الحديث عنها ==

ويحيل التمييز بين الفصحى والعامية على ثنائية أخرى هي ثنائية لغة – لهجة (dialect/language). ومعلوم أن هذه الثنائية تكتسب دلالتها داخل حقل اللسانيات الاجتماعية؛ إذ إن اللساني لا يهتم بهذه التنوعات، لأن ما يعنيه أساسًا هو تخصيص المعرفة الضمنية للمتكلِّم بلغته. فالسلوكات اللغوية هي تجسيد لحالة ذهنية. وهذا موضوع كان موضع جدل كبير بين تشومسكي ولايبوف (Labov) مثلا. إن التمييز بين اللغة واللهجة محكوم أساسًا بالعوامل الثقافية والسياسية. وفي هذا السياق يمكن أن نفهم عبارة: "اللّغة لهجة لها جيش وأسطول"[5].

ولعل ما يزيد المسألة غموضًا هو المصطلحات الكثيرة التي تستخدمها الأدبيات الاستشراقية التي اشتغلت على اللّغة العربية. ولذلك نجد حديثا عن عربية قديمة (Altarabisch/old Arabic) وعربية حديثة (Neuarabisch/neo-arabic). إضافة إلى ذلك، تَرِد مصطلحات أخرى أمثال عربية كلاسيكية وعربية معيار. وفي الدراسات التركيبية المعاصرة المشتغلة باللغة العربية، نجد أن أكثر الاصطلاحات استخدامًا في وصف الوضع اللغوي العربي الازدواجي هو التمييز بين عربية معيار (حديثة) "Modern Standard Arabic" وعربية منطوقة (Spoken Arabic)، وأحيانا يُضاف وصف يشير إلى المنطقة التي تتكلم فيها تلك اللغة، فيكون الحديث عن عربية مغربية أو مصرية أو فلسطينية ونحو ذلك.

2.2. المتّصل اللغوي العربي

تمثِّل اللغة العربية أحد الأمثلة الواضحة لما يُسمّى الازدواج اللغويّ (Diglossia). ويقصد بالازدواج في التعريف المعيار الذي قدمه فيرغيسون

= = نظرا لحمولتها الجارحة. وفي مجالات بحثية أخرى تستخدم بمعان مختلفة انطلاقا من السياق التقابلي الذي ترد فيه. فهي قد تستعمل في مقابل اللغة الشمولية (lingua franca) باعتبارها وسيلة للتواصل بين عاميات لا يحدث التفاهم بينها. وفي اللسانيات الاجتماعية قد ترد في سياق التمييز بين لهجة معيار ولهجة غير معيار وأحيانا قد تدل على تنوع أدنى مقابل تنوع أعلى كما نجد في تصور فيرغيسون للازدواج.

(5) تنسب هذه المقولة لعالم اللسانيات ماكس واينريش(Max Weinreich).

(Fergusson 1959) أن المتكلمين يستخدمون داخل مجموعة لغوية تنوعين أو أكثر للغة واحدة تحت شروط مختلفة. وهكذا يستعملون شكلا (اللهجة) داخل البيت أو مع الأصدقاء، بينما يستخدمون شكلا آخر (اللغة المعيار) في المناسبات العامة والرسمية[6].

وإذا كانت ظاهرة الازدواج ملازمة للّغة العربية، فإن تفسيرها ظلّ إشكالا واجهته الدراسات الاستشراقية الغربية التي اهتمت بتاريخ اللغة العربية. من هذه القضايا تحديد ماهية اللغة المتكلَّمة قبل انتشار الإسلام، أو ما يسميه أوينز (Owens, 2006) عربية ما قبل الشتات (Pre-diasporic Arabic). ومن تلك الإشكالات أيضا تحديد طبيعة العلاقة التي جمعت بين اللغة العربية المعيار أو المسمّاة في الأدبيات الغربية العربية الكلاسيكية (Classical Arabic) من جهة، وبين اللهجات القديمة أو الحديثة من جهة أخرى. والملاحَظ أن الدراسات الغربية محكومة بتصوّر منهجيّ يفترض أن العلاقة بين ما يسمّى العربية الكلاسيكية واللهجات المعاصرة هي علاقة تعارضية. في الوقت الذي يمكن أن تكون فيه العلاقة بين العربية المعيار والعربية المنطوقة قائمة على التعاون والتآزر والتكامل[7].

وقد تبلور هذا التصوّر الذي ينفي وجود صلات بين اللّهجات العربية المعاصرة وبين الفصحى أساسًا داخل الأوساط الأكاديمية المرتبطة بالاستعمار. فانتشرت ادعاءات تقول إن اللغة التي يتكلّمها سكان شمال إفريقيا ليست عربية. وقد قال كولان إن اللهجة المغربية أبعد اللهجات العربية عن اللغة العربية الفصحى. وقد تنبّه كثير من الكُتّاب وتصدوا لمثل هذه الأفكار[8].

---

(6) يتجنب فيرغيسون في مقالته الشهيرة "Diglossia" استخدام مصطلحات لغة (معيار) أو لهجة لِما لها من دلالات تتجاوز المعنى الوصفي. لذلك يستبدل بهما كلمتين أكثر وصفية. فيدل على اللهجة بالتنوع/الشكل الأدنى (Low) واللغة المعيار بالتنوع/الشكل الأعلى (High).

(7) انظر أوينز، 2006، حول هذه القضايا.

(8) كتب العلامة عبد الله كنون في كتابه "التعاشيب" ردا جميلا على ادعاءات كولان، وبين أن الكثير من عامية المغرب أقرب إلى اللسان الفصيح من أي جهة أخرى في العالم العربي. وتفسير ذلك أن المغرب لم يتأثر برياح التتريك التي خضع لها المشرق.

وفي خصوص الوضعية السوسيولسانية للّغة العربية المعاصرة، يمكن القول إنها تفرز سمات أساسية تدلّ على أن افتراض وجود علاقة تعارضية بين الفصحى والعامية تفنّده المعطيات اللسانية القديمة والمعاصرة، وتدحضه الوقائع التاريخية. ويمكن أن نوجز هذه السّمات في النقط الآتية:

1. تمثّل اللغة العربية اليوم متصلا لغويا واحدا تتمفصل داخله ثلاثة مكوّنات لغوية: لغة معيار (فصيحة)، ولغة منطوقة شفوية (أو دارجة). وبينهما لغة وسيطة هي اللغة المستعملة بين المثقفين أو في الإعلام.
2. يوجد تداخل بين هذه المستويات. فالعربية المعاصرة المنطوقة هي مزيج من اللّهجة (أو عربية البيت) والعربية التي يتعلّمها المتعلِّم في المدرسة.
3. على مستوى المعجم، هناك تداخل كبير بين الشكل الفصيح والشكل المنطوق. وقد أثبتت كثير من الأعمال كثرة الفصيح في معجم اللغة المنطوقة.
4. تُظهر الدراسات المقارنة (أعمال الفاسي الفهري وبنمامون وغيرهما) التي اهتمت بدراسة النسق التركيبيّ للّغة العربية، أن العربية المنطوقة والعربية المعيار تمثلان نسقًا واحدًا في خصائصهما العامة من حيث نظام الرتبة والنسق الصّرفي. وترتد الفروق إلى طرق تثبيت قيم بعض السّمات والوسائط.

3. هل الصراع بين الفصحى والعاميات حتمي؟

توقّع أصحاب أطروحة العامية من المستشرقين أن تدخل العربية الفصحى في صراع مع العاميات، وأن ينتهي هذا الصراع بموت العربية واندثارها وانتصار العاميات وحلولها محلها. وهم في ذلك يقيسون ما سيقع للعربية على ما وقع للاتينية عندما نازعتها العاميات وضعها ودخلت معها في

علاقة منافسة وصراع، ثم كانت الغلبة في النهاية للعاميات. وقد التقط دعاة العامية عندنا هذا الادعاء وبنوا عليه أحكامهم حول مصير العربية الفصحى والعاميات. في هذه الفقرة سنسلّط بعض الضوء على هذه المسألة، وسنبين أن قياس وضع العربية على اللاتينية تعارضه الوقائع.

في البداية لا بدّ من تقديم بعض الملاحظات الضرورية نقدمها بين يدي الاستدلال.

أولا، إن طبيعة العلاقة بين اللاتينية والعاميات ليست بالبساطة التي يتصورها البعض. بل هي علاقة مركبة، ولم تكن علاقة صراع وتنافس فقط، بل كانت أيضا علاقة إغناء وتخصيب متبادلين. فرغم أن العاميات بدأت تكتسب وضعها في أوروبا منذ القرن العاشر الميلادي، فإن جدلية التفاعل والصراع ظلت قائمة قرونا طويلة، وحافظت اللاتينية على حضورها ووضعها الاعتباري حتى نهاية القرن التاسع عشر. وهناك اليوم في الأوساط الأكاديمية عودة إلى هذه المسألة لاستكشاف طبيعة العلاقة المعقدة بين اللاتينية والعاميات في الفكر الإنسي الأوروبي منذ القرن الخامس عشر[9].

ثانيا، إن صعود العاميات في أوروبا لم يكن لأسباب تتعلق باللاتينية أو العاميات وضعف الأولى أو قوة الثانية؛ فاللاتينية كانت لغة العلم والآداب الرفيعة والخطابة السياسية، بينما كانت العاميات تحتاج إلى عمل كبير، تأهيلا وتطويرا. بل كان لأسباب سياسية تتصل أساسًا بتشكّل ما يُسمّى القومية اللَّسَنية (*linguistic nationalism*) في أوروبا. فقد بدأت فكرةٌ في التخلق تقول إن تطوير اللغة الوطنية حاجة سياسية ملحة لبناء الدولة الوطنية.

ثالثا، ارتبطت الحاجة إلى اللّهجات في أوروبا بتطور الحركة الإنسية الأولى *(Humanism)* في أوروبا منذ القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وقد لعب

(9) انظر أَرلند ورامينغر 2010، والأبحاث هناك.

الدورَ الحاسم في هذا المجال عاملان أساسان. أحدهما ظهور فكرة الدولة–الأمة التي تقوم على شعار "*لغة واحدة لأمة واحدة*". فكان للّغة دور كبير في نشوء فكرة الأمة وقيام كثير من الدول في أوروبا (إيطاليا، فرنسا، وألمانيا). والآخر تطور الحركة البروتستانتية التي تبنّت الإصلاح الدينيّ وقادت ثورة ضدّ الكنيسة. وكان من بين ما دعت إليه وقامت به ترجمة الكتاب المقدّس إلى اللهجات الأوروبية (الفرنسية والألمانية والإنجليزية وغيرها) بعد أن كان التعبد الدينيّ باللاتينية حصرًا. ولا نغفل هنا عن التذكير بالدور الحيوي الذي لعبته الطباعة في هذا الباب.

رابعا، لم تكتسب اللهجات الأوروبية وضعها كوريثة لعرش اللاتينية إلا بعد مسيرة طويلة من التأهيل والتطوير؛ وظهرت فيها النصوص التأسيسية للآداب الأوروبية. فكتب دانتي (Dante) الكوميديا الإلهية، وكتب بها هيردر (Herder) وشكسبير بعد ذلك. ولعل ما قوَّى ظهرها كتابة نصوص علمية بها، إذ نشر إسحق نيوتن كتابه في البصريات (Optiks) بالإنجليزية، بعد أن ظهر كتابه (Principia) باللاتينية.

خامسا، لم تتحول الحركة الإنسية إلى العناية باللهجات العامية إلا بعد فشل جهود بعث اللاتينية وإحيائها. وهذا يفسِّر كون رواد الإنسية الأوروبية (بيوندي، بروني، دانتي، فالا وغيرهم) جعلوا من اللاتينية نموذجهم لتطوير لهجة التوسكاني (*Tuscani*). وقد حدّد الشاعر وحاكم فلورانسا لورينزو دي ميديسي (Lorenzo Di Medici) أربعة شروط لترتفع اللّهجة إلى مرتبة الكمال والشرف: غنى المعجم، وعذوبة اللفظ والانسجام، واستعمال كُتَّاب كبار للّغة لمقاربة قضايا عظيمة، وأخيرا أن تحظى اللغة بالتقدير والانتشار[10].

انطلاقا من الملاحظات السابقة، نحاول أن نتصدّى لمسألة قياس وضع العربية وواقعها على وضع اللاتينية. إن الازدواج بين العربية الفصحى أو المعيار

(10) انظر ألان باتن 2005 للتفاصيل.

ولهجاتها لم يكن قائما على التنافس أو الصراع. وسبب ذلك أن الشروط الموضوعية التي أملت تعاظم دور العاميات في التاريخ الأوروبي، كما بينا آنفا، لم تكن موجودة في تاريخ اللّغة العربية. لقد كانت اللّهجات، أو اللّغات بتعبير القدماء، روافد تُغني العربية المعيار وأساس عملية المعيرة التي تمت بالنسبة للعربية، معجما ونحوا. إن الذي رفع العربية وساهم في عملية المعيرة (standardization) ليس الحاجة السياسية التي يمليها بناء الدولة كما حدث في أوروبا، بل وجود نصوص تأسيسية وحّدت السجلات اللغوية المختلفة، وأعطتنا لغة معيارا هي التي نصطلح عليها باسم اللغة العربية المعيار أو الفصحى. وعلى رأس هذه النصوص: القرآن الكريم والشعر، اللذيْن كانا أساس بناء المدونة اللغوية العربية. إن المعيرة اللغوية لم تكن لأسباب سياسية كما حدث عند الأوروبيين، بل كانت لدواع علمية ارتبطت بحركة التدوين والترجمة ونشأة العلوم الإسلامية، كما يقرر ذلك مؤرخو الفكر الإسلامي. علاوة على ذلك، لم تجد الأمم غير العربية غضاضة في احتضان العربية وخدمتها. وليس غريبا أن أكثر من خَدَم العربية وبَرَع فيها – سيبويه وأبو علي الفارسي وابن جني وغيرهم كثير– لم يكونوا عربًا عِرقًا، ولكنهم كانوا عربًا لسانًا. وفي المغرب، ضرب الأمازيغ مثلا رائعًا في احتضان اللغة العربية واتخذوها – طوعًا – لسانهم، غيرَ مضارِّين ولا مكرَهين.

وفي العصر الحديث، لم نجد حركة قوميّة أو سياسيّة في العالم العربي[11] واحدة قامت على التنكر للعربيّة أو اتخاذ العاميّة أساسًا لغويًا لها. والتفسير واضح، إن الدعوة إلى العاميّة كانت مطلبًا استعماريًا. فليس غريبًا أن أول مطلب داخل الحركة الوطنية التحرريّة في الوطن العربيّ كان الدفاع عن اللّغة الوطنية والتمكين لها والتصدي لدعوات الاجتثاث التي تبناها دعاة التغريب ووِلدانه. فنشأت حركة تعريب واسعة – عرَتها عيوب واعترضتها صعوبات – تدلّ على وعي بأن التجذر الهُوي للأمة لا يكون إلا باللغة الوطنية وداخلها.

(11) طبعا نستثني من هذا القول الحركات القومية غير العربية، الكردية والمازيغية، التي قامت على عناصر مختلفة ضمنها اللغة والثقافة. لكن ذلك لا يتعارض مع القول إنه حتى داخل هذه الحركات، يبقى التوجه العام إجمالا عدم التعارض مع العربية.

4. اللغة والإيديولوجيا

تشير الدراسات في مجال لسانيات علم الإنسان (الأنثربولوجية) و(إثنوغرافيا الكلام) (ethnography of speaking) أن وعي الأفراد بلغاتهم ودورها في تثبيت الهوية الفردية والجماعية وصياغة الوجود الإنسانيّ للمجموعات الإنسانية، يلعب دورًا حاسمًا في استمرار تلك اللّغات وترسيخها. وقد تبلور في إطار هذه الدراسات مفهوم **إيديولوجية اللغة** (Language ideology)، وهو يرتبط بالتصوّرات الثقافية في علاقتها بالبنيات الاجتماعية. تمثل الإيديولوجيّة اللغويّة نوعًا من الربط بين أشكال الكلام وتلك البنيات. وتمكِّن تلك الإيديولوجيات من ربط اللّغة بهويات الأفراد والجماعات، بل إنها تعكس نوعًا من الرؤية الجماليّة والأخلاقيّة. ويورد وولارد وشيفلين (Schieffelin and Woolard 1994) مجموعة من التعريفات للإيديولوجيّة اللغويّة تلتقي عند اعتبارها "مجموعة من المعتقدات حول اللغة تصدر عن مستعمليها كعقلنة أو تبرير لبنية اللغة أو استخدامها"، أو مجموعة من "الأفكار والأهداف التي تعتنقها جماعة ما حول الأدوار التي تؤديها اللّغة في الخبرات الاجتماعيّة للأفراد". وقد يحيل هذا المفهوم على "النسق الثقافي للأفكار المتصل بالعلائق اللّغوية والاجتماعية ذات الحمولات الأخلاقيّة والسياسيّة"[12].

على هذا الأساس لا يمكن فصل الأفكار المتداولة في المجتمع حول اللّغة وأدوارها عن صراع المصالح السياسيّة، والتصوّرات التي يحملها المتكلّمون حول لغتهم. ومما نستغربه أننا لا نملك دراسات تعتني باستقصاء هذه العلاقة بين اللّغة والتصوّرات الاجتماعيّة – الثقافيّة. لكن بعض المؤشرات تصلح لإرشادنا إلى طبيعة هذه التصوّرات. إننا نلاحظ اهتمامًا متزايدًا باللّغة الوطنية، بالرغم من المنافسة الشرسة والتضييق عليها. والواضح أن التزايد المطرد لنسب الاستماع إلى الإذاعات الوطنية، كما بيّنت ذلك قياسات معتمدة، أو ارتفاع نسبة

(12) وولارد وشيفلين 1994، ص 57.

قراءة الصحف المغربية بالعربية أو تصفح المواقع الإلكترونية العربية، تدلّ على توجّه عام يعيد الاعتبار للّغة الوطنيّة الرسميّة رغم كل ما يُشاع. ومما تَقَرُّ به الأعين أن هذا الوعي باللغة الوطنية يتنامى باطراد. من ذلك استخدام ملصقات على زجاج سيارات الأجرة كُتبت بلغة عربية فصيحة من قبيل: "رجاء، أغلق الباب بلطف". إن هذه العبارة ليست فقط تقنية جديدة للتواصل والتفاعل الاجتماعيّ، بل تعكس نوعًا من المعتقدات الثقافية حول اللّغة وعلاقتها بالهوية تنتشر بين شرائح واسعة من المجتمع المغربي. وهي َردّ واضح على المرجفين الذين يرددون أن المغاربة يتكلمون لغة لا علاقة بينها وبين الفصيحة، الغريبة في زعمهم. إن هذه المعتقدات والممارسات اللغويّة ينبغي أن تتحوّل إلى سياسة لغويّة واعية وواضحة تُعيد الاعتبار للغة المغاربة الأولى، وتتناغم مع توجهاتهم وتصوراتهم.

5. اللّغة والهوية: جدل التَّعدد والانفتاح

تُقرِّر الدِّراسات في مجالات اللِّسانيات وعلم الإنسان (الأنثربولوجيا) وعلم الشعوب (الإثنوغرافيا) وجود علاقة وثيقة بين اللغة والهوية (Identity). فاللّغة أقوى مظاهر التعبير عن هوية الأفراد والجماعات، واللّغة لا يمكن أن تحيا خارج جماعة لغوية تتكلمها وتحميها. ومعلوم أن لغات كثيرة حول العالم باتت مهدّدة بالانقراض كلية لأنه لم يَعُد يوجد من يتكلّم بها. فرياح الكوكبة تتهدّد كثيرًا من اللّغات، وتفرض التكتل والتوحُّد في مجالات الوجود الرمزي كما فرضته في مجالات الاقتصاد والسياسة.

وقد عرفت السَّاحة المغربية في الفترة الماضية نقاشًا واسعًا حول المسألة اللغوية وعلاقتها بقضايا أعمق حول الهوية والدسترة اللغويّة أو هوية الإعلام العمومي. وكانت اللّغة في قلب هذا النقاش. وعادت مسألة اللغة لتتبوأ صدارة هذا النقاش. فسجلنا تداول كثير من المفاهيم والمقولات التي يُراد بها التشويش على العربية واستبعادها. ومن جملة ما تردد ضرورة إعادة الاعتبار للّغة الوطنية

و"لغة المغاربة"، ويقصدون طبعا الدارجة المغربية باعتبارها اللغة الأكثر تجسيدًا للهوية المغربية المتميزة. ويقوم هذا الخطاب على أغاليط بيَّنا زيفها في الفقرات السابقة.

إن مثل هذه الادعاءات تقوم على تصور انشطاري (تفتيتي) للهوية، يقوم على فرز ذوات هوياتية "إثنية" غير موجودة في الواقع. فالهوية المغربية – كما صهرتها قرون طويلة من التعايش والتفاعل والتداخل الإثني واللغوي والديني– هوية *مركبة مزيجة*. وقد لعبت عوامل حاسمة كثيرة دورها في تشكيل هذه الهوية، أهمها الدين الإسلاميّ واللّغة العربيّة. لقد ارتضى المغاربة اللغة العربية – طواعية – كما ارتضوا الإسلام. ولم ينشأ بين هذه المكونات أي تعارض إلا عندما اختلق الاستعمار البغيض فرقة إثنية ولغوية بين المغاربة، واصطنع لها الأدوات والخُدَّام. وبعد أن عجز عن تحقيق مراميه، تُوشك أن تُثمر، عقودًا بعد رحيله.

وتنتهز بعض الكائنات الطفيلية الفرصة لتحقيق مآربها، وتتصيّد لها كلّ سانحة. وترفع لها شعارات التعدد والانفتاح والهوية. وهي كلها مقولات تقوم على مصادرة مسبقة هي أن اللغة العربية (الفصحى) لا تعبر عن الهوية، وتقوم على التوحيد القسري القاهر. ولا يُفسّر لنا أصحاب هذا التصوّر كيف استطاعت اللغة العربية أن تحقق اختراقات مجيدة في مجال التواصل الكوني. إن اللغة العربية ليست فقط لغة تحمي الهوية في زمن الكوكبة الجارفة، بل إنها بدأت تنخرط في هذا السباق. ويتوقع كثير من الخبراء أن تكون العربية إحدى لغات الكوكب التي ستقاوم الإمحاء. وكيف لا تكون العربية لغة انفتاح وهي التي يعتمدها الغرب والشرق ليعبر إلينا بثقافته. فكأنها تستعيد سحرَها القديم!.

6. اللّغة ورهانات التحرُّر والديموقراطية.

تصدح اليوم حناجر الشباب –الذين خبروا أحدث وسائل التواصل الاجتماعي على "الفيسبوك" و"التويتر"– بمطالب الحرية والكرامة وإسقاط الاستبداد. وللذين يتهمون العربية بالجمود والموت نقول: أليس عجيبا أن لا

يجد شباب الشابكة (الإنترنت) – عنوان الحداثة والتعدد والانفتاح– غيرَ كلمات قالها شاب – فتَّ السقم في كبده – في عشرينات القرن الماضي، فتصيرَ كلماتٍ تُسقط أصنامًا وتُزلزل عروشًا؟

لقد استعادت اللّغة العربية دورها في تجسيد مطلب التحرُّر عند الشعوب العربية من المحيط إلى الخليج. ورغم أن الشعارات المرفوعة في الساحات والميادين تتعدد، لكن الانطباع الذي يخرج به المراقب البعيد هو أن أكثر الكلمات والعبارات تأثيرًا عربية صميمة. وصارت عبارات مثل: اِرحل، يسقط الاستبداد، الشعب يريد، من أجل هذا هرمنا، إلخ. كالأيقونات التي تفعل فعل السحر. ومن يستطيع بعد اليوم أن يقول إن العربية ليست لغة الوجدان أو الهوية؟ وبعد أن كانت الشعوب العربية تابعة، إذا هي اليوم تقود إرادة التحرر وتكسير الأصنام.

إن معركة الشعوب اليوم هي أن تربح رهان التحرُّر والديموقراطية. وأحد مطالبها أن تكون لها حرية اختيار لغتها، وقد فعلت. أفبعد ذلك يأتي من يمارس عليها الحِجر اللغويّ ويفرض عليها خياراتٍ لا ترتضيها؟ إن الديموقراطية اللغوية مطلب حيوي. ومن مظاهرها البسيطة أن لا تفرض على الشعب لغة واحدة –وهي المهزومة المهددة في كيانها– لتكون عنوان الانفتاح. ولم يعد سائغا أن تفرض عليه سياسات لغوية غير ديموقراطية. إن الشعب يريد تعليمًا بلغته، وإعلامًا بلغته، ويريد بيئة لغوية سليمة لا تلوثها الكائنات اللغوية الغريبة.

7. إضاعة اللغة تسليم للذات[13]

منذ عقود طويلة، دخلت اللّغة العربية معركة الوجود والتجديد. لقد نفضت عنها غبار السنين، واستطاعت ربح جزء من رهانات التطوير. ولم يَنلْ

(13) هذه العبارة عنوان لمقالة شهيرة كتبها عبد الله النديم، في مجلة "التنكيت والتبكيت"، دفاعا عن العربية. وهي تدل بوضوح على وعي مبكر بالعمق الهُوِي للمسألة اللغوية، وأن الصراع مع المستعمر هو في عمقه صراع على الوجود والهوية والتاريخ والموقع الحضاري.

من وهجها سَعي الكائدين لها لإضعافها. فخلقوا لها أعداء وضَرَّات، وأثاروا من حولها نقع معارك خاسرة. ولم تخرج منها إلا بمزيد من الإصرار والعنفوان. ولم تعد فرية العقم-التي اشتكى منها حافظ إبراهيم- توجِع، بعد أن ثبتت قدراتها على التوليد والابتكار والخلق. لقد أثبتت اللغة العربية أنها لم تزل لغة الوجدان والفكر، ولغة العلم والإبداع الإنسانيّ. وأنها فوق ذلك كله لغة مُحررة جامعة موحِّدة، تصهر كل من ينطق بها في كيان حضاري كلي.

إن اقتحام اللّغة العربية مجالات التواصل الكوكبي السريع أثبت مقدرتها العظيمة على التطور وفاعليتها في التأثير. لكن معركة التأهيل والتجديد وتطوير الأدوات -حتى تتمكن لغةً للعلم والتعليم والحياة- ما تزال دائرة. وربحها رهن -بالتأكيد- بإرادة شعوبها والقادة والمفكرين والعلماء من أبنائها. وما أكثرهم!

لقد أظهر كل هذا التاريخ القريب أن معركة اللّغة هي معركة الأمّة كلّها. فاللّغة توجد في قلب رهانات التحرّر والديموقراطية والهوية، وبعبارة، معركة الوجود الحضاريّ كلية. هذا الوعي بالوشائج الوثيقة بين اللغة – بما هي رأسمال رمزي- والهوية ليس جديدا. بل إنه متأصل عند المفكرين من عصر الإصلاح والنهضة إلى اليوم. فقد أدركوا أن ربح معركة اللّغة مقدمة ضرورية لربح معركة التحرّر والتقدم والتحديث. ووعوا أن إضاعة اللّغة تسليم للذات.

المراجع

مراجع عربية :

1 – التازي، عبد الهادي. 2006، **بين الفصحى والعامية بالمغرب**، اللهجات العربية الفصحى والعامية. مجمع اللغة العربية، القاهرة.

2 – الحلوي، محمد، 1988، **معجم الفصيح في العامية المغربية**، شركة النشر والتوزيع المدارس.

3 – سعيد، نفوسة زكريا، 1966، **عبد الله النديم بين الفصحى والعامية**، الدار القومية.

4 – فاسي فهري، عبد القادر، 1998، **المقارنة والتخطيط في البحث اللساني العربي**، دار توبقال للنشر.

5 – فاسي فهري، عبد القادر، 2012، **التحرر اللساني**، جريدة المساء، ع 1742 وع 1743.

6 – كنون، عبد الله، 1975، **التعاشيب**، دار الكتاب اللبناني.

7 – وحيدي، محمد، 2011، **أساسيات الخطاب اللساني عند عبد القادر الفاسي الفهري**، اللسان العربي، مجلة اللسان العربي، ع 68، ص 158-165.

مراجع أجنبية

1 - Arlund Hass,T. and Ramminger,J. (2010) *Eds. Latin and the Vernaculars in Early Modern Europe, Renæssanceforum 6*, www.renæssanceforum.dk

2 - Fergusson, C.A. 1959a, Diaglossia, *Word*, vol.15, pp. 325-340.

3 - Fergusson, C.A.1959b, The Arabic Koine, republished in *Structuralist Studies in Arabic Linguistics: Charles Fergusson's Papers*, 1997 Brill-Leiden.

4 - Owens, J. 2001. Arabic Sociolinguistics. *Arabica*, tome: XLVIII, pp: 419-469.

5 - Owens, J. 2006. *A Linguistic History of the Arabic Language*. Oxford: Oxford University Press.

6 - Patten, A. 2005. The humanist roots of linguistic nationalism. Ms.

7 - Rammingger,J. 2010. humanists and the vernacular, in Arlund Hass,T. and Ramminger,J. 2010. (Eds.) pp: 1-22.

8 - Stadlbauer**,** S. (2010) language Ideologies in the Arabic Diglossia of Egypt, Colorado Research in Linguistics. June 2010. Vol. 22. Boulder: University of Colorado. p 1-19.

9 - Spolsky, B. 2004. *Language Policy*, Cambride University Press.

10 - Woolard,K.A and Schieffelin, B.B 1994 Language Ideology .*Annual Reviews in Anthropology* 23:55-82.

اللغة العربية في الهند: فن وابتكار

د. رحمة بنت أحمد الحاج عثمان(*)
أ. باصرون عبد الله

الملخص

يتفرد الأدب العربيّ عن غيره من الآداب في اللغات الأخرى بعدة خصائص، فعالمية اللّغة العربية، وتنوّع خلفيات الأدباء والباحثين المهتمين بالأدب العربيّ واحدة من أبرز خصائص الأدب العربيّ. يجد المتتبع لتاريخ الأدب العربيّ وحقيقته أن بصمات غير العرب تركت صبغةً قوية على اللغة العربية، أدباً وفنًا. وهذا بمجمله ليوحي بسر كبير تنطوي عليه اللغة العربية في طبيعة تكوينها؛ يتعدى التبني الديني لها. ويقف المتتبع لحركة تطور الأدب العربيّ على أن من أهم حقول الأدب العربيّ المعاصر ما عُرف بـــ: "أدب المهجر". هذا، وإن الأدب العربيّ الناتج عن أدباء وكُتّاب غير عرب، ليستحق التنبه له ولفت النظر إليه من هذا الباب. فلئن تميز أدب المهجر بإبراز جمال الأدب العربيّ ووجوهه من أدباء عرب مهاجرين، فإن الأدب العربيّ الناتج عن أدباء غير العرب، امتاز بإبراز جملة من خصائصه ووجوه فنونه. لذا؛ يسعى هذا

(*) قسم اللغة العربية وآدابها، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية – ماليزيا.

البحث إلى إلقاء الضوء على الأدب العربيّ خارج أرضه وكُتّابه، وعلاقة اللغة العربية بالهند، وما تفرّد به الأدب العربيّ من خصائص. وعليه؛ فقد تمّ تقسيم البحث إلى أربعة فصول رئيسة، وهي: "الهند واللغة العربية" في الفصل الأول. وتناول الفصل الثاني: "النثر الفني في الهند"، كما درس الفصل الثالث: "الشعر والشعراء في الهند"، وكان الفصل الأخير عن: "خصائص الأدب العربي وسماته في الهند". ووقف الباحثان على نتائج عديدة، وجملة من التوصيات؛ فمن أهم نتائج البحث: عالمية الأدب العربيّ الفريدة من نوعها. وتفنن أهل الهند في الابتكار والإضافة في الأدب العربيّ، وولع أهل الهند باللغة العربية وآدابها. إمكانية إضافة خصائص ومميزات على الأدب العربيّ التقليديّ. ومن أهم توصيات البحث مواصلة الدراسة في بيان الكثير من جزئيات البحث، بذل الجهود من أجل خلق فن أدبيّ جديد يسعى إلى إبراز جهود غير العرب في خدمة الأدب العربيّ.

المقدمة

لقد أصبح مصطلح "أدب المهجر" معروفًا لدى المتعلمين من الناس؛ إذ يطلق على نتاج هؤلاء الأدباء الذين رحلوا من سوريا ولبنان إلى الأمريكيتين، حيث يمتاز أدبهم بالأسلوب والعاطفة والأفكار، التي تستحق أن تكون منهجًا في هذه الدراسة الأدبية.

وكما كانت هناك هجرة إلى الغرب، فقد كانت هناك هجرة إلى الشرق، وهنا ينوّه الباحثان إلى سبب اختيارهما لموضوع "أدب المهجر الشرقي" خاصة، ذلك أن الدكتور محمد بن عبد الرحمن الربيع، أثار هذا الموضوع بطرحه لبعض الأسئلة، فكانت الأسئلة الأكثر ارتباطا بهذه الدراسة ما يلي:

1 – هل اتجه كل المهاجرين العرب إلى الأمريكيتين؟

2 – ألم تتجه طائفة أخرى إلى مهاجر أخرى؟

3 – لماذا يقصر اصطلاح "الأدب المهجري" على تلك الفئة وذلك المكان؟[1].

استجابة لهذه الأسئلة المثارة، عزم الباحثان أمرهما على مواجهة ذلك التحدي، والسعي الحثيث وراء البحث عن إجابة لتلك الأسئلة التي تستحق أن تكون موضع دراسة علمية مُنصِفة لأدباء المهجر الذين هاجروا إلى بعض المناطق الآسيوية، وقد كانت الهند مركزا رئيسا لهذه الدراسة؛ متكئين في ذلك على إيجاز تصنيف الهند بعدّها "مهجرا اتجه إليه بعض الأدباء العرب" كما اتجهوا إلى الأمريكيتين، حيث إنّ اللغة العربية في كلا البلدين –أمريكا والهند– لم تكن لغة التخاطب الرسمية بين أفراد مجتمعيهما.

يشكو هذا البحث من قلّة المصادر والمراجع المتعلقة بموضوعه؛ إذ لم تتوفر لدينا كتب ذات علاقة بما أنتجته الهند من الأدب العربيّ، مع اعتقادنا القوي بوجود مثل هذا الأدب هناك، لذا يرى الباحثان ضرورة تسجيل كل ما قيل في الأدب العربيّ في الهند معتمدين في ذلك كله على الملاحظة، واستنباط بعض الخصائص والسّمات من ذلك الأدب، وتسجيل ما يشكّل ميزة ظاهرة وعلامة فارقة في طبيعة هذا الأدب المهجري العربي في الهند، فقد اعتمد الباحثان في دراستهما هذه على منهجي الوصف والتحليل في الموضوع المتناول، وإن كان أكثره وصفا وجمعا ليفتح السُبل أمام الباحثَين، ويشقا طريقهما نحو الإلمام بالقضايا المتعلقة بأنواع أدب المهجر في مناطق آسيوية أخرى، والاهتمام بها بعدّها مواضيع دراسة مقبلة بإذن الله.

وعليه، فقد قُسِّم البحث إلى أربعة فصول رئيسة، هي:

الفصل الأول: "الهند واللغة العربية"، الفصل الثاني: "النثر الفني في الهند"، الفصل الثالث: "الشعر والشعراء في الهند"، وأخيرا: "خصائص الأدب العربي وسماته في الهند".

(1) www.maktoobblog.com

الهند واللغة العربية

أصبح الناس على يقين تام بأن اللغة العربية تنتشر بانتشار الإسلام، وإن كان هذا الانتشار متفاوتًا من بيئة إلى أخرى أو من بلد إلى آخر، فدخول الناس في الإسلام يدعوهم إلى تعلم العربية لتلاوة القرآن والاطلاع على سُنة رسولنا الكريم.

وإذا ما عُدنا إلى البيئة الهندية وطبيعتها، ستتبادر إلى أذهاننا مجموعة من الأسئلة التي تحتاج إلى إجابة علمية مدروسة نقطع فيها الشك باليقين، ومن ذلك تساؤلنا عن حال اللغة العربية، وشأنها بين اللغات الأخرى في البيئة الهندية، وهل كان انتشار الإسلام في هذه البيئات سببًا في انتشار اللغة العربية في أوساطها؟ وإذا كان ذلك كذلك، ففي أي زمن دخل الإسلام إلى ربوعها وما أثره فيها؟.

في عام "771هـ"، حدث أمرٌ يؤذن بحضور الإسلام إلى تخوم بلاد الهند؛ إذ أرسل الحجاج في هذه السنة حملة بقيادة محمد بن قاسم إلى السند عن طريق البحر، ففتح المسلمون إقليم السند، ثم ساروا شمالا إلى مدينة ملتان واستولوا عليها، ولكنهم لم يتقدموا أكثر من ذلك[2]، وشهدت الهند فتوحات متتابعة وغزوات مستمرة على بقاعها المتبقية، فحكمت هناك دول إسلامية غير عربية كثيرة، منها الدولة الغزنوية والغورية والخلجية والمغولية، فأخضعت سائر بلاد شبه القارة الهندية وحكومتها للإسلام حتى سنة 1857/1274 عندما نفى الإنجليز الإمبراطور.

ما يعنينا في ذلك السرد التاريخيّ نشوء اللغة العربية وانتشارها في الأراضي الهندية، فقد عُرِفَ مسلمو الهند قديمًا وحديثًا بالغيرة على الإسلام، والتعصب

(2) أبو الليل، محمد مرسي، 1965م، **الهند: تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها**، دار الاتحاد العربي للطباعة، د. ط، ص 115.

للعلوم الإسلامية العربية، ولم يزل شعارهم منذ عهدهم الأول العناية الكاملة باللّغة العربية، والتعصّب لها، وقد حافظوا عليها واستمروا باستعمالها لغة تأليف وتعليم، وبرز في تلك البيئة شعراء مفلقون[3].

وهذا يوحي لنا بأن اللّغة العربية لم تكن في يوم من الأيام لغة التخاطب على مستوى الشعب في الهند، ولكن علاقة أهلها بالعربية – كانت ولا تزال إلى يومنا هذا– علاقة حرص دائم، هدفها خدمة القرآن الكريم، والسنة الشريفة اللذين سُطِّرا بالحروف العربية.

قام أهل الهند بتأليف كتب بالعربية تتميز بمستوى عالٍ من الأناقة اللغوية والروعة الأدبية، وصبّوا اهتمامهم على علوم القرآن والسنة، وكل ما يتعلق بعلوم اللّغة العربية وآدابها، حيث استمرت عنايتهم بالأدب العربيّ على امتداد تاريخ الهند بعد بدء الفتوحات الإسلامية، فلم تكن عنايتهم تقليدية محضة، بل عناية متميزة بابتكار وسائل جديدة[4] تضمن لهم الحفاظ على اللغة العربية ونشرها، بإصدار مسلمي الهند صحفًا ومجلات عربية، نذكر منها:

مجلة "البيان" الشهرية التي تصدر من لكهنؤ، وصحيفة "الجامعة" الأسبوعية التي كانت تصدر من "كلكتا"، ومجلة "الضياء" الشهرية التي كانت تصدر عن ندوة العلماء في كهنؤ، ومجلة "البعث الإسلامي" التي كانت تصدر عن ندوة العلماء، وصحيفة "الرائد" الندوية الأسبوعية"، وجريدة "الكفاح" التي تصدرها جمعية علماء الهند من دهلي، وجريدة "الدعوة" التي تصدرها الجماعة الإسلامية، و"صوت الجامعة" التي تصدرها الجامعة السلفية ببناس، و"دعوة الحق" التي كانت تصدر عن دار العلوم بديوبند[5].

---

(3) الندوي، أبو الحسن علي الحسني، 1407هـ–1987م، **المسلمون في الهند**، الهند: المجمع الإسلامي العلمي، ط 3، ص 45.

(4) الندوي، أبو الحسن علي الحسني، 1408هـ – 1988م، **نظرات في الأدب**، دمشق: دار القلم، ط 1، ص 69، 70.

(5) الندوي، أبو الحسن علي الحسني، **المسلمون في الهند**، ص 46، 47.

لقد كانت هناك محاولة حثيثة من ندوة العلماء الأدبية[6] للارتقاء بشأن اللغة العربية وآدابها، وذلك بالدعوة إلى ضرورة استعراض المكتبة العربية من جديد، وغربلتها ونخلها وإثارة دفائنها وكنوزها، وإبراز محاسنها وبدائعها، والحث على ابتكار مناهج جديدة لتعليم الدين واللّغة العربية وآدابها في آن واحد؛ بيد أن هذه النشاطات العربية لم تلق انتشارًا خارج حدودها إلا قليلا، وكان ظهورها – فقط – على صعيد تلك الدول التي سادت فيها اللغة العربية بعدّها لغة ذات سلطة على شعبها فهم ينطقون بها.

جهل المسلمون العرب ثقافة إخوانهم في الهند فلم يدركوا مكانتهم وشأنهم. وفي العهد القريب، اطّلع بعض الباحثين العرب على التراث الهنديّ العربيّ الإسلاميّ، فأصابتهم الدهشة مما شهدته الهند من حركات علمية عربية في مختلف الميادين، وتزداد معرفة الناس بالهند -يوما بعد يوم-؛ إذ أثبتت الهندُ جدارتها في تخصصات عدة، وقد عزا عبد الباسط بدر شهرة الهند إلى ظهور محمد إقبال، حيث قال: "فلولا شهرة محمد إقبال العالمية التي فرضت نفسها على آداب كثيرة لما عرفنا شيئًا عن أدب الشعب المسلم في شبه القارة الهندية"[7].

افتخر العرب بالنتاجات الأدبية والدينية الغزيرة التي ابتدعها المهاجرون العرب من الشام وغيرها إلى الأمريكيتين، فهويتهم العربية ظلت ماثلة أمام أعينهم، محافظين عليها غير متهاونين فيها، تملؤهم العاطفة بحب تراثهم العربيّ أو الإسلاميّ.

وتقديرًا لجهودهم الفذّة، أصبحت المناهج الدراسية في البلدان العربية – من المرحلة الابتدائية إلى المرحلة الجامعية- متضمنةً نتاجاتهم الرفيعة، اعتزازًا بهم وتبجيلا لهم، لما قدموه من إفادة علمية وأدبية تستحق النظر إليها بعين الاعتبار والتقدير.

(6) الندوي، أبو الحسن علي الحسني، **نظرات في الأدب**، دمشق: دار القلم، ط 1.
(7) ينظر: تقديم عبد الباسط بدر لـ الندوي، **نظرات في الأدب**، ص 17.

وبعد، فلا ضير من إطلاق مصطلح "أدب المهجر الشرقي" على الأدب العربي في الهند، فقد تميز هذا الأدب بخصائص تؤهله لأن يكون بذات الدرجة العالية التي جاء عليها "أدب المهجر في الأمريكيتين، الشمالية والجنوبية"، فآثاره الأدبية والدينية واضحة المعالم للعامة من المتعلمين القادرين على التفريق بين جيد الأدب ورديئه.

مستشهدين، فيما أسلفنا، بأبي الحسن الندوي – رحمه الله – حينما قال: "وتدل الآثار والقرائن على تكوّن مدرسة أدبية خاصة فيها، في الأدب العربيّ والكتابة الإسلامية، تجمع بين البراعة الأدبية والإشراق الروحي، والإيمان العميق، والدعوة الصريحة القوية"[8].

لذلك كان الدافع الرئيس للباحثين في دراسة مثل هذا النوع من الأدب – شعره ونثره – المساهمة في تحطيم ظاهرة الاتكاء على الغير، وظاهرة الاعتماد الكلي على ما يستخلصه المستشرقون من دراستهم للأدب العربيّ، فما لنا لا نتذوق طعم إنجازات إخواننا المسلمين في الهند – من التراث العلمي الضخم – مباشرة دون تلاعب أو تحريف، محاولين في ذلك ترجمتها إلى أرض الواقع، عازمين الأمر على نشرها وفاءً لهم واعترافًا بجميلهم وإخلاصًا لهم على إخلاصهم، لما قدموه لنا من إفادة يحمدون عليها، وهذا ما أكده أبو الحسن الندوي عندما قال: "إن من الجفاء أن تبقى هذه البلاد الغنية برجالها وأعمالها وماضيها وحاضرها مجهولة عند أصدقائها في الخارج، مطمورة في صفحات التاريخ"[9].

النثر الفني في الهند

وجد الباحثان تنوّعًا كبيرًا في أنواع النثر الفني، فمن تلك الأنواع:

(8) الندوي، أبو الحسن علي الحسني، **المسلمون في الهند**، ص 62، 63.
(9) المرجع السابق، ص 8.

فن الخطابة، والمنتخبات الأدبية، وأدب الرسائل، والصنعة الأدبية، وشرح بعض القصائد، وأدب القصة، وكلام النثر المرسل من الكُتّاب المبدعين.

الخطابة

تعد الخطابة أثرًا من آثار الرقي الإنساني ومظهرًا من مظاهر التقدم الاجتماعيّ، ولهذا عُنِيَت بها جميع الشعوب، في كل العصور القديمة والحديثة، واتخذتها أداةً لتوجيه الجماعات، وإصلاح المجتمعات، فقد حبت يد الأقدار مسلمي الهند موهبة إتقان الخطابة والتألّق في اختيار أسلوبها اللافت للنظر، وما سنقدمه من نماذج دليل واضح على ذلك، فنذكر منها:

أولا: خطبة محمد بن أحمد بن علي البخاري الملقب بسلطان المشايخ ونظام الدين أولياء (1324/725)، ويذكر الباحثان إحدى خطبه المشهورة[10]:

"الحمد لله الذي قصرت عن رؤيته أبصار الناظرين، وعجزت عن نعته أوهام الواصلين، ابتدع بقدرته الخلق ابتداعًا، واخترعهم على مشيئته اختراعًا، وأنطق لسان الذاكرين بذكر لا إله إلا الله، وأودع مفاتيح الأنوار في صدور العالمين لا يعلمها إلا الله، وروح المشتاقين بروح اشتياق في مشاهدة جمال الله، وأهرق دم المحبين بسيف الجلال في بيداء وصاله، وأحرق قلب العاشقين بنار العشق في ابتغاء لقاء الله، وخلق الجنة والنار للمؤمنين والكفار ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، فلو كانت الجنة نصيب العارفين بدون جماله ووصاله فوا ويلاه، ولو كانت النار نصيب المشتاقين مع جماله ووصاله فوا شوقاه".

إن الخطيب الحق هو الذي يأسر سامعَه بسلامة لغته، وعلوِّ بيانه، وجمالِ أدائه، وتناغم صوته مع مضمون كلامه، يعلو فيه ويجهر في مواضع الإنذار والوعيد، ويلين في مواضع اللين والتبشير حتى يمتزج بأجزاء النفس لطافةً،

(10) المرجع السابق، ص 222.

وبالنغم إيقاعًا وجرسًا، فهذا الجزء البسيط من الخطبة استهوانا لإكمال فحواها واستيعاب أفكارها، جاذبًا عقولنا نحو مضمونها الرائع.

ثانيا: خطبة الشاه ولي الله، ومن أحسن خطبه، تلك التي بدأها بقوله[11]:

"الحمد لله الذي خلق الإنسان وقد أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا".

ثالثا: خطب عبد الحي

وله كتاب مسمى بـ: "اللطائف المستحسنة بجمع خطب شهور السنة"، وهو عبارة عن مجموعة من الخطب التي تشبه في أسلوبها وأناقة تأليفها ما جاء عليه كتاب "أطواق الذهب" للزمخشري، و"أطباق الذهب" لشرف الدين[12].

المنتخبات الأدبية

أولا: نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن[13]/ جمعه أحمد بن محمد اليمني (1840/1256)

يُعدّ هذا الكتاب متنًا مفيدًا في دراسة الأدب العربيّ، وقسّم المؤلف كتابه خمسة فصول: فقد خصص الفصل الأول: للقصص القصيرة والنوادر الأدبية؛ واشتمل الفصل الثاني على: مناظرات علمية، إحداها بين الورد والنرجس والثانية بين طبيب ومنجم؛ وفي الفصل الثالث: منتخبات شعرية تحتوي على كثير من القصائد المدحية ومنها قصيدة لشاعر الهند العظيم آزاد، وأورد في الفصل الرابع: أربع قصائد لامية، وأما الفصل الخامس فجمع فيه الحكم والأمثال[14].

(11) المرجع السابق، ص 222.
(12) المرجع السابق، ص 223.
(13) المرجع السابق، ص 224.
(14) المرجع السابق، ص 224.

ثانيا: رياض الفردوس[15]: قام بتأليفه محمد حسين خان الشاهجهاني (1859/1276). وقد قسمه ثلاث مقامات، يعنينا منها - في دراستنا - المقامة الأولى التي قسمها المؤلف إلى فصلين كبيرين، أولهما في الشعر، والآخر في النثر.

الرسائل

من أفضل الكتب التي تناولت موضوع الرسائل، كتاب "عجب العجاب فيما يفيد الكتاب"[16] لأحمد بن محمد اليمني، وقد قسّمه مؤلفه إلى ثلاثة أقسام رئيسة؛ احتوى القسم الأول فيه على: مراسلات رجال الأدب، وتضمن القسم الثاني: رسائل السلاطين والوزراء والقضاة، وأما القسم الأخير فقد جعله المؤلف في رسائل التجار، وفي الخاتمة جمع وافر لرسائل عائلية ويوميات تتناول الحياة العامة.

الصنعة الأدبية

وهي أحد الأنماط التي حاول الكُتّاب ابتداعها في مؤلفاتهم، حيث اعتمد الكاتب فيها على الحروف المنقوطة وغير المنقوطة. ومن نماذج هذا النمط:

أولا: "موارد الكلم وسلك درر الحكم" لأبي الفيض فيضي (1595/1004).

شاعر البلاط في قصر الملك أكبر المغولي، وقد برع بقول الشعر باللغة الفارسية، ولمع فيه، حيث استطاع أن يتفادى في كتابيه "سواطع الإلهام" والكتاب الذي بين أيدينا، الحروف المنقوطة، وسمّى عمله هذا "الصنعة المهملة"[17]. فبعد القراءة والاطلاع، وجد الباحثان أن الهند قد اهتمت كثيرًا بمثل هذا النوع من التصنع في الأدب، فقد مالت أهواء أدبائها نحو تأليف كتب كاملة تُمثّل الصنعة المهملة، نعرض منها[18]:

(15) المرجع السابق، ص 224.
(16) المرجع السابق، ص 235.
(17) المرجع السابق، ص 68.
(18) المرجع السابق، ص 227.

- كتاب محمد صديق اللاهوري (1778/1192) السيرة النبوية.
- تفسير صاحب زاده علي عباس خان سورة يوسف.
- "ردود غياثية"، الكتاب يقع في جزئين أحدهما: ناصر العشاق والكاتب لا يلتزم فيه الصنعة المهملة، والثاني: السلام والمعرا ويلتزم فيه الصنعة[19].

ومن النماذج التي جاءت في كتاب "موارد الكلام وسلك درر الحكم":

"هلّلوا وصلّوا وصوموا ودوروا حول الحرم مواسمه وأكملوا مع الإحرام مراسمه وأعطوا مالا مأمورًا للصعلوك في الإسلام"[20]، حيث نلاحظ أن هذا النص يخلو من الحروف المنقوطة تمامًا، وأشار فيه المؤلف إلى الأركان الخمسة في الإسلام.

ثانيا: المقامات الهندية/ للسيد أبي بكر بن محسن العلوي (1715/1128)

ألّف الكاتب كتابه هذا على غرار المقامات القديمة كمقامات الحريري بأسلوب سهل بسيط يتكون من خمسين مقامة، سمّى كل واحدة منها باسم مدينة هندية، مثل: المقامة السورتية والأحمدنكرية، واللاهورية[21].

ثالثا: المناقب الحيدرية، لأحمد بن محمد اليمني (1256هـ/1840م)

ألّف اليمني هذا الكتاب لغازي الدين، ملك أوده الذي أكرم ضيافته وأمده بالرعاية، ووضع الكتاب في ثمانية فصول؛ الفصل الأول: وصفُ رحمة الملك وحلمه، والثاني: وصفُ كرم الملك، والثالث: وصفُ اعتلائه العرش وشجاعته، والرابع: وصفُ تدينه وإيمانه وفصاحته، الخامس: وصفُ وزيره، السادس: وصفُ القصور الملكية، والسابع: وصفُ الحدائق الملكية، والثامن: وصفُ أعماله العظيمة.

(19) المرجع السايق، ص 227.
(20) المرجع السايق، ص 228.
(21) المرجع السابق، ص 229.

استخدم المؤلف في كتابه هذا "عنصر الوصف"، وذلك بتقديم قصيدة قصيرة جاءت على لسان الفيل الذي يبكي وينوح في الأيام العشرة الأولى من شهر المحرم كما يبكي الناس حزنًا على مقتل الحسين – رضي الله تعالى عنه –، ومما جاء فيها:

واحسينا واحسينا واحسين

إن كربي هاج فيما قد جرى في كربلا للحسين السيد المولى إمـام الأتقـيـا

من طغاة خالفوا أحكام خير الأنبيا وأذاقوا أهل بيت المصطفى مرّ العنا

آه من جور العــدا واحسينا واحسين

شتتوا شمل الهدى واحسينا واحسين

تحليل العمل الأدبيّ

ومن ذلك كتاب تناول شرح قصيدة "بانت سعاد" وعُرِفَ بـ "مصدّق الفضل" لشهاب الدين الدَّوْلَتَآبَادِي (1445/849)[22]، ومن أبرز علماء الهند المهتمين بهذا العمل عبد العزيز الميمني (1888/1306) ومن أعماله العلمية[23]:

– ديوان حميد بن ثور الهلالي، وهذا الديوان جمعه الميمني وأعاد بناءه.

– ديوان سحيم عبد بني الحسحاس، وقد حققه الميمني ونشرته دار الكتب المصرية، ثم أعيد طبعه في القاهرة سنة 1384هـ.

– الوحشيات، وهي الحماسة الصغرى لأبي تمام الطائي، وقد نشرت دار المعارف تحقيقه لهذا الكتاب في سلسلتها ذخائر العرب المعروفة سنة 1383هـ، وقد راجع العلامة محمود محمد شاكر هذا التحقيق وزاد في حواشيه.

(22) المرجع السابق، ص 233.

(23) http://www.islamonline.net.

– الفاضل في اللغة والأدب لأبي العباس المبرّد، وتولت نشره دار الكتب المصرية، وهو ثالث الكتب التي حققها الميمني وقدّمها لدار الكتب لتقوم بطبعها بعد ديوان سحيم وديوان حميد بن ثور الهلال، وقد طبع في القاهرة سنة (1357هـ = 1955م).

– أبو العلاء وما إليه، فائت شعر أبي العلاء، ونشر هذا التحقيق في القاهرة سنة 1344هـ بالمطبعة السلفية.

– ومن تآليفه النافعة كتاب إقليد الخزانة، وهو فهرس للكتب الواردة في خزانة الأدب لعبد القادر البغدادي، وقد طبعته جامعة البنجاب بالهند سنة 1927م.

القصة

ومثال هذا النوع الأدبي قصة خرافية تصور أول استيطان للمسلمين في مالابار في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث اعتنق بطل القصة الإسلام متأثرًا بمعجزة انشقاق القمر. والقصة تعرف بـ "قصة شَكْرُوتِي" واسم مؤلف القصة غير معروف، ولكنّ زبيد أحمد أكّد أنّ كاتب القصة هندي وأنّ لا شك في ذلك[24].

الإنشاء والكتابة

ويقصد الباحثان بهما ما جاء عن الكُتّاب المبدعين الذين تتميز كتاباتهم بجمال اللّغة ومتانة الأسلوب وبراعة العبارة، التي تستمال بها القلوب، ومن هؤلاء:

– محمود الجونفوري (1062هـ)

وله "الفرائد في شرح الفوائد"، وقد برع الكاتب في الإنشاء المرسل، والأسلوب العلميّ التحليليّ، وكان مبتعدًا عن السجع والتنميق الذي كان له سحر على أصحاب الصناعة الأدبية، والشادين باللغة العربية[25].

(24) المرجع السابق، ص 234.

(25) الندوي، أبو الحسن علي الحسني، **نظرات في الأدب**، ص 73.

- الشاه ولي الله الدهلوي (1176هـ)

له "حجة الله البالغة"، كتاب في موضوع أسرار أحكام الشريعة وفلسفة التشريع الإسلامي، وجاء الكتاب مثالا فريدًا لسلامة الذوق الأدبيّ، ونصاعة اللغة، وقوة العبارة وانسجامها، وبعدها عن السجع البارد، وتقليد أسلوب الحريري، بل يرى أبو الحسن الندوي أنه الأنموذج الثاني للنثر الطبعي السلسال، والتعبير العامر بعد مقدمة ابن خلدون[26].

- أبو الحسن الندوي (1999/1421)

أديب إسلامي عالمي، أديب في العربية وأديب في الأردية والفارسية، وله باع طويل في تاريخ الأدب الإسلامي، وكان الندوي من الأدباء الذين يجمعون في إنتاجاتهم الأدبية الأدب والفكرة والدعوة[27].

للندوي تصانيف كثيرة جدًا تجاوزت الـ (700) كتاب. تُرجم منها "177" كتابًا - باللغة العربية - إلى لغات مختلفة، ومن أشهر كتبه، كتاب "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟"، ويرجع لأبي الحسن الندوي الفضل الكبير في تأسيس رابطة الأدب الإسلاميّ العالمية، حيث قدّم آراء تنظيرية فيما يخص الأدب الإسلاميّ، وهذا واضح في كتابه "نظرات في الأدب"؛ إذ بيّن فيه بعض المبادئ التي تتعلق بالأدب الإسلاميّ، ومفهوم الأدب وطبيعته، وآفاق الأدب الإسلامي، فضلا عن إضافته مصادر أخرى للتراث الأدبيّ العربيّ، وهي النصوص الأدبية الرائعة من كتب الحديث والسيرة والمغازي والتاريخ[28].

برع أبو الحسن الندوي - رحمه الله – في الارتجال باللغة العربية؛ إذ ساعدته لغته البليغة على إثراء نتاجه من الكتب النثرية؛ ولم يُذكر له أية كتابات شعرية.

(26) المرجع السابق، ص 74.

(27) المرجع السابق، ص 6، 8، 9.

(28) المرجع السابق، ص 11.

- العالم الأديب محمد اجتباء النَّدْوي (2008/1429)[29]

وهو من تلاميذ أبي الحسن الندوي وملازميه.

الشعر والشعراء في الهند

اجتذبت قصور الحكام في دِيْكَنْ وكُجَرَاتْ كثيرا من العلماء والشعراء العرب الذين تفاوتت جهودهم في البيئة الهندية ومناطقها، إلا أنه لم يصل إلينا إلا القليل من أسماء الشعراء، ولعل هذا يرجع إلى عدم الاهتمام بالشعر العربيّ في جنوب الهند، وفي الوقت نفسه لم يتلق الشعر أي تشجيع من بلاط الأسر الحاكمة في شمال الهند، لأن ملوك الهند المسلمين يتكلمون الفارسية، وعلى الرغم من ذلك فقد نشط الشعر في بلاد الهند، وقاله كثير من الهنود، غير أن الدراسات العربية لم تبدأ في الهند إلا بعد أن فقد الشعر سموه وبهاءه[30].

وعلى أية حال، سيحاول الباحثان جاهدين الإشارة إلى أولئك الشعراء القاطنين في الهند – على اختلاف أجناسهم- والحرص على الاستشهاد ببضعة نماذج من أشعارهم.

الأول: مسعود بن سعد بن سلمان اللاهوري (1121/515)

ولد في لاهور ونشأ فيها، قال الشعر بالهندية والفارسية والعربية، وله في كل منها ديوان، ولم يصل إلينا ديوانه العربي والهندي، وقد ذكر الوطواط في كتابه "حدائق السحر" عددًا من قصائد مسعود العربية، ومما استشهد به الوطواط[31]:

وليل كأن الشمس ضلت ممرها ... وليس لها نحو المشارق مرجع
نظرت إليه والظلام كأنه ... على العين غربان من الجو وقع
فقلت لنفس طال ليلي وليس لي ... من الهم منجاة وفي الصبر مفزع
أرى ذنب السرحان في الجو طالعا ... فهل ممكن أن الغزالة تطلع

(29) http://3andna.com/vb/f79.html

(30) أحمد، زبيد، **الآداب العربية في شبه القارة الهندية**، ص 236.

(31) المرجع السابق، ص 238.

الثاني: الأمير خُسْرَو الدهلوي (1324/725)

إلى جانب شهرته الذائعة في قول الشعر بالفارسية فقد نظم شعرا بالعربية أيضا، وأشعاره متفرقة في كتاباته، نذكر منها: "الإعجاز الخسروي"، و"خزائن الفتوح"، وقد ألف قصيدة كاملة بالعربية والفارسية في آن واحد بحيث أنشأ المصراع الأول من كل بيت بالفارسية والمصراع الثاني بالعربية[32].

ويعرض الباحثان في هذا المقام قصيدة له في مدح السلطان علاء الدين الخلجي (1315/715). التي ابتدأها الشاعر بمقدمة غزلية حتى انتهى إلى غرضه؛ يقول فيها بعد التشبيب"[33].

في مهجتي سكنت محبتها كما ... مدح المليك المستعان الأعظم
أعني علاء الدين سلطان الورى ... ملك تولد من سلالة آدم
عين الحيا بل عينه عين الحيا ... يم الندى بل كفه عين اليم
من جوده الفياض قد يحكي إذا ... نعب الغراب على رميم الحاتم
ما كان يعطش سيفه بقرابه ... إلا ويسقي من كؤوس جماجم

الثالث: مولانا شهاب الدين

ذكر شبلي في كتابه "شعر العجم" أن شهاب الدين هو شيخ الأمير خسرو، وقد أفادنا أيضا الأمير خسرو نفسه أن شهاب الدين شاعر هندي عربي جليل، ورأى خسرو أن أشعار شهاب الدين تتفوق على أشعار الفرزدق وجرير[34].

(32) المرجع السابق، ص 239.
(33) المرجع السابق، ص 239.
(34) المرجع السابق، ص 239.

الرابع: الشيخ نصير الدين

لقّب الشيخ بسراج دهلوي، مريد الولي الهندي المشهور نظام الدين أولياء، كان الشيخ مفكرًا عربيًا بارزًا، يقول في مدح شيخه شمس الدين يحيى، في قصيدة تُقَدَّرُ في أوساط الهند، والتي جاء في مطلعها[35]:

سألت العلم من أحياك حقا فقال شمس الدين يحيى

الخامس: القاضي عبد المقتدر ركن الدين الدهلوي (1388/791)

وهو تلميذ الشيخ نصير الدين، وشيخ شمس الدين الدَّوْلَتْآبَادِي. وكان شاعرا، ومن جمال أسلوب أشعاره قصيدته اللامية، ومطلعها[36]:

يا سائق الظعن في الأسحار والأصل سلم على دار سلمى وابك ثم سل
نحيلة بوصال المستهام بها والجود في الخود مثل البخل في الرجل
خيالها عند من يهوى زيارتها أحلى من الأمن عند الخائف الوجل

السادس: أحمد التهانيسري (830هـ)

كان التهانيسري عالما جليلا وشاعرًا ماهرًا، واشتهر هذا العالم في أواخر القرن الثامن وأوائل التاسع الهجريّ، وقد نالت قصيدته الدالية في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم إعجابًا وقبولا كبيرين. وقد جاء شعره على النمط العربيّ القديم حيث يربط الشاعر في شعره بين الاستهلال التقليدي عند العرب – الغزل – وبين هدفه الأصلي[37].

(35) Ahmad, Zubaid, 1946 (Reprinted Feb. 1968), The Contribution of Indo-Pakistan to Arabic Literature, Lahore: Sh. Muhammad Ashraf Kashmiri Bazar. 1st Edition, Page240.

(36) أحمد، زبيد، **الآداب العربية في شبه القارة الهندية**، ص 240، 241.

(37) المرجع السابق، ص 242، 243.

السابع: جمال الدين الهانسوي (1260/659)

في كتابه "ملهمات" ما يجمع بين الجمال اللغويّ والملهمة الروحية[38]:

طالب الدنيا جاهل طالب العقبى عاقل طالب المولى كامل
طالب الدنيا مردود طالب العقبى مسعود طالب المولى محسود
طالب الدنيا مغرور طالب العقبى مسرور طالب المولى منصور
طالب الدنيا مغبون طالب العقبى ممنون طالب المولى مأمون
طالب الدنيا هالك طالب العقبى سالك طالب المولى مالك
طالب الدنيا ذليل طالب العقبى جليل طالب المولى خليل

ومن جمال أقواله التي تشير إلى الفرق بين الزاهد والعارف[39]:

الزاهد يطهر ظاهره بالماء والعارف يطهر باطنه من الهدى
الزاهد تارك الدنيا للعقبى والعارف تارك العقبى للمولى
الزاهد يقطع السبيل والعارف بالغ المنزل وترك الرحيل

ومن عذوبة أقواله التي تشير إلى الحكم الصوفية[40]:

إذا ذكر الله افتخر
وإذا ذكر نفسه احتقر
إذا نظر في آيات الله اعتبر
إذا همّ بمعصية أو شهرة انزجر
إذا ذكر الله استبشر
إذا ذكر ذنوبه استغفر

(38) المرجع السابق، ص 127-128.
(39) المرجع السابق، ص 129.
(40) المرجع السابق، ص 129.

الثامن: شاه أحمد شرعي (1521/928)

هو من أهل مَالْوَهْ، قال الشعر بالعربية.

التاسع: محمد عبد العزيز المعبري الكاليكوتي (القرن العاشر الهجري)

وشاعرنا من مالابار، اشتهر في النصف الأخير من القرن العاشر الهجري. نَظَم وصفًا لحروب زامورين ضد البرتغاليين بقيادة فاسكو دي جاما في قصيدة طويلة من خمسمائة بيت في بحر الرجز تحت عنوان "الفتح المبين للسامري الذي يحب المسلمين"، والقصة من بدايتها حتى نهايتها بسيطة ورائعة، منها ما يلي[41]:

فإن هذي قصة عجيبة ... في شرح حرب شأنها غريبة
واقعة في خطة المليبار ... ومثلها لم يجر في تلك الديار
بين المحب المسلمين السامري ... وبين خصمه الفرنجي الكافر
نظمت بعضها ومالك الملوك ... ليسمع القصة سائر الملوك
لعلهم إذ سمعوا يتفكرون ... في الحرب أو لعلهم يعتبرون
لعلها تسير في الآفاق ... لا سيما في الشام والعراق
ليعلموا الهمة السلطان ... السامري المشهور في البلدان
صاحب كاليكوت المشهور ... لا زال من فضل الغنى مغمور
وهو محب ديننا الإسلام ... والمسلمين بين ذا الأنام
ناصر ديننا ومجر شرعنا ... حتى بخطبته على سلطانا

العاشر: زين الدين علي بن أحد المعبري (1521/928)

وله قصيدة جاءت في كتاب "هداية الأذكياء إلى طريق الأولياء"، يقول فيها:

(41) Ahmad, Zubaid, The Contribution of Indo-Pakistan to Arabic Literature, Page 244.

الحـــمد لله المـوفـــق للـعـــلا حـــمدا يـــوافي بـــره المتكـامـــلا
ثم الصلاة على الرسـول المـصطفى والآل مـــع صـحب وأتبـــاع تـــلا
تقـــوى الإلـه مـــدار كـل سـعادة واتبـاع هـــوى رأس شـــر هـــائلا
إن الـــطريق شـــريعة وطـــريقة وحـــقيقة فاســمع لهـا مـــا مـثلا
فـشـريعة أخـــذ بـدين الخـــالق وقيامـــه بالأمـــر والنهـي انجـــلى
وطريقـة أخـــذ بـأحوط كـالورع وعـــــزيمة كـرياضـــــة مـــتبتلا
وحـــقيقة لوصـــوله للـمقـصد ومـشـاهد نـــور التجـــلي بـانجلا
مـــن رام درا الـــسفينة يركـــب ويغـــوص بحـــرا ثـم درا حـــصلا
فكذا الطـريقة والحقيـقة يا أخـــي مـن غير فعل شـريعة لـن تحـــصلا
من رام أن يسلـــك طـريـق الأوليا فليحفظـن هـــذي الوصايـــا عامـلا

الحادي عشر: السيد علي خان بن معصوم (1805/1117)

أجاد الشاعر في نظم قصيدة بديعية، جاءت ممثلة لكل أنواع المحسنات البديعية، وقد اعترف العلماء بها إسهامًا قيمًا في علم البديع[42]. وقد اشتهر السيد علي خان ناظمًا وناثرًا، وترك مؤلفات كثيرة، منها: "سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر"، و"سلوة الغريب وأسوة الأريب".

وفي الكتاب الأخير وصف المؤلف فيه رحلته من مكة إلى كولكنده في الهند، واصفًا المدن والقرى والسكان والمناخ والماء والهواء والجبال والأشجار والثمار والحيوان والمساجد ومراقد العلماء، ووصف البحار بما فيها من حيوان وأحجار كريمة وغرائب[43]، حيث خرج المؤلف من مكة المكرمة عام 1655/1066 ووصل إلى مقصده سنة 1658/1069، واستغرق تأليف الكتاب ستة

(42) أحمد، زبيد، **الآداب العربية في شبه القارة الهندية**، ص 243.

(43) ينظر: ابن معصوم، السيد علي خان، 1408هـ-1988م، **سلوة الغريب وأسوة الأريب**، تحقيق شاكر هادي شكر، بيروت: عالم الكتب، ط 1.

عشر عاما[44]. ومن الموضوعات الأدبية التي جاءت في الكتاب: شكوى الزمان، بكاء الأطلال، والغربة.

الثاني عشر: السيد عبد الجليل البلكرامي (1725/1138)

اشتهر السيد في عصر أورنك زيب، وألّف أشعارًا بأربع لغات هي العربية والفارسية والتركية والهندية، وشهد له مجموعة من العلماء بعلوّ كعبه ومنزلته في العلم، حيث أجاد في شعر التاريخ الجملي، مستشهدين بذلك بأنموذج من تاريخياته في وصف فتح أورنك زيب لقلعة سِتَارَهْ[45]:

لما توجه سلطان الأنام إلى ... رب السماوات في تأييد إسلام
أقرّ إبهامه في أصل خنصره ... لورد يا قادر افتاح أكمام
فصار حين افتتاح الاسم مفتتحا ... حصنا لمن عبدوا أحجار أصنام
نظرت في الفات وهي أربعة ... من فوق إبهام من غير إبهام
لله تلك يد بيضاء قد بزغت ... للناظرين فيها للمعجز السامي
هذا البديع من التاريخ أنشأه ... عبد الجليل بتأييد إلهام

الثالث عشر: السيد محمد بن عبد الجليل (1771/1185)

هو من أبناء البلكرامي وكان شاعرًا رقيقًا مولعًا بالتلاعب بالكلمات والعبارات[46].

الرابع عشر: السيد طفيل محمد (1738/1151)

الخامس عشر: السيد محمد يوسف (1756/1172)

السادس عشر: السيد غلام علي آزاد (1785/1200)

كان آزاد هنديا أصيلا من أبناء البلكرامي، وهو من أعظم شعراء العربية بالهند، واشتهر شهرة كبيرة بقول الشعر بالعربية، كما نال الأمير خسرو الشهرة

(44) المرجع السابق، ص 200، 201.
(45) المرجع السابق، ص 244.
(46) المرجع السابق، ص 246.

بالفارسية. ترك آزاد عشرة دواوين، وطبعت منتخبات أشعاره تحت اسم "مختار ديوان آزاد"، وله أرجوزة من بحر الخفيف تقع في 3500 بيت، وأنشأ عددًا كبيرًا من المدائح النبوية جمعها في كتاب منفصل سمّاه ـ"تسلية الفؤاد"[47].

وشعر آزاد لم ينتشر خارج الهند، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أحوال العصر آنذاك، حيث لم تتوفر وسائل النقل اللازمة لنشر تلك الأشعار، فضلا عن عدم القدرة على تبادل الثقافات وقتئذ بين الهند والعالم العربيّ، فقد نال شعره العجب من رجال الآداب في مكة والمدينة المنورة حينما وصلت مدائح آزاد إليهم، فقدروها واحترموا صاحبها، ونضرب مثلا على ذلك من الدهشة التي اعترت عبد الوهاب الطنطاوي عقب سماعه قصائد آزاد، حيث قال: سيدي أنت من عتقاء الله[48].

وله قصيدة أخرى بلغ عدد أبياتها خمسة ومئة بيت، وعُرفت باسم "مرآة الجمال"، حيث خصّصها في وصف جسد المرأة بدءا بالرأس وانتهاءً بالقدم، مُخصّصا لكل عضو بيتين من الشعر، ومن نماذج ذلك:

مطلق الحسن

بي ظبيـــة مـــن أبـــرق الحنـــان مـــن مثلهـــا في عـــالم الإمـــكان
شمس تباهـــي بالسنـــا أمـــة لهـــا وكواكب أخـــرى مـــن الغلمـــان

الضفيرة

أضـفيرتان عـلى بيـاض خـدودها أو في كتـــاب الحـــسن سلـــسلتان
أو ليلـتا العيديـــن أقبلتـــا مـــعـــا أو مـن قصـائـدهـــم معلقـــتـــان

(47) ينظر: **حاشية الآداب العربية في شبه القارة الهندية**، ص 247.
(48) المرجع السابق، ص 248.

الجبهة

لله جبهتهـــا المـــضيئة في الـــدجى وهـــب الإلـــه لهـــا علـــو مـــكان
هي نصف بـــدر كامـــــل لكنهـــا تربـو على القمريـــن في اللمعـــان

الحاجب

أبـــصر حواجبهـــا وأدرك كنههـــا غـــصنان منحنيـــان وســـط البـــان
أو كافـــران يشـــاوران ليوقـــعا آمـالنـــا في موقـــع الحـــرمـــان

العين

طرفـــا الحبيبـــة مـــاكران تمارضـــا وتغـــافلا عـــن رؤيـــة الجـــيران
أو نرجسـان على غصيـــن واحـــد وهمـــا بمـــاء مسكـــران نضـــران

السابع عشر: الشاه ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوي (1762/1176).

الثامن عشر: عبد الرحيم (والد ولي الله الدهلوي) (1718/1131)

التاسع عشر: عبد العزيز بن الشاه ولي الله الدهلوي (1823/1239)

العشرون: الشاه رفيع الدين بن الشاه ولي الله الدهلوي (1833/1249)

الحادي والعشرون: أحمد بن الحسن بن علي الحسيني البخاري القنوجي (1860/1277م)

ومن نماذج أشعاره[49]:

(49) http://www.albabtainprize.org.

نسيم الصبا

نسيم الصبا وافى سُحَيْرًا مطيَّبا ... فقلتُ له أهلاً وسهلاً ومرحبا
كأنك أنفاسُ المسيح بعينها ... فأحييت صَبًّا لم ينلْ قَطُّ مطلبا
فديتُك يا نِعْم الصَّبا خيرَ مَقْدَمٍ ... فكل حَمام حين أقبلْتَ رحَّبَا
تُحاكي لك الأغصانُ بالوجدِ راقصًا ... تضاهي لك الأطيارُ بالسجْع مُطْرِبا
وتنفخ في الأشجار روحًا تُميلُها ... فيا لك ما أزهاك صُنعًا وأعجَبا
أهل جئتَ من تلك الرُّبا برسالةٍ ... فإن الصَّبا نعم الرسول لمن صَبَا

دار سلمى

لسلمى أرانا الله مولايَ دارَها ... عوالمُ حُسْنٍ ما رأينا ديارَها
فإنَّ لها بدرًا يسمّى جبينَها ... وإن لها شمسًا تسمّى عِذارَها
إذا غطّتِ الوجناتِ أقبَلَ ليلُها ... إذا كشَفتْ عنها رأينا نهارَها
هممت بخَدَّيها فمرَّت فنلتُها ... فما خيرُ نخلٍ قد مُنِعنا ثمارَها
فقالت ألا ما كُلُّ سوداءَ تمرةٌ ... تَبَسَّمُ عن دُرٍّ يصفْنَ بحارها

أيام الصبا

تذكّرتَ أيام الصِّبا والليالیا ... نعمْ وأهاج الشوقُ منك القوافيا
إذ العيشُ أشهى ما يكون من المُنى ... وأطيب لذّاتٍ تسوءُ الأعاديا
إذِ الرَّبعُ رَبعُ الخزرجيّةِ آهلٌ ... بِعينٍ كآرامِ أَلِفْنَ المغانيا
مخصَّرةِ الأطراف رَيِّقَةِ اللمى ... رِقاقِ الثنايا بهكناتٍ غوانيا
وجارت بخُلْف الوعد بعد وفائه ... وضنَّتْ بما يُغْري الوشاةَ الأساعيا
كأنْ لم يكن بين الحبيب وبيننا ... عهودٌ ولم نَرْعَ العهودَ المواضيا
فإني فتًى أرعى العهودَ لصاحبي ... وإن لم يكن للعهد منه مُراعيا

روحي فداك

يا من أذاب هواه القلبَ بالأسفِ ... روحي فداك إلامَ السعيُ في تَلَفي
الروحُ في قلقٍ، والجسم في حُرَقٍ ... والجَفن في أرَقٍ، والعين في سَرَف
يا نسمةً نَفَسَتْ لا زلتِ ناعمةً ... قرَّت عيونُك أَصْغِي لحظةً وقِفِي
يا هل تعودُ ليالٍ بالحمى سلَفت ... أضاءَها بدرُ وجهٍ صِينَ عن كلَف
كيف السبيلُ إلى سلمى وجارتِها ... والجسمُ يوشِكُ أن يَفنى من القَضَف

مرابع سلمى

لسلمةَ في وادي العقيقِ مرابعُ ... تراها كأمثالِ العقائقِ تلمعُ
وما منعتْ من حيث عَزَّتْ سلامَها ... ولكنْ لِما أجرَتْهُ مِنّي المدامع
كأنَّ بعيني ممطرًا فهو واكفٌ ... وفي وجهها بَرْقٌ فما زال يلمع
ألا يا نسيمُ اكشِف كِمامَ عِذارها ... فقد طال ما جارت عليَّ المَقانع
أيا حُسْنَ شَعرٍ قد يغطّي خدودها ... فديتُكَ من ليلٍ به البدرُ يلمع

ألا يا نسيم الروض

ألا يا نسيمَ الروض بلِّغْ تحيَّتي ... إلى مَن حياتي عنده أو منيَّتي
لقد عَمَّتِ البلوى لِيَ اليومَ والنوى ... وما طاب حالي من عموم البليّة
تَجِدُّ لِيَ الأحزانُ في كل ساعةٍ ... وما فزتُ منها حيث جَدَّتْ بلذَّة
تقول رجالٌ للزمان تغيُّرٌ ... وما في بليّاتِ النوى من تفاوُت

قيمٌ وعِبَرٌ

يعاقبني بؤسُ الزمان وخفْضُهُ ... وأدَّبني حربُ الزمان وسِلمُهُ
وما المرءُ إلا نهبُ يومٍ وليلةٍ ... تُلِمُّ به شُهْبُ الفناء ودُهمُه
يُعَلِّلُهُ بَرْدُ الحياةِ يمسُّه ... ويَغْتَرُّهُ رَوْحُ النسيم يشُمُّه

ألا إن خـيرَ الـزاد مـا سَـدَّ فاقَـة وخـيرُ بـلادَيَّ الـذي لا أجِـمُّه
وإن الطَّوَى بالعزّ أحسَـنُ يـا فتًـى إذا كـان مـن كـسب المذلّـةِ طُعْمُـه
وإني لأنهى النفسَ عـن كـلِّ لَـذَّةٍ إذا ما ارتقى منها إلى العِرْضِ وَصْمُه
وأُعرِضُ عـن نَيْلِ الثريّا إذا بـدَت وفي نَـيْـلِـهِ سـوء المـقـام وذَمُّـه

الثاني والعشرون: محمد الباقر المدراسي (1805/1320)

له ديوان شعر عربيّ، وله عشر قصائد على غرار المعلقات السبع تُسمّى الكاملة[50].

الثالث والعشرون: مولانا ذو الفقار علي الديوبندي (1322)

نظم شعرًا يتغزل فيه بالمانجو، ويذكر أنواعها وأوصافها، يقول[51]:

إن كـنت تبغـي أطـيب اللـذات فعليـك صـاح بأنبـه الثمـرات
في حـسـن مـرأى في نباهـة سـيرة في لطـف ذات في سـمو صـفات
مـن طعمهـا في كـل قلـب شـهوة فكأنهـا مجـموعة الـشـهوات
يا حسن خضرتها وحمرتها وصفرتها عـلى الأشـجار في الروضـات
لم تختلـف كمثالهـا الأثمـار في ال ألـوان والأذواق والـهيـآت
هـذا ولا تحـسبه صـنفا واحـدا بـل جـملة الأصـناف مختلفـات
سبحان مـن بالفضل فضلها علـى أشـهى مذوقـات ومشـمومـات

الرابع والعشرون: حبيب الرحمن العثماني (1930/1348)

له قصيدة لامية المعجزات (معجزات النبي الكريم) في نحو 300 بيت[52].

(50) ينظر: حاشية **الآداب العربية في شبه القارة الهندية**، ص 24.

(51) ينظر: حاشية، النمر، عبد المنعم، 1410هـ - 1990م، **تاريخ الإسلام في الهند**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 3، ص 7.

(52) http://www.islam.gov.kw/site/index.php

الخامس والعشرون: الشيخ محمد موسى روحاني بازي (1419/ 1998)

نظم أسماء الله الحسنى، ونظم أسماء النبي صلى الله عليه وسلم[53].

خصائص الأدب العربيّ وسماته في الهند

بعد عرض نماذج من النثر الفني والشعر العربيين في الهند نوّد الآن استخراج بعض خصائصهما في عصور مختلفة، وتلك الخصائص، متمثلة بالآتي:

- ابتكار الصنعة المهملة والصنعة المنقوطة. انتجت الهند تفسيرين جاءا في أصالة وإبداع، حيث خلا كتاب التفسير الأول المعروف باسم"سواطع الإلهام" من الحروف المنقوطة، واستعمل في تفسير "جب شغف" (لعبد الأحد بن إمام علي) الحروف المنقوطة فقط[54].
- ازدهار الأنشطة العربية في الكيفية والكمية في عهد دولة المغول – العهد الثاني (962-1275/1555-1857)[55].

ولع شعراء الهند بالمحسنات البديعية[56]، نحو قصيدة عبد المقتدر الدهلوي اللامية:

يا سائق الظعن في الأسحار والأصل سلم على دار سلمى وابك ثم سل

في البيت جناس بالزيادة بين سلم، سلمى وبين سلم سل، ومراعاة النظير، وصنعة الاشتقاق بين سلم وسلمى، والمقابلة بين الأسحار والأصل.

- براعة شعراء الهند في تأليف الشعر بأكثر من لغة، نحو شاعرنا السيد عبد الجليل البلكرامي الذي نظم الشعر بالعربية والفارسية والتركية

(53) http://www.islam.gov.kw/site/index.php

(54) جب شغف هو تفسير الجزء الأخير فقط من القرآن الكريم. ينظر: أحمد، زبيد، **الآداب العربية في شبه القارة الهندية**، ص 74.

(55) المرجع السابق، ص 43.

(56) المرجع السابق، ص 241.

والهندية، وكان خبيرا في شعر التاريخ الجملي[57]. ومن براعته أنه نجح في صياغة بيت على مثال بيت بديع الزمان، البيت الذي أعجز الشعراء عن الإتيان بمثله في أيام البلكرامي حسب ما ذكر الوطواط[58]. وبيت بديع الزمان:

هو البدر إلا أنه البحر زاخرا سوى أنه الضرغام لكنه الوبل

وأما بيت البلكرامي فهو:

هو القطب إلا أنه البر طالعا سوى أنه المريخ لكنه السعـد

- سبق الهند إلى نوع جديد في فن الشعر العربي، وهو نظم قصائد في وصف أجزاء جسد المرأة بذكر كل عضو في بيتين، ويتجلّى هذا النوع من الشعر في قصيدة "مرآة الجمال" لآزاد[59]، التي تعد حجر الأساس الذي سيستند إليه شعراء العصور القادمة من بعده في بناء مقامات جديدة في مثل هذا النوع من القصائد.
- استعمال البحور الهندية في الشعر العربي، وهي المحاولة الأدبية الجادة التي سعى إليها آزاد في إدخال بعض أنواع البديع الهندي والسنسكريتي[60]، وذكر آزاد أمثلة لكل ذلك في كتابه "سبحة المرجان".

(57) المرجع السابق، ص 244.

(58) المرجع السابق، ص 246، 247.

(59) المرجع السابق، ص 238.

(60) أشار زبيد أحمد إلى أن أثر الشعر السنسكريتي والهندي في الشعر العربي قبل آزاد ضئيل جدا، بل هذا الأثر كان على سبيل التسلية لا المحاولة، وهذا الأثر يظهر في شعر أحد الشعراء في عصر أكبر حيث استعمل البحور الهندية في الشعر العربي، والاستعمال لم يختلف كثيرا عن الأوزان العربية. ينظر: المرجع السابق، ص 251.

- نظم القصائد العربية في كل شكل من أشكال الشعر الفارسي، وهذا ما قام به آزاد، ففي شعره العربيّ كثير من أمثلة ذلك كالرباعي والمثنوي والمستزاد[61]، ويقابل المزدوجة الرجزية في العربية بالمثنوي الفارسي من ناحية القافية[62].
- ابتكار الهند ما عرف بـ "ذي الرؤيتين"، المؤلف من أبيات في لغة يمكن أن يصلح معناها في لغة أخرى إذا عمل تغيير بسيط في النقط والتشكيل، وهذا النوع من اختراعات الأمير خسرو، ومن قوله[63]:

رشيدي نديدي مرادي نجائي رماني بياسي تياري نسائي

والمقصود من البيت هو: يا صديقي المطيع ورفيقي ورجائي ومنقذي، إن منافسة النساء ألقتني في خيبة الأمل، ولو أجرينا تغييرا على النقط والتشكيل بقراءتنا في الفارسية لتغير المعنى، وهو:

رسيدي بديدي مرادي بخاني زماني بياشي بياري بشائي

ويكون المعنى الآن: وصلت ورأيتني الليلة الماضية في حانة، فاجلس لحظة معي تثبت الصداقة أو المودة[64].

- ازدواجية اللغة في القصيدة الواحدة بحيث يأتي الشاعر بالمصراع الأول بالفارسية والمصراع الثاني بالعربية، وقد اشتهر الأمير خسرو بهذا، فقد ألّف قصيدة كاملة على هذا النمط[65]، إلا أنّ خسرو لم يكن أوّل من فعل ذلك، فقد سبقه إلى ذلك شاعر فارسي هو جلال الدين الرومي المتوفى سنة 1273م، ويسمّى هذا الشعر بالملمّع.

---

(61) الترديف عبارة عن كلمة تتكرر بعينها آخر كل بيت، أما المستزاد فهو أن يزاد في عجز كل بيت تفعيلة؛ ينظر: حاشية **الآداب العربية في شبه القارة الهندية**، ص 252.

(62) المرجع السابق، ص 252.

(63) المرجع السابق، ص 215.

(64) المرجع السابق، ص 216.

(65) المرجع السابق، ص 239.

- توجهت الغالبية من أهالي الهند إلى نظم قصائد مخصصة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، وقد شاعت في آداب المنطقة بكل لغاتها، بما يسمونه "النعت"، وقد نظموا في هذا الغرض قصائد ودواوين كثيرة جدًا[66].
- غلب الاهتمام بالعلم الشرعي على أكثر هؤلاء الشعراء، فمنهم المحدث والمفسر والأصولي والفقيه، ويندر أن نجد من بينهم من غلب عليه الأدب، ومن النوع الأخير تبرز شخصية شيخ الأدب محمد إعزاز علي (1374/ 1955) صاحب "حاشية السحاب الصيب على ديوان أبي الطيب"، و"حاشية الفراسة لمن طالع ديوان الحماسة"، و"نفحة العرب، والواقعات المحيرة للبلاغة العربية"[67].
- كتابة الشعر بلغات أخرى (الأردية والفارسية خاصة) يكاد يكون وصفًا عامًا لجميع شعراء الهند، مع تفاوت مستوى الإبداع لديهم من حيث كونه مطبوعًا أو مصنوعًا من لغة إلى أخرى[68].

الخاتمة

توصل الباحثان بعد دراسة هذا الموضوع دراسة معمقة إلى النتائج الآتية:

1. اهتمام مسلمي الهند باللغة العربية اهتمامًا شديدًا لافتًا للنظر، وسعيهم الحثيث إلى رعايتها بشتى الوسائل المتاحة في عصرهم، إلى هذه الساعة.
2. براعة مسلمي الهند في النثر الفني بجميع أنواعه المختلفة، والمكونة من الخطابة، فالرسائل، ثم الكتابة النثرية البديعة، مشتركين في أسلوبهم مع الزمخشري، وابن خلدون، بل نجد من شعراء الهند من يقارب شعره في جودته أشعار الفرزدق وجرير، أو يفوقها كما يرى الأمير خسرو.

(66) http://www.islam.gov.kw/site/index.php.
(67) http://www.islam.gov.kw/site/index.php.

(68) المرجع السابق.

3. نظم شعراء الهند أشعارهم في أكثر من لغة، تفاوت عددها بين لغتين إلى أربع لغات، متمثلة في العربية والهندية والفارسية والتركية، مثل السيد عبد الجليل البلكرامي، ومنهم من نظم الشعر بثلاث لغات: الهندية، والفارسية، والعربية، مثل مسعود اللاهوري، وكثير منهم من نظمه بلغتين، وهذه الميزة نكاد لا نجدها لدى أدباء العرب قاطبة.
4. ظهور فن جديد في الكتابة والتأليف سمي بـ "بالتصنع الأدبي"، سواء أكان ذلك صنعة مهملة أم صنعة منقوطة، ولا شك في أن هذا الفن يدلّ على أن الكُتّاب استوعبوا اللغة استيعابًا شاملا؛ إذ يحتاج مثل ذلك النوع من التأليف إلى خزين لغويّ هائل، ومهارة عالية في التأليف.
5. تجاوز أدباء الهند الدائرة الضيقة التي لا تتجاوز حدودها الرقعة الجغرافية للأديب، وذهب بعضهم إلى ما هو أوسع منها، فظهر منهم من يحمل رسالة أدبية عالمية، نظر فيها إلى الأدب بصورة أشمل مما نظر إليه الأدباء القدماء، أمثال سفير العالمية أبي الحسن الندوي.
6. الاعتراف بفضل أدباء الهند في إرساء دعائم الأدب الإسلامي ودورهم التأسيسي.
7. فقدان المعلومات حول أكثر الشعر والشعراء في مناطق الهند الجنوبية خاصة، وفي شمالها عامة.
8. إنّ توجه الأدب العربيّ في الهند توجه ملتزم، لأن جميع شعرائهم من العلماء والفقهاء.
9. الابتكارات الهندية الجديدة، المتمثلة في ازدواجية اللغة في البيت الواحد كما جاء في أشعار الأمير خسرو، وإدخال البحور الهندية في الشعر العربي، وذي الرؤيتين.

المصادر والمراجع

باللغة العربية:

1 – ابن معصوم، السيد علي خان: **سلوة الغريب وأسوة الأريب**، تحقيق شاكر هادي شكر، بيروت: عالم الكتب، ط 1، 1408 هـ–1988م.

2 – أبو الليل، محمد مرسي: **الهند: تاريخها وتقاليدها وجغرافيتها**، دار الاتحاد العربي للطباعة، د. ط، 1965م.

3 – الندوي، أبو الحسن علي الحسني: **المسلمون في الهند**، الهند: المجمع الإسلامي العلمي، ط 3، 1407هـ–1987م.

4 – الندوي، أبو الحسن علي الحسني: **نظرات في الأدب**، دمشق: دار القلم، ط 1، 1408هـ–1988م.

5 – النمر، عبد المنعم: **تاريخ الإسلام في الهند**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط 3، 1410هـ–1990م.

6 – ضيف، شوقي: **العصر العباسي الأول**، مصر، دار المعارف، 1966، ص 24.

باللغات الأجنبية:

1 - Ahmad, Zubaid: The Contribution of Indo-Pakistan to Arabic Literature, Lahore: Sh. Muhammad Ashraf Kashmiri Bazar. 1st Edition, Page240, 1946 (Reprinted Feb. 1968).

المواقع الإلكترونية:

1 - http://www.albabtainprize.org.

2 - http://www.islam.gov.kw/site/index.php.

3 - http://www.islamonline.net.

وسائل الإعلام
بين مغبّة اللّحن والعجز عن تخريج الصّواب

د.عبد القادر سلاّمي(*)

تقديم:

يتناول هذا البحث أمثلة ممّا تتناقله بعض وسائل الإعلام العربية من لُحون لا يجوز أن تُذاع في النّاس في العالم العربيّ. وليس الذنب ذنب هذه المحطّات الإشعاعية دائمًا. فكثيرًا ما تبعث إدارات حكومية ألفاظًا مغلوطًا فيها فتسري تلك الأغلاط من محطة إلى محطة، وغياب المدقّقين اللغويين في تلك الوسائل لا يدرأ عنها اللّحن؛ مع سوق هذه الوسائل لبعض الألفاظ والعبارات المسكوكة، التي درج المذيعون وأغلب ضيوف حلقاتهم وأركانهم على استعمالها، وذلك دون إدراك منهم لأوجه الصواب فيها أو أن يقووا على تخريجها، بما تُمليه طبيعة النّحو أو الصّرف أو الدلالة.

ويسعى هذا البحث إلى الوقوف على بعض الأخطاء المقترفة ومحاولة إثبات بعض ما صحّ من ألفاظ وعبارات لا نملك بعد تخريجها إلاّ القول بصواب رأي من أقرّها، وذلك قصد حماية ما بقي فصيحًا سليمًا من ألسنة العرب أو لجبر ما يمكن جبره منها، بما يعزّز الرغبة في إحياء مبدإ تنقية اللغة العربية الذي كان سائدًا عند الأسلاف.

(*) قسم اللغة العربية وآدابها – كلية الآداب واللغات – جامعة تلمسان – الجزائر.

1- تعريف اللّحن:

ارتبط اللّحن في معظم المعاجم العربية بدلالات مختلفة، منها: الفطنة والذكاء[1] والتورية[2] والغناء وحسن الصّوت[3] والتّظرّف في الحديث[4] والميل

(1) والشّاهد على ذلك، عن أمّ سلمة زوج النبيّ عليه الصّلاة والسّلام، أنّ الرّسول صلّى الله عليه وسلّم قال: «**إنّما أنا بشر، وإنّكم تختصمون إليّ، فلعلّ بعضكم أن يكون ألحن بحجّته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع منه، فمن قضيت له بشيء من حقّ أخيه فلا يأخذنّ منه شيئا، فإنّما أقطع له قطعة من النّار**». (ينظر: مالك: الموطأ، ص 509، الحديث رقم 1397)، «أي أفطن لها وأغوص عليها». ينظر:ابن دريد: كتاب الملاحن، ص 56، والسيوطي: المزهر في علوم اللغة وأنواعها، 568/1)، ولحن يلحن لحنا، فهو لحن إذا أصاب وفطن، ويقال رجل لحن ولحن. (القالي: أبو علي إسماعيل القاسم البغدادي، مراجعة نخبة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1980م، 5/1، والبطليوسي: الاقتضاب في شرح أدب الكاتب، 244/1).

(2) ويقصد بها استعمال معنى قريب والمراد معنى بعيد، «ويقال لحنت لفلان إذا قلت له قولا يفهمه ويخفى على غيره؛ لأنّك تميله بالتورية عن الواضح المفهوم» (الجوهري: الصحاح في اللغة والعلوم، ص 437، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، 53/3)، ومن شواهد هذا المعنى ما قاله الشاعر مالك بن أسماء بن خارجة الفزاري(ت 60هـ) في جارية له:

مَنْطِقٌ بَارِعٌ (*)وتَلْحَنُ أحيـا نـًا وخَيْرُ الحديثِ مَا كانَ لَـحْنا

بمعنى أنّ أفضل الحديث هو الّذي يفهمه الشخص المراد إفهامه دون غيره. ابن قتيبة: الشعر والشعراء، ص 530، وابن عبد ربه: العقد الفريد، 480/2). وقد اختلفت الروايات في وصف كلمة (منطق) فهي(صائب) في الجاحظ: البيان والتبيين، 102/1، والقالي: الأمالي في لغة العرب، 6/1، والشريف المرتضى:أمالي المرتضى، 14/1، و(رائع) في عبد العزيز مطر: لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة، ص 26.

(3) وممّا يروى في هذا المعنى قول الشاعر ابن مخرمة السّعدي:

وهاتِفَيْنِ بِشَجْوٍ بَعْدَمَا سَجَعَـتْ وُرْقُ الحَمَامِ بتَرجيعٍ وإرْنَـانِ

بَاتَا عَلَى غُصْنٍ بَانٍ في ذُرَى فَنَنٍ يُرَدِّدَانِ لُحُـوناً ذَاتَ أَلْـوَانِ

ينظر:القالي: الأمالي في لغة العرب، 6/1، وابن منظور: لسان العرب،381/13، مادة (لحن). وقد اتّصل بهذا المعنى التّنغيم والتّرتيل في القرآن. ينظر: عوض حمد القوزي: المصطلح النحوي نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري، ص 12، ويوهان فك: العربية، ص 246.

(4) هو خلط الكلام الأصلي بكلام أجنبيّ عنه، وقد روي عن إسماعيل بن إسحاق (282هـ) عن نصر بن عليّ (ت 565هـ) عن الأصمعيّ (ت 216هـ) عن عيسى بن عمر (ت 149هـ) **قال**: «**قال معاوية** (41هـ-60هـ) **للنّاس**: **كيف ابن زياد فيكم؟ قالوا**: **ظريف على أنّه يلحن، قال**: **فذاك أظرف له**».ينظر:القالي: الأمالي في لغة العرب،5/1، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث، 53/3.

ومعنى القول وفحواه[5] والرّمز والإشارة[6] واللّغة أو اللّهجة الخاصّة[7] ؛ ممّا يدلّ على أنّ اقتران معناه بالخطإ جاء متأخّرًا دعت إليه حاجة اللّغة العربيّة إلى

(5) وممّن ذكر هذا المعنى ابن الأثير (ت 606ه) في قوله: «اللّحن: الميل عن جهة الاستقامة». ينظر: ابن الأثير: مجد الدين السعادات المبارك الجزري، المطبعة العثمانية، 1311ه، 3/1. ورد هذا المعنى كذلك في قوله تعالى: **﴿ولَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القَوْلِ﴾** (الآية 30 من سورة محمد)، "وهذا هو الكلام المُوَرّى به المُزال عن جهة الاستقامة والظّهور بالزيادة والنّقصان في ترنُّمه". (ينظر: ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، 239/5، مادة (لحن). وقال أبو بكر الأنباري (ت 328ه) في معنى هذه الآية أي في مذهبه ووجهه. (ينظر: القالي: الأمالي في لغة العرب، 4/1، وينظر: إبراهيم وآخرون: المعجم الوسيط، 820/2، مادة (لحن).

(6) وممّا تذكره مصادر اللغة في هذا المعنى، أنّه في غزوة الخندق، بعث الرسولﷺ سعْدًا بن معاذ (5ه) وسعدًا بن عبادة (15ه) ومعهما عبد الله بن رواحَة (ت 8ه) وخوَّنا بن جُبَيْر إلى بني قُرَيْظة ليَتَبَيَّنوا ما إذا كانوا قد نكثوا عهدهم مع الرّسولﷺ، وقال لهم: «**انطلقوا حتى تنظروا أحقّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا، فإن كان حقًا فالحنوا لي لحنا أعرفه، ولا تفتّوا(*) في أعضاء النّاس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للنّاس**».(ينظر: ابن هشام: سيرة النبي صلى الله عليه وسلّم ،237/3-238 ومحمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي: أيام العرب في الإسلام، ص 61. (ولا تفتّوا: أي لا تسيئوا إلى النّاس. (ينظر: ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، 436/4، مادة(فتّ).ولمّا رجع الرّسل سلّموا على الرّسول صلى الله عليه وسلّم، وقالوا: (عضل والقارة)(*) فعلم النبيّ الكريم أنّ بني قريظة نكثوا عهدهم. عضل والقارة: قبيلتان من كنانة، غدرتا بأصحاب رسول الله ﷺ. (ينظر: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي: أيام العرب في الإسلام،ص61). فقوله الحنوا لي لحنا أعرفه بمعنى أشيروا إليّ بإشارة أعرف مدلولها ولا تفصحوا. و(عضل والقارة)(*) فعلم النبيّ الكريم أنّ بني قريظة نكثوا عهدهم و(*)عضل والقارة: قبيلتان من كنانة، غدرتا بأصحاب رسول الله ﷺ. ينظر المرجع السابق، ص 61.

(7) وشواهد هذا المعنى كثيرة نذكر منها ما روي عن شريك (ت 92ه) عن أبي إسحاق (ت 87ه) عن أبي ميسرة (ت 63ه) في تفسير كلمة العرم في قوله تعالى: **﴿فأرْسَلْنَا عليهِمْ سَيْلَ العَرِمِ﴾**. (الآية 16 من سورة سبأ)، قال: "العرم: المسنّاة (*) بلحن اليمن أي بلغة اليمن".(ينظر:القالي: الأمالي في لغة العرب، 5/1 والسيوطي: الإتقان في علوم القرآن،134/1). والمسناة: ظفيرة تُبنى للسّيل لتردَّ الماء؛ وسمّيت كذلك لأنّ فيها مفاتيح للماء بقدر ما تحتاج إليه ممّا لا يغلب، وهو مأخوذ من قولك: سنّيتُ الشّيء والأمر إذا فتحت وجهه. (ينظر: ابن منظور: لسان العرب، 406/14، مادة (سنا). وفي حديث للرسول صلّى الله عليه وسلم: «**اقرؤوا القرآن بلحون العرب وأصواتها، وإيّاكم ولحون أهل الفسق وأهل الكتابين**». (ينظر: ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، 54/3 وعوض حمد القوزي: المصطلح النحوي، ص 9). ولحون العرب هنا تعني طرائقها في الكلام من إمالة وإشمام ونحو ذلك ممّا تعرف به لهجاتهم من خصائص تيسيرا للمتعلّمين. (ينظر:عوض حمد القوزي: المصطلح النحوي، ص9).

التصويب اللغويّ، وذلك بفعل الاختلاط الذي حدث بين العرب والأعاجم في صدر الإسلام، إذ عانت من ظاهرة مستهجنة وغريبة على اللسان العربيّ الفصيح، وهي ظاهرة اللّحن التي انتشرت في أوساط العامّة بله الخاصّة. وقد تفطّن لخطرها العديد من جهابذة العلماء وكذلك الخلفاء، ومنهم عبد الملك بن مروان(65هـ-86هـ) الذي كان يحذّر أبناءه من الوقوع في اللّحن بقوله:"**إنَّ اللَّحْنَ في منطقِ الشَّريف أقْبَحُ من آثَارِ الجُدَرِيِّ في الوجه، وأقبحُ من الشِّقِّ في ثَوْبٍ نَفيسٍ**"[8]. وهو ما عرف عندهم بمبدإ تنقية اللغة العربية.

واللّحن في العربية إمالة الكلام عن جهته الصّحيحة، يقال : لحَن لَحْناً، وهو عند ابن فارس (ت 395هـ)من الكلام المولد، لأن اللحن محدث لم يكن في العرب العاربة الذين تكلموا بطبائعهم السليمة[9]، وهو يغيّر المعنى واللّفظ ويقلبه عن المراد به إلى ضدّه حتى يفهم السّامع خلاف المقصود منه[10]،كما أنّه هَدْم لكيان اللّغة وإنشاء كيان آخر على أنقاضه[11]، ومن الشواهد الدّالة على هذا المعنى قول: السيّد الحميريّ إسماعيل بن محمد[12] (ت 173 هـ):

وإنّي لِسانِي مِقْوَلٌ لا يَخُونُني وإنّي لمَا آتي منَ الأمْرِ مُتْقِنُ
أَحُوكُ ولا أُقْوِي ولست بِلَاحِنٍ وَكَمْ قائِلٍ للشِّعْرِ يقْوِي ويَلْحَنُ

ونشير في هذا الصّدد إلى التداخل الموجود بين اللّحن والخطإ بحيث يستعملهما المتكلّم بمدلول واحد، بينما نجد ثمّة فرقًا بينهما: "فاللّحن صرفك الكلام عن جهته. ثمّ صار اسمًا لازمًا لمخالفة الإعراب، والخطأ إصابة خلاف ما

(8) الجاحظ: البيان والتبيين، 170/2 وابن قتيبة: عيون الأخبار، 158/2، وابن عبد ربه: العقد الفريد، 478/2.

(9) ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، 54/5، مادة (لحن).

(10) السيد البطليوسي: الاقتضاب في شرح أدب الكاتب، 244/1، والقلقشندي:صبح الأعشى، 169/1.

(11) ينظر:محمد الحباس: دراسة تطور المفردات العربية من خلال كتب اللّحن، ص47.

(12) المرزباني: الموشح من مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر، ص 16.

يقصد وقد يكون في القول والفعل، واللّحن لا يكون إلّا في القول. تقول لحن في كلامه ولا يقال لحن في فعله، كما يقال أخطأ في فعله، إلاّ في استعارة بعيدة"[13].

وقد عدّ محمد بن القاسم الأنباري (ت 304هـ) اللّحن من الأضداد حين قال: **"واللّحن حرفٌ من الأضداد؛ يقال للخطإ لحن وللصّواب لحن"**[14]. وتابعه ابن الأثير في ذلك[15].

ويذكر أنّ أوّل لحن سمع بالبادية هو **(هذه عصاتي)** أمّا في العراق. فهو: **(حيّ على الفلاح)**[16].

2- مظاهره:

ورد اللّحن في لغة العرب بأشكال عديدة، منها:

أ- إسقاط حركات الإعراب:

وهو أوّل مظهر من مظاهر اللّحن على اللّسان العربيّ، ودليل ذلك قول أبي الطّيب اللّغوي (ت 351هـ): **"واعلم أنّ أوّل ما اختلّ من كلام العرب فأحْوَجَ إلى التعلّم الإعرابُ"**[17].

وروي عن بشير بن مروانٍ (ت 102هـ) أنه قال لغلامٍ له - وعنده عمر بن عبد العزيز (99هـ-101هـ): **ادْعُ لي صالحا**، فقال الغلام: **يا صالحا**، فقال له بشر: **ألْقِ منها ألفٌ**، قال له عمر: **وأنْتَ فزِدْ في ألفِكَ ألَفًا**[18].

(13) أبو هلال العسكري: الفروق في اللغة، ص 46.

(14) الأنباري: الأضداد، ص 238.

(15) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث والأثر، 56/4.

(16) الجاحظ: البيان والتبيين: 172/2 وينظر:عبد الجليل مرتاض:بوادر الحركة اللّسانية الأولى عند العرب، ص 87.

(17) أبو الطيب اللغوي: مراتب النحويين، ص 5.

(18) ينظر: الجاحظ: البيان والتبيين، 167/2، وابن عبد ربه: العقد الفريد، ص 480/2.

ب – اللّحن الصّوتي :

ويتمّ بإبدال صوت لم يتعوّد الأعجميّ النطق به بصوت آخر مألوف له، ومثال ذلك قول فيل مولى زياد الأعجم (ت 100هـ): **"اهدُوا لنا هِمَارَ وَهْشٍ"**[19]؛ **أي** حمار وحش. ومثلها إبدال العين همزة، والذّال دالا، والظّاء ضادًا، والسّين صادًا، وغيرها.

ج – اللّحن الصّرفي:

ويتعلّق ببنية الكلمة، ويبدو جليّا في قول يوسف بن خالد السّمتي (ت 189هـ) لعمرو بن عبيد (ت 144هـ): **"ما تقول في دجاجة ذبحت من قفائها؟** قال له عمرو: **أحسن**، قال: **من قفاؤها**. قال: **أحسن، قال من خفاءَها**: قال عمر: **ما عَنَاكَ بهذا؟ قُلْ من قَفَاها واستَرِحْ"**، ولحن يوسف أيضا في قوله (**هذا أحمرُ من هذا**)، والمراد هذا أشدّ حمرة من هذا[20].

د – استعمال الألفاظ العربية في غير موضعها:

في مثل قول عبيد الله بن زياد (ت 67هـ) لجنوده: (**افتحُوا سيوفَكم**)، وقصد: (**سلّوا سيوفكُم**)، وليس من عادة العرب استعمال (الفتح) للسيوف[21].

هـ – طغيان بعض الألفاظ الفارسيّة التي لها مقابل العربيّة:

وانتشر ذلك في المدن، وأورد الجاحظ (ت 255هـ) أمثلة كثيرة عن هذا النّوع، منها تسمية التقاء أربعة طرق (**مربّعة**) عند أهل البصرة و(**الجهارسوك**) عند أهل الكوفة وهي كلمة فارسية ويسمّون **القثّاء**(*) **خياراً**، والخيار فارسيّة[22].

---

(19) ابن قتيبة: عيون الأخبار: 159/2.

(20) الجاحظ: البيان والتبيين، 168/2.

(21) المصدر نفسه، 210/2، وشكري فيصل: المجتمعات الإسلامية في القرن الأول الهجري نشأتها، مقوماتها، تطورها اللغوي والأدبي، ص 268.

(*) القثّاء: نوع من البطيخ، نباتي، قريب من الخيار لكنه أطول، واحدته قثاءه، وهو اسم جنس لما يسمّى بمصر: الخيار والعجوس والفقّوس. ينظر: إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط، ص715، مادة (قثأ).

(22) الجاحظ: البيان والتبيين، 20/1، شكري فيصل: والمجتمعات الإسلامية: ص 270.

نماذج من لحن وسائل الإعلام:

يجدر بنا بعد هذه المقدمة أن نقف على جملة من الأخطاء التي يذيعها المذيعون وتتناقلها محطات الإعلام المكتوبة والمسموعة، ومنها:

1 – الإطار أو مِلاَكُ (مَلاَكُ) لا الكادر:

للكلمة الفرنسية (cadre) معان كثيرة في علوم وفنون مختلفة، كالإدارة والصناعة والتشريح والنّحالة (حيث تطلق كلمة كادر على النّحيتة) والعمارة والجيش والبحرية والسكة الحديد والكهرباء والأدب والفنون الجميلة والمعادن والتصوير الشمسي والمسرح وغيرها من العلوم والفنون[23]. والذي يهمنا ذكره من معاني ذكره من معاني كلمة كادر المشتركة معنيان[24] :

– **المعنى الأول**، وهو الأشهر: حاشية من خشب أو برنز أو من غيرها توضع فيها مرآة أو رسم أو قطعة فنية أو غيرها. فالكادر هنا هو إذن الإطار، وهي كلمة مشهورة تستعمل لهذا المعنى وجمعها أطرٌ.

– **والمعنى الثاني**، للكلمة الفرنسية المذكورة هو معنى إداري، وهو بيان الدوائر والوظائف في إحدى الإدارات أو المديريات، وهو أيضا بيان الضباط وضباط الصف في الجيش.

فالكلمتان العربيتان المصطلح عليهما في اللغة العربية للدلالة على هذا المعنى هما: "الإطَارُ" و"الملاك". فكلّ شيء أحاطَ بشيء فهو إطارٌ، ويُقالُ: بنُو فلان إطارٌ لبني فُلان، إذا حَلُّوا حولَهم. ويقالُ: أَطَّرْتُ العُودَ، إذا عَطَفْتَهُ، فهو مَأطُورٌ، وجمعهُ أُطُر[25]. أمّا مَلاَكُ الأمر ومِلاَكُهُ، فقِوَامُهُ الذي يُملَكُ به،

(23) مصطفى الشهابي: أخطاء تنقلها محطّات الإذاعة، 650/2.

(24) Le Petit Larousse, page 164.

(25) ينظر: ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، 113/1، مادة (أطر).

وخُلاَصتُه وعنصره الجوهري[26]، وهو اصطلاح – حسن الملاك كان قد وُضع في مجمع اللغة بدمشق منذ سنين عديدة، وعمّ استعماله سورية ولبنان وغيرهما. يقال مثلا : هذا "ملاك مديرية الشرطة"؛ أي بيان ما فيها من وظائف وأعمال للموظفين والمستخدمين. ويمكن – استثنائيًا – جمع ملاك على ملاكات، مثلما جاء سجلّ وسجلاّت مثلا. أما تكسير ملاك قياسيًا فهو أملكة للقلّة وملك للكثرة[27].

ويتضح من ذلك أنه لا حاجة إلى تعريب كلمة (cadre) ولا إلى جمعها على كوادر، ومن المؤسف أن نرى هذه الرطانة تسري إلى الدوائر الإعلامية العربية.

2 – الإعداد لا المونتاج :

ارتبطت معاني الكلمة الفرنسية (Montage) بعدة معانٍ، منها: الرفع والإعلاء كرفع الشيء إلى فوق؛ ومنها التركيب والإعداد في مثل الآلة؛ أي وضع أجزاء تلك الآلة في مواضعها حتى تكتمل الآلة، يقال تركيب الآلة أو إعدادها؛ ومن معاني الكلمة الفرنسية في السينما استعراض مناظر الفيلم (film) في أشرطة، واختيار شريط نهائي؛ أي إعداد المنظر الذي سيُعرض على الجمهور[28]. وقد رأى مصطفى الشهابي أنّه يمكن الاكتفاء بالإعداد اصطلاحًا للدلالة على مضمونها في الفرنسية، وهي كلمة حسنة تغنينا عن تعريب الكلمة الفرنسية[29]. والحق ما ذهب إليه، فقد ورد في معاجم اللغة أنّ عدَّهُ: هيَّأه، والإعْدادُ: هو تهيئة الشيء[30].

(26) ينظر: الفيروزآبادي: القاموس المحيط، 331/3، إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط، 886/2، مادة (ملك).

(27) مصطفى الشهابي: أخطاء تنقلها محطّات الإذاعة، 650/2.

(28) Le Petit Larousse, page 667.

(29) مصطفى الشهابي: أخطاء تنقلها محطّات الإذاعة، 652/2.

(30) ينظر: الفيروزآبادي: القاموس المحيط، 324/1 وابن فارس: معجم مقاييس اللغة، 29/1، مادة (عد).

3 – في أنحاءٍ لا في أنحاءَ :

وزن " أفْعَال" غير ممنوع من الصرف، ذكرها المبرّد (ت 285ه) في (باب الجمع المزيد فيه، وغير المزيد)، فقال: "فأمّا ما كان من الجَمع على (أفعَل)، وفُعُول)، نحو: أجْمال(*)، وفُلوس، فمنصرف في المعرفة والنّكرة؛ لأنّه على مثال يكون للواحد. وهو جمع مُضارعٌ للواحد؛ لأنّه لأدْنَى العدَد، أعني أفْعَالاً[31]، وكلمة "أشياء" مستثناة فهي تمنع من الصرف، فنقول فيها مثلا: نظرت إلى أشياءَ عند فلان، لا إلى أشياءٍ وهكذا[32] وعلى هذا يجب أن نقول مثلا : جُلتُ في أنحاءٍ من الأرض لا في أنحاءَ من الأرض. ونقول مثلاً : للجَمل في العربية أسماءٌ عديدة لا أسماءُ عديدة[33]. وعلى هذا فكثيرًا ما يغلط بعض ممتهني وسائل الإعلام فيمنعون من الصرف جموعًا جاءت على وزن أفعال تشبيهًا لها بكلمة "أشياء".

4 – الكميُ أو (الكَمْيَان) بدل التدخين:

للتدخين (fumer) في اللغة الفرنسية معان، منها: تخصيب الأرض الفلاحية بالسماد قصد تحسين مردودها، وتناثر الدُّخَان(la fumée) في الهواء نتيجة احتراق الحطب أو التبغ، أو غيرهما[34].

أمّا ما يقابل الاسم والفعل في حاضر لغة العرب، فالسائد منه هو الدُّخَانُ: "يتصاعدُ عن النّار من دقائق الوقود غير المحترقة وبمعنى"التَّبْغ"،

---

* أجمال: جمع جَمَل .ينظر: الفيروزآبادي: القاموس المحيط، 362/3، مادة (الجمل).

(31) المبرد: المقتضب، 329/3، وينظر :حسن عباس: النحو الوافي، 2005/3-206.

(32) وأصلها "أشَايِيٌّ بثلاث ياآتٍ، وعن الخليل (ت 175ه) أنّ أشيَاء فَعْلاء، وأنّها جمعٌ على غير واحد كشاعر وشعراء نائبة عن أفعال وبدل منه وجمعٌ لواحدها المستعمل وهو شيئٌ. أمّا الكسائي(ت 189ه) فيرى أنّها أفعالٌ كفَرخ وأفْرَاخ تُرك صَرفُها لكثرة الاستعمال،؛ لأنّها شُبّهت بفَعْلاء في كونها جمعت على على أشْيَاواتٍ فصارت كخَضْراء وخَضْرَاوات فحينئذٍ لا يلْزَمُهُ أن لا يُصرفَ أبناءً وأسماءً كما زعم الجوهري (ت 358ه)؛ لأنّهم لم يجمعوا أبناءً بالألف والتاء. ينظر: الفيروزآبادي القاموس المحيط، 20/1، مادة (شئته) والمبرد: المقتضب، 365/3.

(33) ينظر: المبرد: المقتضب، 365/3 ومصطفى الشهابي: أخطاء تنقلها محطّات الإذاعة، 653/2.

(34) Le Petit Larousse, p 456.

و"التدخين" تفعيل لذلك. وعلى هذا فـ"دخَّنَ التَّبْغَ": أحرَقَهُ متعاطيًّا إيّاه"و"دخَّن على الشَّجر أو على الثَّوْب: طهَّرَهُ ببَخُور خاصّ ليقتُلَ ما به من الآفات". وهو مما أقرّه مجمع اللغة العربية بالقاهرة[35].

فعلى أيّ أساس تمَّ له ذلك؟ ونحن نعلم أن القياس يستلزم وجود لغة حديثة مقيسة على لغة قديمة من باب موازنة كلمات بكلمات أو صيغ بصيغ أو استعمال باستعمال أو معنى بمعنى[36]؛ قياس لا يتمّ إلّا بطريقة منطقية كونه يساعدنا على صياغة ألفاظ جديدة واشتقاقات قد تكون شائعة في اللغة القديمة، وقد تكون نادرة فيها أو قد تكون غير موجودة إطلاقًا، فما بالك والمعاني بعدُ ليست قائمة إلّا على سبيل التوهّم؟ والإنسان لا يقوم مقامَ النَّار بأيّ حال من الأحوال. ففي المعجم العربي ما يدلّ على أنَّ الدُّخَان: "ما يكون عن الوقُود. يُقالُ: دَخَنَت النَّار تدخُنُ ودخَّنَتْ وادَّخَنَتْ: إذا ارتفع دُخَانُها، ودَخِنَتْ تَدْخَنُ: إذا أُلْقِيَ عليها حَطَبٌ فأُفْسِدَتْ حتَّى يَهيج لذلك دُخانٌ. ويُقالُ دَخَنَ الغُبَارُ:ارتَفَعَ. والدُّخْنَةُ من الأَلْوان: كُدْرَةٌ في سَواد. والدُّخْنَةُ: بَخُورٌ يدخَّنُ به البَيْت"[37].

فالدّخان يكون عن نار وقودها الحَطب أو البَخُورِ أو التَّبْغ الذي يستحيل، على اعتبار ما سيؤول إليه، دُخانًا يُكْمى(يُسْتَرُ) في الصّدر وما احتزمَ عليه، فيهيجُ، ثمَّ يَخرُجُ جلُّه أو جزءًا منه بالطريقة المعهودة عند مُتعاطي التَّبغ؛ ولا بأس بعد ذلك أن يُطلَق الدُّخانُ على التَّبغ على سبيل المجاز ووفق المآل، وهو ما لا ننكره على الخاصّة والعامّة.

(35) إبراهيم أنيس وآخرون: المعجم الوسيط، دار الفكر، بيروت، 276/1، مادة (دخن).

(36) ينظر: ابن جني : الخصائص، 358/1 والسيوطي: الاقتراح في علم أصول النحو، ص 96، وابن هشام:شرح جمل الزجاجي، ص 355.

(37) ينظر:ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، 336/2، مادة (دخن) والفيروزآبادي: القاموس المحيط، 223/4، مادة (الدخن).

من ذلك لفظ" كَمَى" الذي نعدُّه وجهًا صالحًا من وجوه المقابلات الموضوعية لما في (عملية التدخين) بمفهومها الحديث. فهو في أصل الوضع" يَدلُّ على خَفَاءِ شَيءٍ. من ذلك: كَمَى فُلانٌ الشّهادة: إذا كَتَمَها...ولذلك سمِّيَ الشُّجاعُ: الكمِيُّ. قالوا: هو يتكَمَّى في سلاحه؛ أي: يتَغَطَّى به. يقالُ: تكَمَّتِ الفِتْنَةُ النَّاسَ: إذا غَشِيَتْهُم" [38].

والجدير بالذكر أنَّ عامّة أهل المغرب العربيّ ما زالوا يصرُّون على الفعل" كَمى" في مقابل(دَخَّن) و"المصدر"الكَمْيَان" في مقابل (التدخين)، وكأنّه من(باب ما تنكره الخاصّة على العامّة وليس بمنكر)[39]. فإذا كانت مادة "كَمَى" ما زالت تحظى بمثل هذا التداول، وقد انحسر مداها في الدلالة على كتمان السرّ والشهادة الذي كانت تضطلع به جنبًا إلى مع مادة"كتَم"[40]، فما أحوجنا اليوم إلى دلالتها المحسوسة التي انزوت في ركنٍ صغيرٍ من أركان الدلالة الأصلية، وعثرنا عليها في بعض النصوص القديمة في صورة اللفظ نفسه أو بعض مشتقّاته، وارتكزنا فيه أساسًا على مبدإ التوسُّع في قبول ما نطقت به العامّة وكان جاريًّا على لهجة عربية معروفة[41]، تتّصل بالفصحى بأكثر من سبب، وينتظر الإقرار الطّوعي من المجتمع العربي في مشرقه بعد أن لقيَه في مغربه.

وبعيدًا عن التشكيك في قدرة المجامع اللغوية العربية، ومنها مجمع اللغة العربية بالقاهرة الذي نشهد له بالرّيادة، على عقد الصّلة بين موروث الخلَف والسّلَف من الألفاظ الكفيلة بسدّ النقص المصطلحي الحاصل في لغة العرب في مقابل ما يفِد علينا من مصطلحات أجنبية وممارسات تنحسب علينا تبعاتها.

(38) ابن فارس معجم مقاييس اللغة، 137/5، مادة (كمى)، وينظر: الفيروزآبادي، القاموس المحيط، 386/4، مادة (كمى).

(39) وهو عنوان جعله ابن مكّي الصقلي(ت501ه) لأحد أبواب كتابه، حاول فيه إنصاف العامة فيما ذهبوا إليه. ينظر: ابن مكي الصقلي: تثقيف اللسان وتلقيح الجنان، ص 186-193.

(40) "الكاف والتاء واللام أصل صحيح يدلُّ على إخفاءٍ وسَتْرٍ. ابن فارس: معجم مقاييس اللغة 157/5، مادة (كتم).

(41) ينظر في هذا الصدد: عبد العزيز مطر: لحن العامة في ضوء علم اللغة الحدي، ص 169.

بعيدًا عن كلّ ذلك فإننا نهيب بهذه المجامع أن تداوم التنقيب والتنقير في كتب اللغة ومعاجمها بحثًا عن مقابلات موضوعية تغنينا عن اللّهث وراء العديد من الترجمات على النحو الذي حظيت بها كلمة "المَنَامَة" في مقابل كلمة"pyjama(s)" التي عملت بعض المجامع اللغوية جاهدة على ترجمتها دون أن تلقى أيّ من الترجمات المقترحة القبول[42]. والمصطلح في تراث العرب يحمل أسباب انبعاثه.

5- دَخلْت البيتَ لا دخلْتُ إلى البَيت :

يتعدّى الفعل دخل إلى مفعوله بدون حرف الجرّ، تقول: (دخَلْتُ البيتَ) فإنّ البيتَ مفعول، وتقول (البيتَ دَخَلْته.فإنْ قلتَ: فقد أقول: دخَلْت فيه. قيل: هذا كقولك: عبد الله نصحتُ له ونصحتُه... فتعدِّه إنْ شئت بحرف، وإن شئتَ أوصَلت الفعل...ألا ترى أنَّ (دخلت) هو عمل فعلته، وأوصَلْته إلى الدار،لا يَمتَنعُ منه ما كان مِثْل الدار.تقول: دخلتُ المسجدَ، ودخلَ البيتَ. قال الله عزّ وجلَّ: **﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللهُ﴾**[43]. فهو في التعدّي كقولك: عَمَرتُ الدَّارَ، وهدّمْتُ الدَّارَ، وأَصْلَحْتُ الدَّارَ؛ لأنَّه فِعْلٌ وصلَ منك إليها، مِثْل: ضَرَبْتُ زَيْداً"[44].

فعلى هذا يجري الفعل (دخل) وغيره من الأفعال في التعدية من منطلق المخصوص والمبهَم، وهو ما أيّده ابن الشجري (ت 542ه) ببعض الشواهد، فقال: "وممّا حذفوا منه (إلى) قولهم (دخَلْتُ البَيْتَ) و(ذهبْتُ الشَّامَ) ولم يستعملوا ذهبتُ بغير (إلى) إلّا للشَّام، وليس كذلك (دخلْتُ المَسْجدَ) و(دخَلْتُ السُّوقَ)"[45].

(42) ينظر: علي القاسمي: مقدمة في علم الترجمة، ص88-89.

(43) الآية 27 من سورة الفتح.

(44) ينظر: المبرد: المقتضب، 4/338-3339.

(45) ابن الشجري: الأمالي الشجرية، 1/367-368.

*** الخلاصة:**

لقد وقفنا ممّا قدّمنا له في هذا البحث على بعض مظاهر اللّحن عند القدماء ونماذج له عند بعض الخلَف ممثَّلا في وسائل الإعلام، الأمر الذي أوقفنا على مدى إدراك السَّلف لمبدإ الصّواب قبل مبدإ الخطإ في اللفظ والعبارة، بما يزيد من انحسار العربية من التداول عند الخّاصّة، ويفتح المجال أمام احتمالات العُجمة في ألسنة العامّة ويفتح المجال واسعًا أمام الأخذ بها في أيدي الأعاجم دون إدراك لوجود النّظائر في لغة العرب، فتلغى بذلك المفاضلة التي بين المُجتهد والمقصِّر التي قال يحيى بن خالد (ت129هـ) إقرارًا بجدواها: **"ما رأيت رجلًا قطّ إلاّ هِبتُه حتى يتكلّم، فإن كان فصيحًا عظُم في صدري، وإن قصّر سقط من عيني"**[46].

(46) الأبشيهي: المستطرف من كل فن مستظرف، ص 67.

المصادر والمراجع:

أ – العربية:

* **القرآن الكريم.**

1 – الأبشيهي: **المستطرف من كل فن مستظرف**، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، دار القلم، بيروت، لبنان.

2 – ابن الأثير،مجد الدين السعادات المبارك الجزري: **النهاية في غريب الحديث والأثر**، المطبعة العثمانية، 1311هـ.

3 – إبراهيم، محمد أبو الفضل والبجاوي، علي محمد: **أيام العرب في الإسلام**، ط3، دار إحياء الكتب العربية، 1983م.

4 – ابن هشام أبو محمد عبد الله جمال الدين: **شرح جمل الزجاجي**. دراسة وتحقيق علي محسن عيسى مال الله، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1405هـ-1985م.

5 – ابن هشام، أبو محمد عبد الملك: **سيرة النبي**، صلى الله عليه وسلم، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

6 – ابن أنس، أبو عبد الله مالك: **الموطأ**، رواية يحيى بن يحيى الليثي، إعداد أحمد راتب عرموش، دار النفائس، بيروت، 1987م.

7 – ابن جني، أبو الفتح عثمان: **الخصائص**، تحقيق محمد علي النجّار، ط2، دار الهدى للطباعة والنشر، بيروت.

8 – ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن: **كتاب الملاحن**، تحقيق عبد الإله نبهان، ط1، مكتبة لبنان ناشرون، 1996م.

9 – ابن السيّد البطليوسي، أبو محمد عبد الله بن محمد: **الاقتضاب في شرح أدب الكاتب**، تحقيق محمد باسل عيون السّود، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1991م.

10 – ابن الشجري، ضياء الدين أبو السعادات هبة الله بن علي بن حمزة العلوي: **الأمالي الشجرية**، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.

11 – ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي: **العقد الفريد**، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 1956م.

12 – ابن فارس، أبو الحسين أحمد : **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ط1، دار الجيل، بيروت، 1991م.

13 – ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري:

* **الشعر والشعراء**، تحقيق حسين تميم ومحمد عبد المنعم العريان، ط5، دار إحياء العلوم، بيروت، 1995م.

* **عيون الأخبار**، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

14– ابن مكي الصقلي: أبو حفص عمر بن خَلَف: **تثقيف اللسان وتلقيح الجنان**، قدّم له وقابل مخطوطاته وضبطه مصطفى عبد القادر عَطَا، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، لبنان، 1410هـ–1990م.

15 – ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم الإفريقي: **لسان العرب**، ط3، دار صادر، بيروت، 1994م.

16 – أبوالطيب اللغوي،عبد الواحد بن علي: **مراتب النحويين**، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، ط2، دارالفكر العربي، 1974م.

17 – الأنباري، محمد بن القاسم، **الأضداد**، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1987م.

18 – أنيس، إبراهيم ومنتصر عبد الحليم والصوالحي عطية، وخلف الله أحمر محمد: **المعجم الوسيط**، طبعة حسن علي عطية ومحمد شوقي أمين، دار الفكر.

19 – الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: **البيان والتبيين**، دار الفكر للجميع، 1968م.

20 – الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد: **الصحاح في اللغة والعلوم**، تجديد صحاح العلامة الجوهري، والمصطلحات العلمية والفنية للمجامع والجامعات العربية، تقديم عبد الله العلايلي، إعداد وتصنيف نديم مرعشلي وأسامة مرعشلي، دار الحضارة العربية، بيروت.

21 – الحباس، محمد :**دراسة تطور المفردات العربية من خلال كتب اللّحن**، رسالة ماجستير بإشراف شكري السيد الخلوي، جامعة الجزائر، معهد اللغة العربية وآدابها، 1983م.

22 – حسن، عباس: **النحو الوافي**، ط3، دار المعارف بمصر.

23 – السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن :

* **الإتقان في علوم القرآن**، وبهامشه إعجاز القرآن للقاضي أبي بكر الباقلاني، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، 1973م.

* **الاقتراح في علم أصول النحو**، تحقيق أحمد محمد قاسم، مطبعة السعادة، القاهرة، ط1، 1976م.

* **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**، تحقيق محمد جاد المولى بك، ومحمد أبي الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1986م.

24 – الشريف المرتضى: علي بن الحسين الموسوي العلوي: **أمالي المرتضى**، تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم، ط2، دار الكتاب العربي، بيروت، 1967م.

25 – الشهابي، مصطفى: **أخطاء تنقلها محطّات الإذاعة**، المجلد 42، الجزء الثاني، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، 1387هـ–1967م.

26 – العسكري، أبو هلال، **الفروق في اللغة**، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي ط5، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1981م.

27 – عوض، حمد القوزي: **المصطلح النحوي نشأته وتطوره حتى أواخر القرن الثالث الهجري**، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، 1981م.

28 – فك، يوهان: **العربية، دراسة في اللغة واللهجات والأساليب**، ترجمة رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، مصر، 1400هـ–1980م.

29 – الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب: **القاموس المحيط**، دار الجيل، بيروت، لبنان.

30 – فيصل، شكري: **المجتمعات الإسلامية في القرن الأول الهجري نشأتها، مقوماتها، تطورها اللغوي والأدبي**، ط5، دار العلم للملايين.

31 – القاسمي علي : **مقدمة في علم المصطلح**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

32 – القالي، أبو علي إسماعيل القاسم البغدادي: **الأمالي في لغة العرب**، مراجعة نخبة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، 1980م.

33 – القلقشندي: أبو العباس أحمد: **صبح الأعشى**، المطبعة الأميرية بالقاهرة، 1913م.

34 – المبرّد، أبو العباس محمد بن يزيد: **المقتضب**، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب، بيروت.

35 – مرتاض، عبد الجليل: **بوادر الحركة اللّسانية الأولى عند العرب**، دار الأشرف للطباعة والنشر والتوزيع، ط1/1988م.

36 – المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمر بن موسى: **الموشح من مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر**، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، مصر، الجديدة، 1965م.

37 – مطر، عبد العزيز: **لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة**، ط1، دار المعارف بمصر، 1401هـ–1981م.

ب– الأجنبية:

1 - Le Petit Larousse-Larousse - Paris - Cedex06, 2003.

المعجم الشعري عند علال الفاسي
بين التقليد والتحديث

أ. فتيحة بلعباس(*)

يثير مصطلح التقليد لدينا كثيرًا من التساؤل حول الحدود التي من الممكن أن نرسمها بين ما هو قديم وما يعتبر جديدًا في المجال الثقافيّ بصفة عامّة، وفي مجال اللغة، على اعتبار أنّها خطاب لا بدّ له من أن يتميّز ببعد دلاليّ يصبّ في هذه الجهة أو تلك ممّا قد يعتبر خطابًا تقليديًا أو خطابًا حداثيًا.

هل هناك قطيعة بين ما هو قديم وما هو جديد في الثقافة بمعناها الشمولي الذي لا بدّ له من أن يحتوي العادات والتقاليد وأنواع السلوك البشري من لباس وطبخ وقيم اجتماعية ورمزية في مرحلة تاريخية معيّنة وداخل مجتمع محدّد بدقّة ؟

هل تتحقّق هذه القطيعة – إن هي تحققّت فعلا – في جميع مجالات الممارسة الثقافية، في الأدب والموسيقى والفنون التشكيلية، أم تستطيع أن تنعكس في حقل حضاريّ معيّن دون أن تكون قد تبلورت في غيره ؟

ما الصورة النموذجية لهذه القطيعة في مجال الخطاب ؟ هل هناك لغة تقليدية ولغة حداثية ؟ ما هي الحقول الدلالية التي تحيل عليها لغة التقليد ولغة التجديد ؟ وهل هناك معجم خاصّ بكلّ مجموعة من هذه الحقول، قد يتميّز

(*) أستاذة باحثة – المغرب.

باستقلاله ونظامه الذاتي ؟ يبدو أنّ هذه الأسئلة ستزداد تعقيدًا وتشابكًا حين يتعلّق الأمر بالخطاب الشعريّ. وذلك لأن هذا الخطاب سلوك رمزيّ وتحقّق جماليّ أو فنّي، يعتمد اللغة الراقية في مستوى الإنجاز، إذ يتوخّاها مجالا يعكس عبره هويته التي هي هوية أدبية.

إنّ أهمّ ما يمثل هذه الهوية – في رأينا – هو المظهر اللغويّ للعمل الأدبيّ. ولكنّ هذا المظهر ليس كلمات مبثوثة في هذا العمل كيفما اتّفق، بل هو عبارة عن أنظمة دلالية تخصّ العمل الأدبيّ دون غيره من الأنشطة أو السلوكات اللغوية.

لقد أطلق تودوروف على المحتوى اللفظيّ لهذه الأنظمة مصطلح سجلات الكلام (Registre de la parole)، وجعل وصفها يمثّل أوّل مهمّة بالنسبة لعلماء الشّعرية. يقول في هذا الصدد :

"إن العمل الأدبيّ مصنوع من كلمات كما يقول اليوم دون تردّد أيّ ناقد يسعى إلى التعرف على قيمة اللغة في الأدب. لكن العمل الأدبيّ، وهو في ذلك لا يختلف عن أيّ ملفوظ لساني، ليس مصنوعًا من كلمات بل هو مصنوع من جمل وهذه الجمل تنتسب إلى سجلات مختلفة من سجلات الكلام. (والكلام مفهوم تَقْتَرِبُ منه بعض معاني لفظة "أسلوب") ووصفها يُمثّل مهمة بالنسبة إلينا،إذ ينبغي البدء بمعرفة أيِّ الوسائل اللسانية تتوفر عند الكاتب، وينبغي معرفة ما هي عليه خصائص الكلام قبل إقحامه في العمل. وهذه الدراسة الأوليّة المتعلقة بالخصائص اللِّسانية للمواد مَا قبل الأدبيّة ضرورية لمعرفة الخطاب الأدبيّ ذاته"[1].

إلاّ أنّ ما نلاحظه لدى تودوروف بعد الإقرار بمفهوم السجلّ، هو عدم تقديمه لأيّ مشروع علميّ واضح من الممكن أن ننظّم في إطاره هذا السجل الذي يخصّ اللفظ الأدبيّ أو الشعريّ.

(1) الشعرية تزفيطان تودوروف، دار توبقال للنشر، ص 38.

فيترتّب على ذلك أنّ الدراسة المعجمية لهذا السِّجلّ هي وحدها الكفيلة ببلورة خصوصيّة لغة العمل الأدبيّ وتحديد طبيعتها النوعية.

وانطلاقًا من هذا التحديد المعجميّ الذي سيتطورّ بحكم المنهج الذي سنتّبعه إلى تحديد دلاليّ، نعتبر بصورة مبدئية أنّ للتقليد في الشعر وغيره من مجالات النشاط اللغويّ سجلّه الخاصّ الذي قد نرسم عبره معالم أو سمات هذا التقليد ؛ كما أنّ للتحديث الشعريّ سجلّه الخاصّ الذي يحدّد خصائص هذا التحديث.

ولذلك فإنّه يمكن القول في هذا الصدد : إنّ المجالات الدّلالية للتقليد تختلف اختلافًا واضحًا عن المجالات الدلالية للتحديث، اعتمادًا على السِّجلّ الذي يرتكز عليه كلّ توجّه من هذين التوجّهين.

ولتنظيم دراسة هذين السجلين في شعر علاّل الفاسي، سنتوخّى :

أ – التراكم الكميّ لكلّ سجلّ على حدة، بما يبرز توجّهه التقليديّ أو التحديثيّ.

ب – السّمات الدّلالية التي تبلور هذا التوجّه أو ذاك داخل كلّ سجلّ.

ج – المحاور المعجمية للسجلّ على أساس أنّها علامات كبرى تحدّد طبيعته.

د – الحقول الدّلالية العامّة لهذه المحاور، باعتبارها حقولا لممارسةٍ شعرية تقليدية، أو مجالاتٍ لممارسة شعرية جديدة.

سنتوخّى ذلك بهدف معرفة التصنيف الذي يبدو مجحفًا بالنسبة إلينا حين يجعل من علاّل الفاسي شاعرًا تقليديًا بالمعنى السّلبيّ لهذا لمصطلح، متناسيًا مع هذا التصنيف الفضفاض والغامض أنّ الدّعوة إلى الإصلاح في المستوى الاجتماعيّ والفكريّ تقتضي الرؤية التجديدية الموازية لهذا الإصلاح، والمتضمنّة لبنية خطاب جديد قد يكون في مراحل تاريخية محدّدة بمحاذاة الخطاب

التقليديّ، يتعايش معه ويسايره، وقد يكون في مراحل أخرى في صراع حادّ معه، يريد إزاحته والحلول محلّه.

ولكنّ الذي قد نلاحظه في شعر علاّل الفاسي، بصفة عامّة، وفي شعره الوطنيّ، بصفة خاصّة، هو تمازج عناصر المعجم التقليديّ مع عناصر المعجم التحديثيّ إلى حدّ التماهي، حتّى لا فرق بينهما في كثير من القصائد ذات الموضوعات الجديدة. وهو ما قد يرجع إلى كون علاّل الفاسي عالما متشبعًا بالثقافة التقليدية، لم يتلقّ ثقافة غيرها في صباه وشبابه المبكّر، ولكنّه في الآن نفسه مثقّف ومفكّر ومناضل سياسيّ متفتّح، يدعو دعوة إصلاحية قادرة على انتشال المغرب من وهدة التخلّف، وعلى جعله في مصافّ الدول المتقدّمة التي أسّست حضارتها الجديدة تبعًا لحركات الإصلاح التي عرفتها خلال العصر الحديث، وخاصّة من ذلك حركات إصلاح عصر النهضة والثورة الصناعية.

إن التمازج بين المعجم التقليديّ والمعجم التحديثيّ يفرض علينا أن ننظّم البحث في هذا الإطار وفق ما يلي :

1 – المعجم التقليديّ ومحاوره الدلالية.

2 – المعجم التحديثيّ الساعي إلى الإصلاح والنهضة.

3 – المعجم المتمازج، أو المتماهية عناصره التقليدية والتحديثية.

ولكنّ هذا التقسيم الذي نقترحه لا يعدو أن يكون مقاربة مبدئية للمكوّن المعجميّ في شعر علاّل الفاسي، ذلك أن الظاهرة المعجمية بمجمل ما تطرحه من مشاكل دلالية وإبداعية هي ظاهرة كلية ومتكاملة لا يمكن أن نفرّق ضمنها بين وحدات معجمية عتيقة وأخرى مستحدثة، هذا النوع من التفرقة الجذرية التي تفصل بين كلّ ما هو قديم وكلّ ما هو جديد، بقصد تبيين توجّه الشاعر وتصنيف شعره بشكل حادّ ونهائيّ.

إنّ المعجم كما تبيّن كثير من الباحثين "ليس شيئًا متعاليًا على الزمان والمكان... وإنّما هو متطوّر بتطوّر اللغة القومية،..... وهو قابل لأن يتغيّر تبعًا

لمقدرات الشاعر على الخلق والإبداع... فليس هناك معجم شعري وحيد في كلّ زمان وفي كلّ مكان ضمن لغة ما، وإنّما هناك معجم شعري متطوّر محكوم بشروط ذاتية وموضوعية... فالشاعر الواحد نفسه يكون له معاجم بحسب المقال والمقام.

فقد يستعمل الشاعر ألفاظًا أو صيغًا قدُم بها العهد ترجع إلى عهود سحيقة، كأن يتداول الشاعر العباسي بعض الألفاظ الجاهلية أو الشاعر المحدث ألفاظا جاهلية أو عباسية..."[2].

ولذلك فإنّنا نؤكّد، في هذا السياق، أنّ معجم علاّل الفاسي يتميز بسمات تقليدية وسمات مستحدثة مندمجة، كما هو الأمر بالنسبة لكلّ المبدعين المتميّزين الذين لا يماري أحد في أنّهم يسعون إلى التجديد واستحداث الموضوعات التي تكفل لهم تجديد رؤيتهم الشعرية بمثل ما تمكّنهم من التعبير عن هذه الرؤية بلغة جديدة ومعجم مستحدث.

1 – المعجم التقليدي :

لا مراء في أنّ كلّ بناء لغويّ إنّما هو انعكاس شفّاف لما يدّل عليه؛ أي أنّ المستوى التمثيلي في اللغة هو أهمّ ما يتبدّى منها للمخاطب أو المتلقي. وهو ما يؤدي إلى القول إنّ موضوعات الشعر تفرض على المنتج اللغة الخاصّة بهذه الموضوعات. وقد أثار هذا الإشكال كثيرًا من الأسئلة والأجوبة لدى عدد هائل من الباحثين القدماء في مجال النقد العربيّ والنقد الأوروبي[3] على حدّ سواء. وهو ما أطلقوا عليه في غالب الأحوال علاقة اللفظ بالمعنى، ثمّ تناولوا هذه العلاقة من وجهات نظر متعدّدة، كالملاءمة، والملابسة، والتنافر، والانسجام النغمي، والنظم...

(2) تحليل الخطاب الشعري، محمد مفتاح، ص 62.

(3) انظر في هذا المجال : باب في اللفظ والمعنى، العمدة، ج 1، ص.182، و :

- Introduction à l'analyse ling. De la poésie J.Molino, et J.Tanine.

وهي مشاكل من صميم ما نحن فيه من علاقة الوحدات المعجمية بالمحاور الدلالية. والفرق بين ما نتبنّاه من مفاهيم وبين قضايا النقد القديم يكمن في أنّنا بصدد قضايا وصفية محدّدة في إطار منهجي ينتمي إلى مجال المعجم والدّلالة أكثر ممّا ينتمي إلى قضايا النقد الأدبي وما قد تحتاج إليه من أحكام قيمة ومفاضلة تميّز شاعرا عن شاعر أو صياغة لفظية عن غيرها من الصيغ.

وسنتناول في هذا الإطار الوصفي قصيدة (مجد الشرق) على أساس أنّها ذات تمثيلية قصوى فيما يخص ملاءمة المعجم التقليديّ لموضوعات الشعر التقليدية عند علاّل الفاسي.

نعم إنّ مجد الشرق موضوع شعري ينتمي إلى مشروع النهضة كما كان يمثّله الأستاذ علاّل الفاسي وغيره من شعراء ومفكّري النهضة في العالم العربيّ. وهو ما كان يقتضي منهم العودة إلى الماضي الماجد والمتقدّم الذي مثّلته الحضارة الإسلامية في العصر الوسيط. وقد ترتّب على ذلك أنّ هذه العودة كانت بهدف إعادة إنتاج هذا الماضي بحسب صيغه ونماذجه القديمة، ممّا جعل مثقّفي النهضة يفتقرون إلى كثير من إعادة النظر في النموذج القديم وخلخلته بدلا من تقديسه ومحاولة استنساخه. فأدّى ذلك في مجال الشعر إلى صياغة موضوعات هذا الماضي باللّغة نفسها التي كان يستعملها القدماء في المديح والرثاء ووصف الأشخاص والطبيعة والمشاهد اليومية، ومن هذا المنظور يمكننا أن نسميّ هذا النوع من الإنتاج الشعريّ اتجاها تقليديًا صميمًا عند علاّل الفاسي وعند غيره من شعراء النهضة والبعث في المشرق والمغرب على حدّ سواء.

ولإثبات هذا النوع من التوجّه الشعريّ عند علاّل الفاسي يمكننا أن نستشهد بالمقطع التالي من قصيدته "مجد الشرق" :

لمن طَلَلٌ في الشرق أصبح خاليا ... به أثرٌ للمجد ما زال باقيا
يُذكّرنا عهدًا تَحنُّ نُفوسُنا ... إليه، فنُجري الدمع أحمرَ قانيا
يذكرنا عهدَ السيادة والعُلاَ ... وَعصرًا به كنا الملوكَ المَوَاليا
عَلَوْنا به فوق السُّهى عن جدارةٍ ... وفُقنا به حتى النجومَ العواليا
ملكنا زمام الحكم شرقًا ومغربًا ... بعدلٍ مَحَا الظلم الذي كان فاشيا
وكنّا إذا ما هزَّ ذو الملك رأسَهُ ... علينا، أملناه إلى الترب داميا
وإنْ أمةٌ تاهت علينا وفاخرت ... أَبَنَّا لها ما كان في الفخر ثاويا
بعثنا لها جيشا من الأسْد عامرًا ... يُناولها كأسَ المنية صافيا
تخالُ به والحرب في هَيَجانها ... غَضافرَ تصطاد الوحوش ضواريا
إذا زَأَروا فرَّ العدوُّ بنفسه ... ولم يكُ بالعار الكبير مُباليا
كماةٌ، إذا ما أتعبَ القِرنُ نفسَهُ ... فحسبُ فتاهُمْ أن يهز اليمانيا
إذا اشتعلتْ نارُ الحروب تحالفوا ... على أن يبيدوا بالرماح الأعاديا
فلم يكُ إلا قدرُ طَرْفةِ ناظرٍ ... إذا بكَ أبصرت الديَارَ خَواليا
وأبصرتَ ساحاتِ الوغى وكأنما ... ترى عندها سَيْلاً من الهام جاريا
كأنْ (فاح فيها بينهم، عطرُ مَنشِم) ... وأسيافهم ما إن تزالُ صواديا
أتذكر حربًا إذ في الشَّآم تأججت ... ونال صلاح الدين فيها الأمانيا
وكان بها للشرق أعظم مفخَرٍ ... يجوز به فوق السماك المراقيا؟[4]

أ – السّجلّ التقليديّ

طَلل : آثار سكن قديم، جاهلية.

غضافر : أسود، غريب.

كماة : فرسان، غريب، جاهلية.

القرن : الشجاع البطل، غريب، جاهلية.

(4) ديوان علال الفاسي، "مجد الشرق"، الجزء 1، الطبعة 2، 1998، ص. 58-59.

اليماني : السيف، جاهلية.

الرماح : أداة حرب قديمة، جاهلية.

الوغى : الحرب، جاهلية.

الهام : الرؤوس، جاهلية.

منشم : اسم امرأة عطّارة، إذا تطيّبوا من عطرها اشتدّ الشر بينهم فسارت مثلا.

السماك : من الكواكب

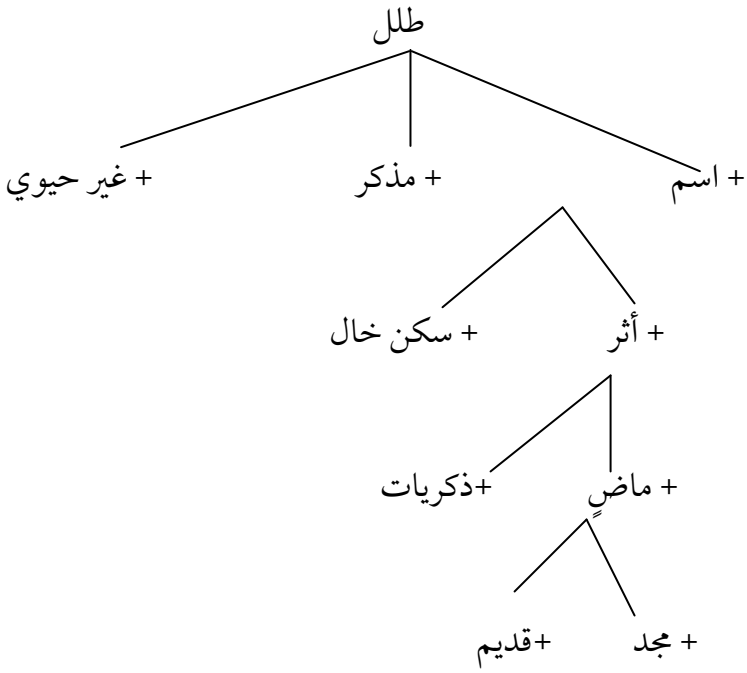

فنستخلص أنّ الطلل استعارة تدلّ على المجد العريق الذي عرفه العرب والمسلمون في ماضيهم البعيد، ثمّ تحوّل إلى أثر امّحت معالمه وغابت مقوماته. إنّه المجد العربيّ الذي تحوّل إلى اندحار وهزيمة في العصور الحديثة فأصبح يشكل

بحكم ذلك موضوعا للحنين والذكريات التي قد تستنهض العرب والمسلمين لمواجهة تخلّفهم الحديث.

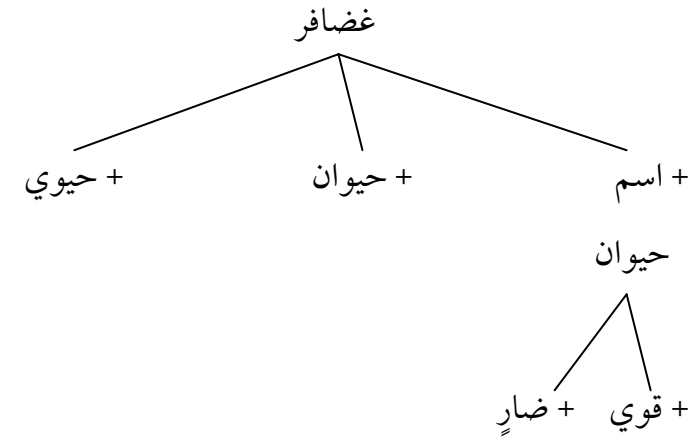

إنّ الإنسان الذي حقّق المجد العربيّ السالف كان إنسانًا قويًا وشجاعًا ومقدامًا يشبه أسد الشّر في ضراوته وجبروته.

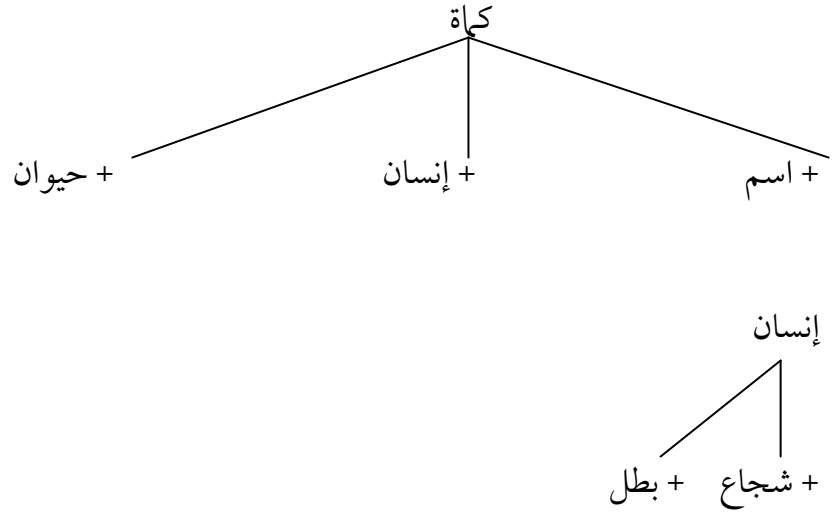

إنّه إنسان بطل لا تعرف الهزيمة إليه طريقًا، إذ كلّما خاض حربًا خرج منها منتصرًا ظافرًا، مضيفًا مجدًا جديدًا إلى أمجاد قديمة.

فلعلّ أهمّ ما نلاحظه في معجم هذه القصيدة هو أنّه معجم عريق في القدم، يذكّرنا بقصائد المتنبي، بل بأعوص ما كان يستعمله شعراء العصر العبّاسي من ألفاظ مهملة وجاسية أطلق عليها النقّاد القدامى مصطلح الغريب. وهم يقصدون بها الألفاظ التي تخفى على علماء اللغة والشعر، فيحتاجون معها إلى البحث والتمحيص. وكمثال على ذلك نجد أنّ الغضافر هي جمع غضنفر، والغضنفر اسم من أسماء الأسد. وكذلك الكماة جمع كمّي، وهي من صفات البطل الشجاع الذي لا يتراجع في الحرب أو يخافها.

وقس على ذلك القرن، واليماني، والوغى، والمنشم، والصوادي، والسِّماك، ممّا يجعل هذه القصيدة في مجملها قصيدة ذات نسج غريب ومغرق في تعمّل استعمال الألفاظ العتيقة وشبه المهملة في الممارسة الفنية حتّى لدى شعراء الأقدمين. ولذلك فإنّنا مضطّرون لأن نطرح السؤال التالي على أساس كونه سؤالا ضروريًا ووجيهًا في هذا السياق، نعني تعمّل الغريب في شعر علاّل الفاسي :

هل هو تكلّف مقصود من طرفه، أم أنّ المسألة أعمق من ذلك وأبعد حدّا في التوجّه الشعري لديه ؟

إنّ أهم ما يمكن أن نجيب به عن هذا الإشكال يتلخّص فيما يلي :

أ – يجب ألا ننسى أنّ هذه القصيدة نظمت نحو سنة 1927 [5]،

فيترتّب على ذلك أنّنا بصدد شاعر من العقد الثالث للقرن العشرين، حيث الثقافة السائدة في المغرب آنذاك ثقافة تقليدية وعتيقة ومغرقة في ارتباطها بالماضي العربيّ والإسلاميّ الذي يمثّل نموذجها الأقصى ومثالها.

ب – إنّ هذه الثقافة كانت تنظر إلى الشعر نفسه على أساس أنّ صورته المثالية ونموذجه الجمالي الرّفيع هو ما جاء في دواوين القدماء وقصائدهم، سواء

(5) انظر، ديوان علال الفاسي، ج 1، ص 58.

فيما تعلّق بالموضوع أو الصياغة الفنية. ومعنى هذا أنّ النظرة إلى الشعر كانت هي نفسها نظرة سلفية ترتبط بالماضي وتريد بعثه في الحاضر.

ج – إنّ هذه المفارقة، التي تتحدّد في الارتباط بالماضي، ومحاولة تنفيذ نموذجه في الحاضر، هي التي جعلت جيل علاّل الفاسي جيلا للقلق والثورة والاصطدام بالغرب. ومن هنا كانت الثقافة التقليدية لديه احتماء بالماضي وارتباطا بالتاريخ والهوية. هذا الارتباط لم يكن عند الوطنيين ارتباطا أعمى يقبل الماضي كلّ الماضي دونما أيّ تمحيص واعٍ أو اختيار قصدي، بل كان ارتباطا متفتحًا على الحاضر، يحاول خلخلته وإعادة بنائه، وفق معايير جديدة ونماذج حاضرة، وخاصّة من ذلك النموذج الأوروبي الذي لم يكن سبب نكسة بالنسبة للوطنيين، بقدر ما كان حافزا يحثّهم على اللحاق بالحضارات الجديدة، من خلال بعث الصورة المشرقة للحضارة العربية والإسلامية.

ولقد ترتّب على هذه النظرة الماضوية للحاضر، واستيحاء صورة الأمجاد القديمة لبناء المستقبل، أنّ موقف علاّل الفاسي من المجد العربيّ القديم لم يكن مسألة افتخار به وحسرةً عليه، ثمّ استسلامًا لواقع متدهور وانهزامي في مواجهة الاستعمار الأوروبي، بل كان بعثًا لقيم الماضي العريق المرتبطة في رأيه بالهوية والأصالة وتاريخ الأمّة المغربية وحضارتها.

إنّ المعجم الملائم لهذه الرؤية المفاخرة بالعروبة والإسلام في صورتهما الماضية، معجم يحتفل بالألفاظ القوية والغريبة ذات الإيحاء الإيقاعي الصاخب، والبناء الصوتي بعيد الصدى، بما يوحي فعلا أنّها ألفاظ عربية صميمة ووحدات معجمية ذات اشتقاق لغويّ فصيح ومتجذّر في لغة القدماء.

2 – المعجم التحديثي

لقد كانت موهبة علاّل الفاسي في الفكر والإبداع موهبة ذات توجّه يتجاذبه قطبان اثنان يحاول أن يوافق بينهما فيجعلهما منسجمين ومتناسقين يكشفان في المحصّلة الأخيرة عن أنّنا بصدد شخصية مغربية ذات جذور عريقة

في القدم، ومتميّزة في الآن ذاته بطموحات متعدّدة تريد في ضوئها انبعاث أمّة وبناء حضارة.

فنتج عن ذلك أنّ الإنجاز الشعريّ لديه مثّل هذه المفارقة المنسجمة، وهذا التناقض المتجانس. ويمكننا أن نتخذ من قصيدته: "الهزار الساكت" نموذجًا صارخًا وأصيلا للتحديث الشعريّ الذي شكّل بالنسبة إليه هاجسًا قويًا منذ أوليات إنجازه الإبداعيّ.

يقول من هــذه القصيــدة :

سألتُ هزاريَ عنـدالصبــاحْ :
لماذا السكوتُ ؟ وفيمَ الجفـاء ؟

عهدتُ الهزارات بين البطـــاح
تغنــي بألحانهــا في انتـــشــاء

فأيــن الـذي لـكَ من لحنـهـا ؟
وأيــن أغــاريـدُكَ الباكــرةْ ؟

وأيــن ابتكــارُكَ في فَنِّــها ؟
أتبخــلُ بالرَّنَّـــةِ الساحــرةْ ؟

علامَ السكوتُ، وهذا الربيــعْ
تجلَّى يَبُثُّك نجوَى الحيـــــاة ؟

فأصــغِ إليه بقلــبٍ سمــيــع
وردّدْ أغـــاريـــده وغنـــاه[6]

(6) ديوان علال الفاسي، "الهزار الساكت"، الجزء 1، الطبعة 2، 1998، ص 78-79.

من الجدير بالذكر قبل التعرّف على معجم هذه القصيدة بنوع من التفصيل، أنّها قصيدة نظمت قبل سنة 1930؛ وهو مؤشر أساسيّ بالنسبة إلينا، إذ يتصوّر كثير من الناس أنّ الشعر المغربي في هذه المرحلة كان في مجمله شعرًا تقليديًا، جامدًا لا روح فيه ولا إبداع ولا تجديد، في حين أنّ القصيدة التي بين أيدينا وثيقة حيوية تشهد على أنّ هذه المرحلة عرفت انفتاح المغرب على المشرق العربي الذي أسّس نهضة الشعر الحديث، وعلى الموجة الرومانسية التي امتدّت من أوروبا إلى مجمل مناطق العالم، فكان أن تأثر علاّل الفاسي بالتيار الكلاسيكي كما تجسّد عند البارودي وشوقي، ثمّ تفاعل مع الموجة الرومانسية لدى جبران وإيليا أبي ماضي والشابّي.

إن قصيدة "الهزاز الساكت" نموذج رائع لتفاعل علاّل الفاسي مع التيار الرومانسي. ويظهر ذلك من خلال جملة أمور يمكننا أن نحدّدها فيما يلي :

أ – مستوى الوزن

عَرُوض القصيدة عَرُوض سهل وميسّر تغلب عيه الخفّة والحركة البسيطة، إذ يتألّف كلّ مقطع فيها من أربع تفعيلات، هي :

فعولن فعولن فعولن فعولن

ثمّ إنّها لا تتألّف من مجموعة أبيات ذات شطرين ورويّ موحّد، ولذلك فإنّها ليست قصيدة عمودية موصلة بالتيار التقليديّ عند علاّل الفاسي ؛ وإنّما هي خرق للقاعدة الكبرى في هذا التيار، أعني بذلك أنّه تيار قائم على وحدة البيت، وأنّه متى ما لم يتمّ المعنى الشعريّ ضمن هذه الوحدة فإنّ العيب يلحق الشعر والشاعر في آن واحد، ونعني بذلك عيب التضمين[7].

لقد كان تكسير وحدة البيت هاجسًا أساسيًا لدى المدرسة الرومانسية، إذ أرادت تأسيس ما سمّته فيما بعد بالوحدة العضوية؛ أي بناء القصيدة على أساس

(7) انظر باب التضمين من كتاب العمدة، ج2، ص 130 فما بعد.

أنّها عمل متكامل وبنية مترابطة تتفاعل داخلها كلّ عناصر الإبداع الفنّي وتتواشج حتّى لا فرق بين البيت والمقطعوعة والنصّ في مجمله.

فلعلّ من معطيات هذا التفاعل أنّ الوزن السهل والبسيط الذي اعتمده الشاعر في النصّ الذي بادرنا إلى التأكيد أنّه نصّ تحديثي بوزن فرض على المبدع معجمًا متداولا وأنيقا، موصولا بالحداثة الشعرية كما تمثّلت عند مدرسة الديوان والمدرسة الرومانسية. وهو ما سنتناوله ببعض التفصيل في سياق التحديث المعجمي عند علاّل الفاسي.

ب – مستوى المعجم

1 – السّجلّ التحديثيّ

هزار : طائر – جميل – حسن الصوت.

الجفاء : خصومة.

البطاح : جمع بطحاء – ساحة – مكان واسع.

انتشاء : سرور.

أغاريد : جمع أغرودة – نشيد – أغنية.

ابتكار : إبداع.

تجلّى : ظهر.

عرَاه : ألمّ به.

شدو : غناء.

الطليق : الحرّ.

لقد اخترنا من هذه القصيدة عشر وحدات معجمية قد تبدو بالنسبة للقارئ العادي ألفاظا غير مألوفة أو متداولة، فاعتبرناها ذات تمثيلية قصوى فيما يخصّ السجل الذي يعكس تحديث المعجم الشعريّ عند علاّل الفاسي، بما يدلّ في صورة واضحة على أنّه لم يكن شاعرا تقليديا في مجمل إبداعه، بل حاول جهد الإمكان أن يمثّل مرحلة التحديث الشعريّ في العالم العربيّ، سواء في مستوى البنية الإيقاعية، أو فيما يتعلّق بالمعجم المتجانس مع هذه البنية، وكذا فيما يخصّ المواضيع الجديدة التي لم يتناولها الشعر التقليدي في المغرب والمشرق على حدّ سواء.

وفيما يلي محاولة تبيّن سمات هذا المعجم التحديثي أو علاماته المميّزة.

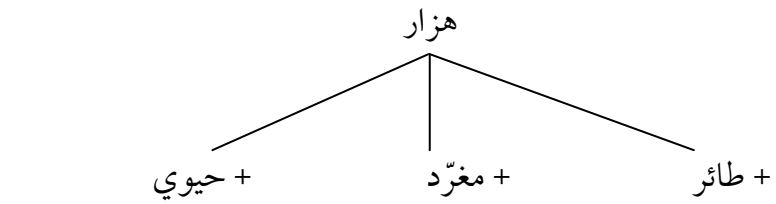
هزار
+ طائر
+ مغرّد
+ حيوي

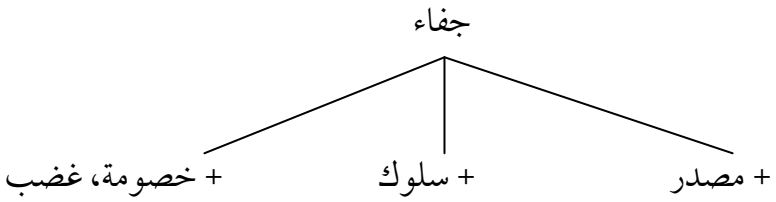
جفاء
+ مصدر
+ سلوك
+ خصومة، غضب

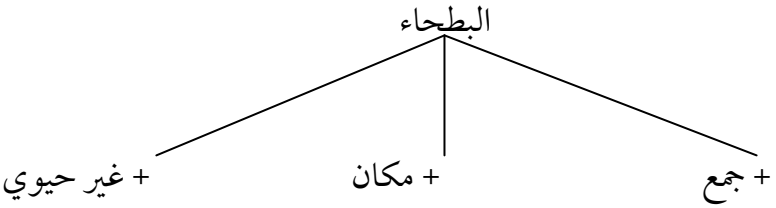
البطحاء
+ جمع
+ مكان
+ غير حيوي

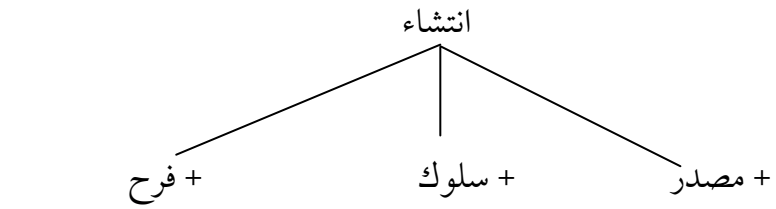
انتشاء
+ مصدر
+ سلوك
+ فرح

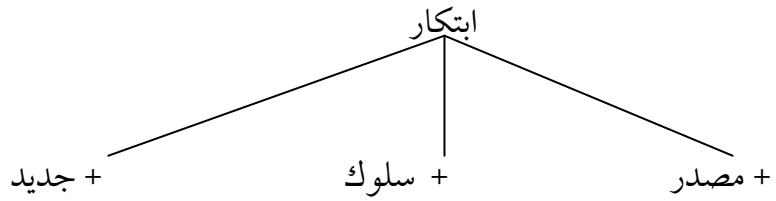
ابتكار
+ مصدر
+ سلوك
+ جديد

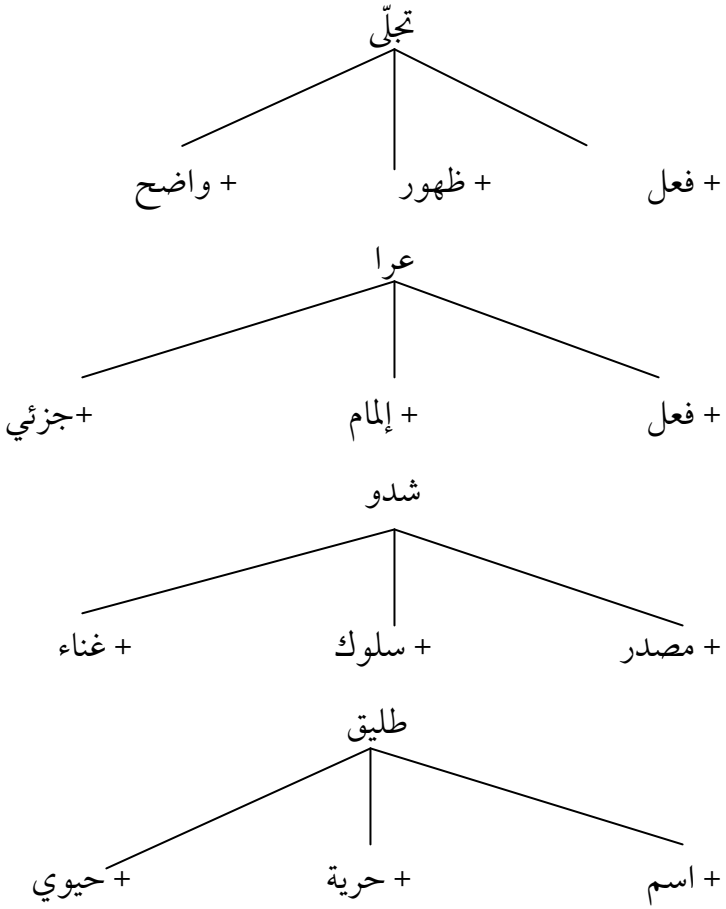

لعلّ أهمّ ملحوظة نستشفّها من خلال هذا التحليل هي غلبة المصادر على الوحدات المعجمية التي تتكوّن منها المدوّنة التمثيلية التي اخترناها. وهي مصادر تدلّ في مجملها على أنواع من السلوك التي يبديها الطائر بإزاء الذات الإبداعية. وقد حدّدنا هذه الأنواع في :

أ – الغضب.

ب – الفرح.

ج – الغناء.

د – الإبداع.

ألا يمكننا أن نستخلص أنّ الهزار يتطابق مع الذات الإبداعية حتّى لا فرق ؟ أي أنّ هذه الذات تعاني من الصمت وعدم الكلام في وقت تصبو فيه إلى الفرح والغناء والإبداع ؟ لقد سبق أن ذكرنا بأنّ هذه القصيدة قيلت نحو سنة 1930 ؛ وهي مرحلة اشتدّ فيها بطش الاستعمار بالمغاربة، وكان الفرنسيون قد أخذوا في تنفيذ بعض السياسات التي توافق مكوّنات الظهير البربري الذي سيعلنون عنه بوضوح سنة 1930، ومعنى هذا أنّ القمع كان قد اشتدّ بعلاّل الفاسي ورفاقه من الوطنيين، وأنّه قمع سيؤدّي به هو إلى النفي وبكثير من أصدقائه إلى السجن، ولذلك فإنّه كان في حالة قصوى من الحزن، فاستوحى من هذه الحال قصيدته الهزار الساكت لفرط كآبته وألمه حتّى كونه لم يعد قادرا على الإبداع، وذلك لأنّه أسير مقيّد يعاني من فقدان الحرية كالطائر السجين تماما :

ذكرتُ بلاديَ مأسورةً
بأزهـارهـــا وبلابِلهـا
وأفكارَ قومي مَقهورةً
وقد أُثْقِلَتْ بسلاسلها[8]

إن أهمّ ما قد نستخلصه من خلال تأمّلنا لمعجم هذه القصيدة هو الفرق الشاسع بين وحدات هذا المعجم ووحدات معجم القصيدة السابقة.

ويتمثّل هذا الفرق الجوهريّ بينهما في كون كلّ واحدة من القصيدتين تمثّل اتجاهًا شعريًا مستقلا، ونعني بذلك أنّ "مجد الشرق" نصّ مغرق في الاتجاه التقليديّ، حتّى لكأنّه قصيدة نظمها المتنبي أو أبو تمّام. في حين أنّ "الهزار الساكت" قصيدة من صميم التحديث الشعريّ عند علاّل الفاسي. ولذلك فإنّها تمثّل مع "مجد الشرق" مفارقة أساسية سواء بالنسبة لعلاّل الفاسي أو بالنسبة لجيله من رواد الوطنية في المغرب وغيره من بلدان العالم العربيّ.

(8) ديوان علال الفاسي، "الهزار الساكت"، الجزء 1، الطبعة 2، 1998، ص 82.

إنّها مفارقة الميراث الحضاريّ التقليديّ ومحاولة التحديث الاجتماعيّ؛ أي محاولة التخلّص من التخلف الذي آلت إليه المجتمعات العربية بعد مجدها القديم، ثمّ العمل على بناء مجتمع حداثيّ جديد على غرار المجتمعات الأوروبية والمتقدّمة التي فجّرت هذه المفارقة وأثارت مجمل عناصرها حين عمدت إلى السيطرة على بلدان العالم العربيّ، فأصبحت عن طريق هذه الصدمة نموذجًا لبلدان هذا العالم، تحاول استيعابه وتمثّله، ثمّ مقاومته ومحاولة اللحاق به في آن واحد.

تمثلت مفارقة الماضي والحاضر في الشخصية المغربية إبان فترة الاستعمار بحدّة وقوة، وانعكست في السلوك اليومي للمغاربة وفي فكرهم الوطنيّ والسياسيّ، ثم إنتاجهم الثقافيّ والإبداعيّ. ولذلك فإنّها تجسّدت بحدّة أكثر في المعجم الشعريّ عند الفاسي وغيره من شعراء المغرب في هذه الفترة كمحمد بن إبراهيم والمختار السوسي والطيب العلوي مثلا.

التّعدُّد اللغويّ والتنمية البشريّة

د. علي القاسمي(*)

تمهيد:

إنني معلم بالمهنة. وحدثَ أن استخدمني البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة لمراجعة ترجمة بعض تقاريره من الإنجليزية إلى العربية، وهي تقارير بعنوان **"التنمية البشرية"** تصدر سنويًا منذ عام 1990، بعد أن توصّل أحد خبرائه، الباكستاني محبوب الحق، إلى طريقةٍ وتقنيّاتٍ تمكّن الدول الأعضاء من تحقيق التنمية البشريّة. ويشرح هذا التقرير السنويّ الوسائل الواجب اتباعها، ويستعرض بعض تجارب التنمية البشريّة في عدد من البلدان، وينتهي بقائمة لجميع الدول الأعضاء في الأمم المتحدة مع موقعها على سلّم التنمية البشريّة.

وقد لاحظتُ أن بعض الدول، مثل كوريا وفنلندا، كانت في الخمسينيات من القرن الماضي أكثر تخلّفًا وفقرًا من البلدان العربية، ثم استطاعت خلال جيل أو جيلين (حوالي 25 أو 50 سنة) أن تنجز قفزة عالية في التنمية البشرية، على حين أن بلداننا العربية ازدادت تخلّفًا وفقرًا، ممّا دفعني إلى البحث في التنمية البشريّة، وزيارة فنلندا وكوريا لدراسة حالتيهما. وقد تأكّد لي أن التعليم الذي تتعهّد به

(*) باحث من العراق.

الدولة لكل أبنائها وبناتها على حسابها وباللّغة الوطنية المشتركة في جميع مراحله ومستوياته وتخصصاته، يساعد على إيجاد مجتمع المعرفة القادر على القيام بالتنمية البشرية. كما تأكّد لي أن التعدُّد اللغويّ على أنواع؛ منها ما يدعم التنمية البشرية، ومنها ما يعرقلها.

المفاهيم الأساسية في الموضوع:

في هذه الورقة، ثمّة مفهومان أساسيان، التعدُّد اللغويّ والتنمية البشريّة، بينهما جدلية التأثير والتأثُّر، ولكنهما لا يؤلّفان متلازمة بالضرورة، وسنتطرق أولاً إلى تحديدهما:

التعدُّد اللغويّ:

يمكن تعريف "التعدّد اللغويّ" بأنه "استعمال أكثر من لسان واحد"، أي استعمال أكثر من لغة واحدة، سواء أكان هذا الاستعمال يتعلّق بشخص، أم مؤسَّسة، أم نظام تعليمي، أم قُطر من الأقطار، أم معجم، أم ما شابه ذلك. فنقول : شخص متعدِّد اللغة، أو بلد متعدِّد اللغة، أو معجم متعدِّد اللغة. (مع ملاحظة أن اللغات التي تفرّق بين المثنى والجمع تُطلق "تعدّد اللّغة" على استعمال أكثر من لغتيْن).

ولأسباب تاريخيّة وجغرافيّة وسكانيّة ولسانيّة، لا يوجد في العالم قطر من الأقطار يتكلّم أهله لغة واحدة فقط، فجميع الأقطار متعدّدة اللغة، ما عدا أيسلندا التي يعدّها بعضهم الاستثناء الوحيد الذي يؤكِّد القاعدة. فجميع الأقطار تضمُّ جماعات لغوية مختلفة ما يؤدّي إلى التعدُّد اللغويّ في كل قطر.

ومن المنظور اللسانيّ البحت، لا يدخل استعمال الدارجة في التعدُّد اللغويّ، لأن الدارجة لهجة، واللهجة مستوىً من مستويات اللّغة أو شكلاً من أشكالها يمثّل نوعًا ذا سمات لغويّة خاصة في منطقة جغرافيّة معينة. واللّهجة لا تَرقى وظيفيًا إلى مصاف اللّغة الفصيحة المشتركة، بسبب ضآلة مفرداتها

ومصطلحاتها، وفقر بنيتها وتراكيبها، ومحدودية نطاقها الجغرافيّ، فهي تتباين من منطقة إلى أخرى، ومن مدينة إلى مدينة، ولا تصلح للتفكير المنطقيّ التجريديّ ولا التعبير عن الأبحاث العلميّة، ولا الاستعمال المشترك الواسع، فهي صالحة للاستخدام اليومي السريع. بيدَ أن الدارجة يمكن أن تدخل ضمن " التعدُّد اللغويّ واللهجيّ".

التنمية البشريّة:

كان مفهوم التنمية الاقتصاديّة يأخذ في النظر نموّ الإنتاج في البلاد وزيادة الدخل القوميّ. ولكن هذا المفهوم قد تطوَّر ليشمل الجوانب الاجتماعيّة والثقافيّة والسياسيّة لتكون التنمية شاملة بحيث يُطلق عليها اسم "التنمية البشريّة" أو "التنمية الإنسانيّة" التي تتخّذ من "الرفاه الاجتماعيّ" معياراً لها، ليعبّر عن إشباع حاجات المواطنين الأساسيّة من سكن وغذاء وتعليم، وتمتعهم بالرعاية الصحيّة والضمان الاجتماعيّ والخدمات الأُخرى. وتتَّصف التنمية البشريّة بالشمولية، فهي لا تقتصر على عنصر من عناصر الإنتاج، بل تشمل الإنسان والأرض معًا، ولا تكون لفائدة فئة من المواطنين دون غيرهم، ولا لمصلحة جهة دون أخرى، بل يشارك فيها جميع المواطنين رجالاً ونساء في جميع أنحاء البلاد، وتعمُّ فائدتها جميع المواطنين، وهدفها تحسين نوعية الحياة، لتمكين كلّ مواطن من العيش بطريقة تليق بالكرامة الإنسانيّة، وينطبق عليها القول العربيّ القديم الذي يجعل من مهمة الدولة " استصلاح العباد وعمارة البلاد". فالدولة هي التي تخطط للتنمية البشرية وتنفّدها وترعاها.

وطبقًا لتقرير البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة، يعكس معدّلُ التنمية البشريّة إنجازات البلاد في ثلاثة مجالات:

1 – **انتشار المعرفة**: ويُقاس بمستوى التعليم بين الكبار، وبمعدّل التمدرس في التعليم الابتدائي والثانوي والعالي.

2 – **الصحَّة**: أي تمتُّع المواطنين بصحَّةٍ جيِّدة وعمرٍ مديد، ويُقاس ذلك بمعدّل العمر المتوقَّع عند الولادة. فكلّما كان ذلك المعدل مرتفعاً،

دلّ على تمتُّع المواطنين بالخدمات الضرورية، التعليميّة والطبيّة والصحيّة وغيرها.

3 – **مستوى المعيشة**، ويُقاس بالدخل الفردي (وليس بالدخل القومي)، ومدى قدرته على توفير متطلبات العيش من سَكَن ومَلْبَس ومأكَل بصورة راضية.

ويتكامل مفهوم التنمية البشريّة مع مفهوم التنمية المستدامة الذي يتعلق بتأثير المحيط الاجتماعي بمعتقداته وعاداته وتشريعاته، في المحيط الحيوي بما فيه من أرض وهواء وماء، بحيث نتجنّب المشكلات البيئية مثل التلّوث والتصحّر وتناقص المياه، وغيرها.

ولقد أصبحت وصفة التنمية البشرية معروفة مشهورة، أخذت بها بلدان فقيرة متخلّفة فأصبحت، خلال جيل أو جيلين، من البلدان الغنية المتقدِّمة. ومن هذه البلدان على سبيل المثال لا الحصر، ماليزيا، وفنلندا، وكوريا، وتركيا.

تبدأ وصفة التنمية البشرية باتفاق القيادة أو النخبة الحاكمة على ضمان مقوّمات التنمية البشرية. ويمكن إيجاز هذه المقوّمات بثلاثة:

أولاً، اتخاذ الديمقراطية منهجًا وأسلوبًا في الحياة، لتحقيق العدالة الاجتماعيّة، والإنصاف، وتساوي الفرص أمام المواطنين، وإطلاق طاقاتهم الخلاّقة. وهذا يعني ضمان حقوق الإنسان الطبيعيّة، والمدنيّة، والسياسيّة، والاقتصاديّة لجميع المواطنين. وتعني الحقوق الاقتصاديّة حصول المواطن على تعويض عن البطالة، والشيخوخة، والعجز. وتعني الديمقراطية كذلك تداول الحُكم، وتوافُر الشفافية والمسؤولية فيه بحيث تمتنع النخبة الحاكمة عن سرقة أموال الشعب أو اختلاس خزينة الدولة ومواردها.

ثانياً، توفير تعليم جيد لجميع أبناء الشعب على نفقة الدولة، وينبغي أن يكون هذا التعليم باللغة الوطنية المشتركة، ليستطيع الطلاب استيعاب

المعلومات وتمثّلها والإبداع فيها. هذا النوع من التعليم يؤدّي إلى إيجاد مجتمع المعرفة القادر على تلقّي المعرفة، واستيعابها، وتبادلها، وتمثّلها، وإنتاجها.

ثالثاً، الأخذ بآخر معطيات العلم والتقانة (التكنولوجيا) في الإنتاج والخدمات، ما يؤدي إلى زيادة الانتاجيّة والإسراع بها وارتفاع المردوديّة.

وطبيعي أن عملية التنمية البشريّة بحاجة إلى سِلْمٍ أهلي ناتج عن التماسك الاجتماعي والشعور بالانتماء الوطني اللّذيْن تغذيهما سياسة تربويّة وإعلاميّة وثقافيّة، تؤصِّل الهُوية الجماعيّة مستفيدة من عناصر الهُوية المشتركة كالدين واللغة والتاريخ المشترك والجغرافية والتراث، والأمل في مستقبل زاهر.

التعدُّد اللغويّ في النظام التربويّ:

يتّخذ التعدُّد اللغوي في النظام التربويّ أشكالاً متعددة يمكن تقسيمها إلى صنفين: صنف يساعد على التنمية البشريّة، وصنف يعرقلها:

- تعدُّد لغويّ يساعد على التنمية البشريّة:

ولهذا التعدُّد اللغويّ نوعان:

أولاً، تعليم اللغات الوطنية:

أي أن النظام التربويّ يشتمل على تعليم اللّغات الوطنيّة إلى جانب اللّغة الوطنيّة المشتركة، ويُوصَف بأنه نظام تربويّ متعدِّد اللّغة.

في العالم العربيّ، توجد لغات وطنية عديدة إلى جانب العربية الفصيحة المشتركة، مثل اللّغة الآشوريّة بلهجاتها المتنوعة في العراق، واللّغة السريانيّة في سوريا، واللغة القبطيّة والنوبيّة في مصر، واللغة الأمازيغيّة بلهجاتها المتنوعة في بلدان المغرب العربيّ. وكانت بعض هذه اللغات لغات عالمية ذات ثقافة متميِّزة ومكتبات ضخمة.

فإذا اضطلع النظام التربويّ في أحد البلدان العربيّة بتعليم اللّغات الوطنيّة إلى جانب اللغة العربية الفصيحة المشتركة، وُصف هذا النظام بالتعدُّد اللّغوي.

ولتعليم اللغات الوطنيّة في البلدان العربية ثلاث فوائد أساسية:

الأولى، تأمين الحقوق اللّغوية لأبناء الأقليّات الناطقة بتلك اللّغات الوطنيّة، ممّا يؤدّي إلى شعورهم بالعدالة والانتماء الوطنيّ، وتجنّب التوترات الاجتماعيّة، والإسهام في التنمية البشريّة.

الثانية، يؤدي تعلُّم الأطفال في المدرسة الابتدائية لغتهم الوطنية المستعملة في منطقتهم والتي يتحدّث بها أهلهم، **وظيفة نفسية تربوية** تزيد من احترام الذات، والتحفيز على الدرس والتعلّم، والتمهيد لتعلّم اللّغة الوطنية المشتركة واللّغات الأجنبية في مرحلة تالية.

الثالثة، تنمية هذه اللّغات الوطنية والحيلولة دون انقراضها، فالثقافة التي تحملها هذه اللّغات الوطنية هي رافد من روافد الثقافة الوطنية المشتركة؛ إضافة إلى أن لبعض هذه اللغات أهمية تاريخية، فالسريانية، مثلاً، هي المستوى الأدبي للّغة الآرامية التي تكلّم بها السيد المسيح (ع)، وللّغة الآشورية التي كانت لغة عالمية تراث مدوَّن ضخم يساعدننا على الوقوف على تطوّر المعرفة الإنسانية وتاريخ العلوم.

بيدَ أن تعليم هذه اللغات الوطنية ينبغي أن يكون ضمن تخطيط لغوي مدروس يراعي الجوانب الوظيفية للّغة والفوائد العملية المرجوة من تعلُّمها، ولا يؤدي إلى الإضرار بمقدرة الطفل على استعمال اللّغة الوطنية المشتركة على قدم المساواة مع بقية الأطفال؛ أي يجب عدم النيل من تساوي الفرص التعليمية والوظيفية بين أطفال الأقليات وبقية الأطفال. ولهذا فإن تعليم اللّغات الوطنية يتم لفترة معينة خلال التعليم الابتدائي، ويجري التركيز على تعلُّم اللغة الوطنية المشتركة وتطوير قدرات الأطفال على استيعابها والتعبير بها في جميع مراحل التعليم.

إن تنمية اللّغات الوطنية وتعليمها في النظام التربويّ تصبُّ في صالح التنمية البشرية، لأن شعور أبناء الأقليات اللغوية باستيفاء حقوقهم كاملة بما فيها الحقوق اللغوية يزيد من التماسك الاجتماعي في البلاد، ويسهم في السِّلْم الأهلي اللازم للتنمية البشرية، ويكثِّف من مشاركتهم في العملية التنموية.

ثانياً، تعليم اللغات الأجنبية:

يوصَف النظام التربويّ بالتعدُّد اللغويّ كذلك، إذا عُني بتعليم عددٍ من اللّغات الأجنبية العالمية في المراحل التعليمية المختلفة. ويتكفّل التخطيط التربوي اللغوي باختيار هذه اللغات الأجنبية: أهدافها، عددها، المرحلة التي تُعلَّم فيها كلّ لغة، عدد السنوات الدراسية، وعدد الحصص الأسبوعية المخصّصة لها، إلخ.

يُسهم هذا النوع من التعدُّد اللغويّ في التنمية البشريّة إسهامًا مباشرًا، لأن الانفتاح على ما يستجدّ في الفكر الإنساني هو وسيلة من وسائل تنمية الثقافة، وتشجيع الترجمة، ونشر المعرفة، وتوسيع الخيارات الثقافية أمام الأفراد، وإيجاد مجتمع المعرفة القادر على تحقيق التنمية البشرية.

- تعدُّد لغوي يعرقل التنمية البشرية:

لهذا الصنف من التعدُّد اللغوي نوعان:

الأول: تعدد لغوي ثقافي في النظام التربوي:

في البلدان العربية يتمظهر هذا النوع من التعدُّد اللغويّ في وجود نوعيْن من مدارس التعليم العام، هما:

أ - **مدراس أجنبية**، تعلِّم منهجًا أجنبيًا باللغة الأجنبية. ففي المشرق، توجد مدارس بريطانية وأمريكية، تعلّم المنهج البريطاني أو الأمريكي باللّغة الإنجليزية؛ وفي البلدان المغاربية، توجد مدارس فرنسية، تعلّم المنهج الفرنسي باللّغة الفرنسية. ويعكس هذا الاختلاف بين المشرق والمغرب هُوية المُستعمِر

القديم الذي منح البلدان العربية استقلالا مشروطًا بالتبعية الثقافية والاقتصادية له. وتتقاضى هذه المدارس الأجنبية أجورًا عالية فلا يرتادها إلا أبناء رجال السلطة والمال.

ب – **مدارس وطنية، أهلية أو حكومية،** تعلّم المنهج الوطني باللّغة الوطنية المشتركة. والمدارس الحكومية مجانية عادة، على الرغم من وجود مصاريف إضافية يتحمّلها الآباء. أما المدارس الأهلية فتتقاضى أجورًا دراسية عالية تثقل كاهل الطبقة المتوسطة، وهي مؤسسات تجارية تتوخّى النفع.

يمكن تلخيص مضارّ هذا النوع من التعدُّد اللغويّ في النظام التربويّ على التنمية البشرية في ما يأتي:

أ – يؤدي هذا النوع من التعدُّد اللغويّ إلى عدم تساوي الفرص التعليمية أمام الأطفال وإعادة إنتاج الطبقية في المجتمع؛ فثمّة ثلاث طبقات: عُليا يرتاد أبناؤها المدارس الأجنبية، وسطى يلتحق أبناؤها في المدارس الأهلية (الحرة) بأجور، ودنيا يتمدرس أبناؤها في المدارس الحكومية، الناقصة من حيث انتشارها، وتوزيعها، وتجهيزها، وجودتها التعليمية.

ب – لما كانت الحكومات العربية مصرّة على استخدام لغة المستعمِر القديم (الإنجليزية أو الفرنسية) في الحياة العامة والمؤسّسات الاقتصادية والمالية والكلّيات العلمية التطبيقية، فإن خريجي المدارس الأجنبية هم القادرون بامتياز على استعمال اللّغة الأجنبية الوظيفية وارتياد الكلّيات العلمية وتولّي المناصب القيادية في البلاد، في حين أن كثيرًا من خريجي المدارس الحكومية يواجهون البطالة، ما يجعلهم وقودًا لأية اضطرابات اجتماعية أو ثورات شعبية. وأية استثمارات في البنية التحتية في البلاد تكون في صالح الطبقات المهيمنة التي تزداد غنى، وترفع من تكاليف المعيشة على الطبقات المهمّشة فتزداد فقرًا. وقد حذّر تقرير التنمية البشرية لسنة 2011، الذي اتخذ عنوان **"الاستدامة والإنصاف"**

شعاراً له، من احتكار المعرفة أو السلطة الأمر الذي يؤدّي إلى تنامي الفروق الطبقية التي ستؤجج اضطرابات اجتماعية.

ج – إن خريجي المدارس الأجنبية يجدون أنفسهم شبه غرباء في وطن لا يجيدون لغته الوطنية المشتركة، ولا يعرفون تاريخه ولا جغرافيته ولا تراثه بصورة جيدة، لأن المدارس الأجنبية لا تعلِّمهم لغة بلادهم أو جغرافيتها أو تاريخها، بل تدرس المنهج المطبَّق في فرنسا أو إنجلترا أو أمريكا. فخريجو هذه المدارس الأجنبية يشعرون بأنهم أكثر ارتياحًا في البلاد التي تربّوا على لغتها وثقافتها. ولهذا فإن كثيرًا منهم يفضّل الهجرة إلى تلك البلاد الناطقة بالإنجليزية أو الفرنسية، أو ذات الثقافة القريبة منها. ومن هنا نجد أن البلدان العربية هي أكبر البلدان المتخلِّفة المصدّرة للعقول والكفاءات إلى الغرب المتقدِّم. وبذلك فهي تخسر مرَّتيْن: مرَّة في تحمُّل نفقات إعداد أصحاب تلك الكفاءات، ومرَّة أخرى في هجرة وضياع أهم عناصر التنمية البشرية؛ أي أصحاب الكفاءات العالية.

ثانيًا، التعدُّد (التنوّع) اللغويّ في مراحل التعليم:

نعني بهذا النوع من التعدُّد اللّغوي استعمال لغة تلقينٍ مختلفة في كلّ مرحلة من مراحل التعليم، كأن نستعمل العربية في المرحلة الابتدائية، ثم الفرنسية في المرحلة الثانوية، ثم الإنجليزية في مرحلة التعليم العالي. وإذا كان هذا المثال لا يمكن تصوّره من لدن عاقل، فإن وضعًا قريبًا منه موجود في بلادنا العربية. فالتعليم العام (الابتدائي والثانوي) يجري باللّغة العربية، أما التعليم العالي العلميّ والتقنيّ فيجري إما باللّغة الإنجليزية أو باللّغة الفرنسية. وهذا النوع من التعدُّد اللغويّ يعرقل التنمية البشرية للأسباب التالية:

أ – أثبتت البحوث التجريبية أن التعليم بلغة أجنبية يجعل من العسير على الطلاب استيعاب المعرفة العلمية وتمثّلها والإبداع فيها. وهذا واضح من التحاق الطلاب العرب الأذكياء من خريجي المدارس الثانوية الحكومية بالكليات العلمية في الجامعة، ولكنهم سرعان ما يتحولون إلى الكليات الأدبية

أو معاهد التربية البدنية، بسبب صعوبة لغة التعليم الأجنبية. ولهذا ولأسباب أخرى، نجد أن نسبة خريجي التعليم العالي العلميّ والتقنيّ، مقارنة بخريجي الإنسانيات، لا تتجاوز 30 بالمائة من مجموع الخريجين، في حين أن التنمية البشرية تتطلّب نسبة معكوسة.

ب – إن خريجي كليات العلوم التطبيقية الذين تلقّوا تعليمهم بلغة أجنبية يكون إسهامهم في التنمية البشرية محدودًا، لأنهم لا يستطيعون نقل معرفتهم المهنية إلى بقية أفراد المجتمع باللّغة التي يعرفها. فإيجاد مجتمع المعرفة يستلزم أن ينقل المهني، كالطبيب مثلاً، معرفته إلى الممرضة، والمساعد الطبي، والمريض، والمجتمع بأسره (بواسطة وسائل الإعلام مثلاً).

ج – إن اكتساب المعرفة في النظام التربويّ هو عملية تراكمية ترابطية من حيث الأساس. فالنظام يتألف من مجموعة من العناصر يشكّل مجموعها كلاّ واحدًا حيث يرتبط كل عنصر بالآخر بنيويًا ووظيفيًا ويتأثّر به ويؤثِّر فيه. ومعروف أن لكل لغة نظامها المفهومي، والانتقال من لغة تعليم إلى أخرى في مراحل التعليم المختلفة، سيؤدي إلى تصدّع النظام التربويّ، وعدم السماح بتكامل المعرفة (أي المنظومات المفهومية) التي يتلقّاها التلميذ ولا بتراكمها.

د – إن اتخاذ التعليم العالي لغة أجنبية معيّنة لتدريس العلوم التطبيقية، يؤدّي إلى القضاء على الترجمة العلمية من اللّغات الأجنبية إلى العربية، كما ينتج عنه حصر مصادر المعرفة العلمية في نافذة أجنبية واحدة وغلق بقية النوافذ.

هـ – إن اعتماد الإنجليزية لغة للتعليم العالي العلميّ في المشرق العربيّ، والفرنسية في المغرب العربيّ، يؤدي إلى شبه قطيعة بين قادة المجتمعات العربية لاختلاف ثقافاتهم وأساليبهم، وصعوبة التبادل التجاريّ والاقتصاديّ بين البلدان العربية، والحيلولة دون انتقال اليد العاملة، كما يحول دون التكامل الحضاريّ بين هذه البلدان.

الخلاصة:

وخلاصة القول إن للتعدُّد اللّغوي أنواعًا مختلفة منها ما يُيسّر التنمية البشرية ويدعمها، ومنها ما يعرقل التنمية البشرية ويدمّرها. فالتنمية البشرية تتطلّب قيام مجتمع المعرفة القادر على إنجازها. ويتّسم مجتمع المعرفة بقدرته على تلقّي المعلومات بسرعة وتمثُّلها والإبداع فيها وإنتاجها وتبادلها بيُسر. وهذا يستدعي وجود لغة فصيحة مشتركة يستخدمها المجتمع في تبادل المعلومات وإنتاج المعرفة ونقلها. وهناك دراسات وبحوث كثيرة تُثبت أن الأحادية اللغوية في المجتمع ضرورة لتحقيق التنمية البشرية وشرط من شروط المجتمع الصناعي، وأن تعدَّد لغاتِ تبادل المعلومات في البلاد هو من أسباب التنمية البشرية المتدنية، كما هو الحال في الدول الأفريقية، فاللّغة هي وسيلة لتبادل المعلومات، كما أن العملة وسيلة لتبادل السّلع. فإذا تعددت العملات في البلاد الواحدة، تعرقلت عملية التبادل التجاريّ. إن الدول التي حقّقت التنمية البشرية، مثل كوريا وفنلندا، تتولّى نشر التعليم الجيد باللغة الوطنية المشتركة مع احتفائها باللّغات الوطنية الأخرى وسعيها إلى تعلّم اللّغات الأجنبية المتنوعة. ولا تعهد هذه الدول بتربية أبنائها، قادة المستقبل، إلى مؤسّسات التعليم الأجنبية أو التجارية، ففي كوريا التي تحتل الرتبة 12 في سُلّم التنمية البشرية، مثلاً، يمنع القانون انخراط التلاميذ الكوريين في المدارس الأجنبية في كوريا. ولو كان استعمالُ لغاتٍ أجنبية في التعليم العام والتعليم الجامعي يحقّق التنمية البشرية، لاحتلّت مصر العزيزة ذات الحضارة العريقة التي ينتشر فيها التعليم العام الأجنبي منذ أكثر من قرن وتتوفّر عاصمتها القاهرة وحدها على ثلاثين جامعة أجنبية وأهلية تدرّس بلغات أجنبية، الرتبةَ الأولى في سُلّم التنمية البشرية. ولكنّها تحتل – مثل معظم البلدان العربية مع عميق الأسف – رتبًا ما بعد 120 تقريباً في هذا السُّلّم، وتتصدّر قائمة الدول المصدِّرة للأدمغة والكفاءات العالية، ويُصنِّفها تقرير التنميّة البشرية للبرنامج الإنمائي للأمم المتَّحدة بين الدول ذات التنمية البشرية المتدنِّية.

عن " تأهيل " اللغة العربية[*]

د. موسى الشامي[**]

هناك مجموعة من الأسئلة أود الوقوف عندها، لمقاربة إشكالية ما يقصد ب"تأهيل" اللغة العربية. وأنا في هذا العرض لا أريد أن أتعرّض لمسالة الأمن اللغويّ بالمغرب، لأن ذلك سيقودني إلى النبش في ملف شائك هو التعدّد اللغويّ ودور اللّغات الوطنية داخل هذا التعدّد. وما يهمني هنا، هو هذه اللغة التي أجدني منخرطًا في الدفاع عنها في إطار الجمعية المغربية لحماية اللغة العربية.

1- ما القصد بمفهوم "التأهيل" ؟

ما القصد بالضبط عند الكلام عن"تأهيل" اللغة العربية؟

العبارة غامضة وتحتاج إلى تفسير أو إلى توضيح أو إلى تأويل.

"تأهيل" اللغة العربية يعني أن شيئًا ما ينقصها، وهذا الشيء هو الذي يُعرّقل تأديتها لمهامها. وهي- حسب هذا التعبير- مشلولة، لا تقوى الآن، في ذهن من يستعمل عبارة "تأهيل"، على القيام بما يمكن أن تقوم به. فاللّغة

(*) قُدِّمت هذه الورقة في احتفال اللجنة الوطنية المغربية للتربية والثقافة والعلوم بيوم اللغة العربية.

(**) رئيس الجمعية المغربية لحماية اللغة العربية.

العربية، إذا أهلّت ؛ أي إذا تغير شيء فيها، أو إذا غيّر أصحابها شيئا فيها، أو إذا هم غيّروا بعض مواقفهم منها، يمكن أن تصبح لغة ذات حيوية، لغة "مؤهلة".

كما أن العبارة يُمكن أن توحي أن اللّغة العربية لم تكن لها أية "أهلية" (قدرة، كفاءة، قوة...)، فوجب الاستدراك، ووجب العمل على أن تكون لغة قادرة على مواكبة التطوّر الحديث، خصوصًا وأن هناك دولا عديدة رسمتها في دساتيرها. وهنا وجب التساؤل : "لماذا هذا الترسيم"؟ فالدول عادة لا ترسم إلا اللغات التي تعتقد أنها قادرة على البناء والتنمية. فهل هذا الاعتقاد سليم؟

لتبيان إشكالية عبارة "التأهيل"، من الضروري الر جوع إلى اللّغة العربية كبنيان وككيان، أو كنظام قائم بذاته، وكذا إلى المحيط أو المناخ، المادي والبشري، الذي تعيش فيه هذه اللّغة

2- لماذا نتحدث عن " تأهيل" اللّغة العربية؟

نتحدث عن "تأهيل" اللّغة العربية لأننا، على بينة من ضعفنا وتأخرنا مقارنة مع أمم أخرى سبقتنا في التقدم بلغاتها، ونعتقد جازمين (وخاطئين بطبيعة الحال) أن اللّغة العربية هي سبب هذا الضعف، ونتهمها بذلك، وفي الوقت نفسه، نهفو إلى أن نقود صراع التنمية ومعركة التطوّر والنماء بهذه اللّغة، دون غيرها، لأننا نؤمن أننا نحن هم اللّغة العربية واللغة العربية هي نحن. وكذلك، لأننا نشعر في قرارة أنفسنا أن اللّغة العربية قادرة على أن تخرجنا من أنفاق وظلمات التأخر وأن تقودنا إلى شواطئ التقدم والنجاح والرخاء، كما حدث ذلك، وبها، من قبل.

لكن، هل فعلا، وعلى أرض الواقع، اللّغة العربية قادرة على أن تقودنا اليوم إلى ما نصبوا إليه من رقي وتقدّم؟ وإذا لم تكن" مؤهلة "، كيف نؤهلها، لكي تصبح كذلك؟

لنقف مهلة عند الواقع الحالي للّغة العربية . ما هي حالتها اليوم؟

3 – الواقع الحالي للّغة العربية اليوم، ماذا يقول؟

لن أعود إلى الماضي، حتى لا يُقال لي: "ليس الفتى من يقول كان أبي..."، لكنني أريد أن أقول في البداية، وهو ما يقول به كم هائل من الباحثين الغربيين النزهاء، والفضل ما شهد به الأجنبي، أن حضارة الغرب لم تكن لتكون ما هي عليه اليوم، لولا الإرث الذي أخذته من الحضارة الإسلامية التي سادت العالم، (وسادت هذه الحضارة العالم بفضل اللغة العربية)، منذ ظهور الإسلام إلى سقوط غرناطة. بمعنى آخر أن اللغة العربية، كانت في وقت ما من التاريخ، لغة "مؤهلة " لمسايرة العلم آنذاك.

الواقع الحالي للّغة العربية يقول: "إن اللغة العربية، بعد أن كانت اللغة الأولى في العالم فيما أسماه الغرب اعتباطًا "القرون الوسطى" ويعني بذلك "القرون المظلمة"، وبعد دخول العالم العربيّ والإسلاميّ في سبات طويل وغيبوبة عميقة، وهذا هو حال الحضارات الكبرى،استرجعت أنفاسها، في أوائل القرن العشرين، عصر النهضة. وبعد فترة نقاهة، تجد نفسها اليوم تعاني من بعض بقايا هذه الغيبوبة الطويلة، وهو أمر عادي، كما عند أي كائن يتعافى، وربما كانت هذه المعاناة أمرا صحيًا، لأنه يُساير طبيعة الأشياء. وأريد أن أُذكّر هنا بسرعة أنه عند سقوط غرناطة في أواخر القرن الخامس عشر، لم يكن العالم، في ذلك الوقت، يعرف لغة اسمها "اللغة الفرنسية"، اللغة التي يحاول البعض اليوم إحلالها محلّ اللّغة العربية في شمال إفريقيا، فهذه اللّغة لم يستقم عودها إلا في أوائل القرن السابع عشر الميلادي، وهي اليوم، رغم ما تعانيه من مشاكل سواء في إملائها المعقّد أو نَحْوها المتشعّب، تعد لغة عالمية من بين اللّغات الأوائل علميًا. ومن الملاحظ أن اللّغة التي سادت العالم بعد سيادة اللّغة العربية وأفولها، كانت هي اللاتينية، وقد ازدهرت اللاتينية لمدة من الزمن، ثم اندثرت، ولم تندثر اللّغة العربية، الشيء الذي وجب التأمل فيه.

وكنظام لسني، فإن للّغة العربية خصائصها كجميع اللغات. وما تعرفه من "مشاكل"، هو من قبيل ما يمكن نعتها ب "المشاكل الخارجة عنها"؛ أي أن مشاكلها غير متعلقة بها كلغة ولا علاقة للّغة بها. وقبل أن أتعرض لهذه المشاكل الخارجة عن اللغة العربية باقتضاب شديد، لا بد لي أن أقف لحظة عند بعض الانتقادات التي تُوجّه إلى اللغة العربية والتي تجعل منها لغة غير "مؤهلة" عند من يوجّهون لها هذه الانتقادات المجانية غير العلمية .

* اللغة العربية غير "مؤهلة" لأنها صعبة. هكذا تبدو عند من تعودوا على الأبجدية اللاتينية، فهي لا تعرف الشكل؛ أي الحركات؛ أي أنها لغة صوامتية، وحروف الكلمات فيها تتغير حسب موقعها في أول أو وسط أو آخر الكلمة، ولها أصوات، (فونيمات)، متشابهة "يصعب" التمييز بينها (ذ،ض، ؟، ز...) وأصوات أخرى لا توجد ببعض اللّغات الأوروبية (ع، خ، ح، ص، ث...) وليس فيها أصوات توجد في اللّغات الأخرى وتعرف المثنى وهو غير موجود في اللغات الأخرى، وتتوفر على أشكال فعلية خاصة بالإناث، واللّغة العربية يجب أن تُفهم قبل أن تُقرأ، وغير هذا من الأساطير المحبوكة من قبل الخصوم لتحقيرها.... والواقع أن هذه الانتقادات هي فقط تبريرات يلجأ إليها من لا يريد بذل أي مجهود لتعلّم اللغة العربية، فهذه هي خصائص اللغة العربية. ولكل لغة خصائصها التي تميزها، وفي هذا يقول علماء اللغة أن ليس هناك لغات أحسن من الأخرى، بل ما هنالك هو لغات مُهيمنة ولغات مُهيمَن عليها. وللمقارنة، لنتمعن كيف يكتب، على سبيل المثال، في اللغة الفرنسية، حرف "الفاء" أو صوت" أو "؟ ولماذا حرف "إكس" يتغير نطقه حسب المفردات التي يُوجد بها والسياق الذي يُستعمل فيها ؟

تأمّلوا معي "السلوك الهذياني" لحرف "إكس" باللغة الفرنسية على سبيل المثال :

Fixe , x = x

Six élèves , x=z

Il y a six cahiers sur le bureau , x= 0 , الحرف هنا لا ينطق

Examen , x= gz

كيف يمكن لمتعلِّم اللّغة الفرنسية، من أية جنسية كانت، أن يتعامل مع هذا السلوك الغريب في الكتابة؟..و سأعود لهذا الموضوع في مقال لاحق لأبين أن اللغة العربية الفصيحة في تعلمها أسهل من اللغة الفرنسية، حتى وإن كان اللسانيون يجزمون أن ليس هناك لغات سهلة ولغات صعبة ... هذا رأي المنظّرين، ولكن للعاملين في الميدان الديداكتيكي رأيًا آخر مخالفا لرأيهم ...

ولنتأمل كيف نكتب جملة بالحرف اللاتيني بخط اليد وبالطباعة، ولنقارن هذا بكيفية الكتابة خطيًا وطباعة باللغة العربية .. ولنقف عند الحروف التاجية في الأبجدية اللاتينية، ونوعية المشاكل التي تخلقها للمتعلم عندما يقارنها بالحروف العادية الصغيرة. هذه الأمثلة البسيطة أسوقها للتأكيد على أن اللغة العربية ليست معقدة كما هو حال اللغة الفرنسية كما يذهب إلى ذلك خصوم اللغة العربية من الفرانكوفونيين ...

* اللغة العربية غير "مؤهلة" لعدم توفرها على المصطلحات الازمة لولوج عالم المعرفة. وهذا مشكل مصطنع وطرحه بهذه الكيفية غير علمي، لأن أية لغة يمكن لها أن تُنشِئ آلاف المصطلحات التي تحتاج إليها . (الإنسان هو الذي ينتج المفردات ويقوي اللغة)، وهو أمر موكول للعلماء المتخصصين في الميادين العلمية التي يهتمون بها. والرجل العادي ليس في حاجة إلى الإلمام بالمصطلحات العلمية التي تظل من اختصاص العلماء، كلّ في ميدانه. المشكل في المصطلحات بالنسبة للّغة العربية ليس في إنشائها، بل في تداولها وتبنيها والعمل بها، لأن الدول التي تستعمل اللّغة العربية تصل إلى 22 دولة وتجد صعوبة في الاتفاق فيما بينها على المصطلح الملائم في مساحة جغرافية شاسعة جدًا. وهو أمر

طبيعي، وليس بمشكل كبير. وعلى أي، وإن تعددت المصطلحات للتعبير عن مدلول واحد، فالاستعمال الشائع هو الذي يحيا مع الوقت والاستعمال، والبقاء يظل دائما للأصلح.

* اللغة العربية غير "مؤهلة" لأنها غير متداولة شفهيا؛ أي أن أهلها لا يتكلمون بها في حياتهم اليومية، وهي لغة المثقفين،تستعمل شفهيًا في بعض المواقف فقط (محاضرات، أخبار في وسائل الإعلام، خطب...)، وبهذا المعنى، فهي لغة كتابة أكثر منها لغة تداول شفهي. هي لغة المثقفين؟، وماذا يمنع أن يكون جميع الناس مثقفين؟ أو ليست الأمية هي المسؤولة هنا؟ هذا ليس مشكل اللغة العربية لأن التواصل بها ممكن، وهو أمر قائم بين من نال حظا من الثقافة العربية ، وهو أمر لا يريد الاعتراف به الحاقدون الدجالون . على أن الثنائية "لغة كتابة"، "لغة خطابة وتداول" موجودة في كل اللغات؛ أي أن اللغة المستعملة في الكتابة هي عادة لغة عالمة، واللغة المستعملة في التخاطب هي لغة متراخية، منحلة. اللّغة الفرنسية مثلا تعرف هذه الثنائية، فاللّغة التي يكتب بها الفرنسيون هي لغة منقحة، محكمة، مخالفة للغة رجل الشارع، التي تظل مهلهلة، تستعمل عبارات وتراكيب لا تقبلها اللغة العالمة، وهي دارجة كجميع الدوارج لدرجة أن غير الفرنسيين لا يفهمونها في كثير من الأحيان لأنهم لم يتعلموها في المدرسة.

إذا كانت اللغة العربية غير مسؤولة عن هذه العيوب التي تنعت بها، فأين، إذا، تكمن عوائقها والتي تجعلنا نتكلم عن" تأهيلها"؟

4- ما هي المشاكل التي تُعرّقل تقدّم اللّغة العربية وتجعل البعض منا يتحدث عن ضرورة" تأهيلها"؟

هناك عوائق شتى لا علاقة لها ببنية اللغة العربية، بل هي عوائق خارجة عنها، منها على سبيل المثال :

* **الأمية** : تعدّد الدول العربية كان من شأنه أن يدفع في اتجاه تنمية اللغة العربية نظرا لتوفر هذه البلاد على ساكنة مهمة كان بالإمكان أن تمثل مشتلا

خصبا لتناسل وتكاثر المتخصصين فيها، لكن الأمية الضاربة أطنابها في هذه الدول جعل منها عائقًا أمام الإنتاج العلميّ والمعرفيّ باللّغة العربية، فاللّغة العربية لا تستفيد من سكانها، إذ إن نسبة كبيرة تسبح في ظلمات الأمية. كيف للغة ما أن تتقدم إذا سادت الأمية عند أبنائها؟ وكيف للّغة العربية أن تُنتج المعرفة عندما يفضل العلماء في العالم العربي اللغات الأجنبية، وهذا التفضيل هو نوع آخر من الأمية تعاني منه اللغة العربية ...

* **الاتكالية في الحقل العلمي** : تعدّد الدول التي تستعمل اللّغة العربية كلغة رسمية ينتج عنه أن كل دولة تتكل على الدول الأخرى للأخذ بيد اللغة العربية في ميدان المصطلحات بالخصوص. ولو أن اللغة العربية كانت خاصّة بدولة واحدة لكانت الأمور قد أخذت مجرى آخر، كما هو الحال مثلا في دولة كإسرائيل. فهذه الدولة تعتبر نفسها المسؤولة الوحيدة عن لغتها. فهي التي تقرر، ثم تنجز. وأما الدول العربية، فهي ليست سيدة قراراتها في اللغة، إذ، عندما نقرر شيئا في المغرب (مثلا، نحت مصطلحات)، علينا أن نستشير الدول التي تتقاسم معنا اللغة الرسمية، وهذا يخلق متاعب شتى، وهي متاعب نابعة من شساعة جغرافيا العالم العربيّ التي تُعرّقل التنسيق، زيادة على الخصومات السياسية التي تفرق بين الدول العربية.

* **النفوذ اللغويّ الأجنبيّ**: هناك دور سلبي كبير تلعبه البلاد الاستعمارية القديمة التي هيمنت على الدول العربية والتي تشتاق إلى العودة بلغاتها إليها، وتعمل جاهدة وبكل الوسائل من أجل ذلك، وترى في اللّغة العربية منافسة شرسة لها. وهذا هو حال اللغة الفرنسية بالمغرب، إذ أصبحت، بسبب هيمنتها على جميع المجالات الحيوية، هي اللغة الرسمية الفعلية للبلاد ولا يمكن اجتثاث هذا الورم السرطاني لا بأكاديمية للّغة العربية ولا بمجلس للّغات إذا لم تكن لهذه المؤسسات صلاحيات تقريرية بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة. وأما اللّغة العربية، فهي لغة رسمية على الورق ونخشى أن يكون هذا هو مصير الأمازيغية

كذلك بمختلف فروعها. ولتصل فرنسا إلى هذا الأمر، فهي تستعمل كل ذكائها ونفوذها المالي لترسيخ لغتها في الواقع المغربي. وتكوّن في مدارسها نخبة مغربية فرانكفونية، لا تتقن سوى هذه اللغة وتمارس عملها الدعائي لنشر لغتها في معاهدها عبر المدن...

* **التيه السياسي لأصحاب الحل والعقد بالعالم العربيّ**: أغلب الساسة العرب في واد بعيد عن انشغالات شعوبهم، ووضعية اللغة العربية من الأمور الثانوية لديهم ويكفي في هذا المجال أن نستمع إلى "بلاغتهم" عندما يقرؤون خطبهم. الموارد المادية متوفرة ولا عمل جدي بخصوص اللّغة العربية على أرض الواقع. وهل فاقد الشيء يمكن أن يأتي به ويعطيه ؟.

5 – ماذا يجب علينا فعله إزاء هذه الوضعية لتصبح اللّغة العربية" مؤهلة" أي لتقوم بدورها على أحسن حال ؟

وجب التكرار من جديد أن اللغة العربية مؤهلة في حد ذاتها ولها طاقات وقدرات داخلية يعرفها علماء اللغة العربية، من اشتقاق ونحت وتعريب، وإمكانيات لغوية ضخمة لوضع المصطلحات... لكن مشكلتها الكبرى هي أنها تعيش في مناخ ثقافيّ غير صحي وغير مؤهّل، كما رأينا، وهو الذي يؤثر سلبًا فيها ويخلق جوا ينعدم فيه الإنتاج العلمي، وبالتالي الأمن اللغويّ. اللغة العربية لغة مؤهّلة في مناخ عام غير مؤهّل ...

– أول غول يجب التجنيد له لأنه يعتبر العدو اللدود للّغة العربية هو الإنسان العربي الأمي، حاكمًا كان أو محكومًا، وإذا علمنا أن نسبة الأمية في العالم العربيّ كبيرة جدا وهي غير مستساغة ومرفوضة، لما يتوفر عليه العالم العربيّ من موارد مادية، فهمنا أن العيب فينا وليس في اللغة العربية.

تأهيل الإنسان العربيّ، بنشر العلم والثقافة هو الحجر الأساس الذي به تصبح اللغة العربية "مؤهّلة". وهذا أمر يتطلب الوقت والصراع مع من لهم المصلحة في أن يظل الإنسان العربيّ غارقًا في يم الأمية والجهل. وما نشاهده

اليوم من غليان في العالم العربيّ يمكن اعتباره أيضًا رفضًا للجهل والأمية والمرتبة الدونية التي يشعر الإنسان العربيّ أنه حشر فيها حشرًا.

– وبطبيعة الحال، يظلّ تأهيل الإنسان من اختصاص الدولة، وفي غياب ذلك، فإن دور المجتمع المدنيّ والسياسيّ، ممثلا في جمعيات الدفاع عن اللغة العربية وجمعيات حقوق الإنسان اللّغوية والثقافية، والأحزاب والنقابات وغيرها من الهيئات، وبالتنسيق مع علماء الأمة وأعني بهم علماء اللسانيات بالدرجة الأولى، يصبح ضروريًا للضغط على أصحاب القرار. وبإمكان مفكري الأمة أن يضغطوا على من بيدهم زمام السّلطة، لخدمة اللّغة العربية والدّفع في إنتاج المعرفة بها. وإلا فلمَ يصلح فكرهم هذا وما جدواه؟ بدون هذا الضغط المشروع والذي يستخدم الحجة العلمية بالأساس لتبيان قدرة اللغة العربية على إنتاج المعرفة، ستظلّ هذه الأخيرة تنتظر من يأخذ بيدها.

ومع هذا كله، فإن الملاحظ أن حالة اللّغة العربية ليست من التدهور كما يصوره لنا بعض المتشائمين، بل هي لغة جاهزة، مؤهلة، وفي حالة جيدة إذا ما قورنت بالحالة التي كانت عليها في بداية العقد الخامس من القرن الماضي. نحن الآن نعيش مرحلة انتقالية وحالتنا هي أحسن مما كانت عليه سابقًا، لكن العمل ما زال طويلا ويتطلب جهودًا كثيرة ونفسًا طويلا ومثابرة وأناة...وليس هذا بعزيز على المتمسكين باللّغة العربية الفصيحة...

Les problèmes de transmission et de diffusion de la langue arabe
un obstacle au processus d'arabisation

Abdelaziz Kesbi[1]

Introduction

Cet article sera une tentative de discuter l'un des problèmes d'arabisation, à savoir celui de la transmission de la langue arabe classique par le biais des imprimés et des méthodes d'enseignement. Nous mettons l'accent sur les différents écueils que rencontre l'enseignement-apprentissage de la langue arabe.

L'une des causes du problème de la transmission de la langue arabe est l'existence d'un grand nombre de langues et de dialectes dans la carte linguistique marocaine. De plus, les apprenants affrontent des problèmes d'apprentissage de l'arabe à cause de l'utilisation des méthodes traditionnelles d'enseignement. La transmission de la langue arabe est jugée insuffisante en raison de la difficulté qu'a l'apprenant à déchiffrer les documents imprimés. Les textes rédigés en arabe classique constituent un handicap de taille pour

1 - Je remercie vivement les professeurs Brudermann Cedric, Elhadrati Latifa, El Hassani Moulay Ali, Kesbi Naima, Mahboubi khalid et Narcy Combes Jean-paul pour avoir lus et commenté les versions précédentes de cet article.

les apprenants; ils les considèrent comme des talismans impénétrables. Par ailleurs, l'utilisation intensive de la langue française dans l'administration et l'enseignement a favorisé cet éloignement vis-à-vis de la langue arabe.

Est-il alors possible d'affirmer que l'arabe est une langue 'parfaite'? Les apprenants de la langue française sont également confrontés à de nombreux problèmes dûs aux difficultés, à savoir : l'échec d'enseigner cette langue dans des contextes différents, par exemple, en France et au Maroc, ses compromis arbitraires entre le graphique et le phonique dans la langue, ainsi que l'exclusion par la France, en général, de tout autre pays francophone de proposer une réforme de cette langue. En outre, le bilinguisme arabo-français adopté suscite des réactions contradictoires. On remarque également que les langues française et arabe, comparées à la langue anglaise, sont, à des degrés différents, toutes les deux obsolètes en ce qui concerne l'accès à la technologie. Il n'en reste pas moins que le français est prédominant dans la société marocaine malgré des doutes sur les véritables objectifs de la francophonie.

La transmission de la langue arabe

Dans une interview, le professeur Lakhdar-Ghazal a déclaré que l'un des principaux problèmes d'arabisation est celui de la transmission de la langue (Zirari, 1992). Ce constat concerne non seulement les documents imprimés mais aussi les méthodes d'enseignement de langue arabe.

La substitution de l'arabe au français pose le problème de la transmission et la diffusion de la langue officielle. Face au nombre considérable de langues et dialectes présents dans la carte linguistique du Maroc, la question est : quelle langue adoptée pour contenir les savoirs véhiculés dans des langues étrangères ? (Lakhdar-Ghazal, 1977)

L'arabe classique semble être la langue choisie à l'unanimité pour être l'instrument d'arabisation. Les raisons sont multiples, notamment celle manifestée par le désir d'unification avec le monde arabe, vu que L'arabe classique représente l'unité culturelle arabe. Pourtant, il est incontestable de dire que la promotion sociale et culturelle dans la société marocaine est subordonnée à la maîtrise des langues étrangères. La question que Lakhdar-

Ghazal (ibid.) se pose encore une fois est : pourquoi est-il difficile pour un marocain d'apprendre l'arabe?

Une des réponses possibles à cette question est que les méthodes d'enseignement de la langue officielle ne sont pas aussi efficaces que celles de l'enseignement des langues étrangères. Par exemple, il ya un besoin de simplifier la façon traditionnelle d'enseigner la grammaire, qui est héritée d'une longue tradition nécessitant une coûteuse période d'apprentissage. L'enseignement traditionnel de l'arabe classique ne prend pas en compte l'impact des langues maternelles. En outre, des études pédagogiques et linguistiques traitant le problème du passage des dialectes à l'arabe classique font défaut (Lakhdar-Ghazal, ibid.).

Aucune réforme ne sera possible /.../ tant qu'il y aura une langue pour la science et une autre pour la communication. Ou bien celle-ci devrait s'élever ou bien la langue de la science devrait s'abaisser jusqu'à ce qu'elles s'unissent. C'est alors seulement qu'il y aura la pensée rigoureuse et la langue qui émane de la vie réelle.

(Amine, 1971: 215 cité dans Benjelloun, 1990: 354)

Le principal objectif serait la réduction de l'écart entre l'arabe classique et la langue maternelle[2] afin de faire de la langue de la science une langue de communication. Benjelloun (ibid.) affirme que l'enfant doit continuer à apprendre à parler. L'enfant commence à la maison l'apprentissage de la communication. Dès qu'il se retrouve à l'école, les enseignants de la langue font comme si il avait terminé ce processus, d'où la nécessité de la revalorisation de la langue maternelle si on veut en faire un moyen de préapprentissage avant toute acquisition d'une langue seconde. Pourtant, le passage de la langue maternelle à l'arabe classique est fait d'une façon abrupte, sans aucune liaison entre la compétence orale non écrite de l'enfant et son écrit non-dit.

/.../ de la langue maternelle, de l'oral qui ne s'écrit pas, il est projeté dans l'écrit qui ne se parle pas.

2 - Ici, on parle d'arabe marocain, les autres langues maternelles berbères révèlent un problème différent et sérieux du fait de leurs différences génétiques avec l'arabe classique.

(Benjelloun, 1990: 359)

Pour illustrer cela, l'enfant est obligé d'apprendre à l'école des mots tels que /manzil/ qui veut dire 'maison', alors qu'il a dans sa langue maternelle le mot /da:r/, qui fait partie à la fois de l'arabe marocain et de l'arabe classique. Une continuité serait créée entre les deux idiomes sans aucun écart explicite. Ainsi, les premières étapes de l'apprentissage de l'arabe classique pourraient être d'enseigner les similitudes avec l'arabe marocain avant de passer aux différences.

Les méthodes d'enseignement ne sont pas la seule cause de la transmission boiteuse de la langue. L'autre aléa de l'arabe est son mode d'écriture qui engendre des problèmes de lecture et déchiffrage de textes. Les graphies dans la langue arabe ne comportent pas les voyelles; elles ne sont pas écrites. Il en résulte que l'apprenant arabe est obligé de comprendre pour lire alors que dans les langues européennes, c'est l'inverse, on lit pour comprendre! Cette tâche est difficile, surtout pour un débutant. khdar-Ghazal, (Ibid.) cite Anastase Marie Alarmai qui a déclaré que la principale différence entre les Arabes et les autres, c'est que les premiers étudient les règles de la langue arabe afin d'apprendre à lire tandis que les derniers lisent pour apprendre les sciences.

Avant, La raison de la non-existence de voyelles dans le document imprimé avait été purement technique. Pour rédiger un texte arabe, comparé à un texte latin, les dactylographes ont besoin de plus de touches du clavier d'une machine à écrire. La cause en est la complexité de l'écriture en arabe ; par exemple, la même lettre est écrite différemment selon qu'elle est située au début, au milieu ou à la fin d'un mot. En outre, le fait que les voyelles en arabe sont positionnées sous ou au-dessus des consonnes soulève un autre problème pour le processus de normalisation mécanique de l'impression. (Lakhdar-Ghazal, ibid.). Aujourd'hui, les ordinateurs sont capables d'écrire les voyelles sans changer la forme des mots. Pourtant, les voyelles figurent rarement, sinon jamais, dans les documents imprimés, ce qui rend difficile le déchiffrage des textes en arabe.

Les difficultés de l'apprentissage de la langue arabe

Une complexité pédagogique réside dans la situation de diglossie voire de triglossie au Maroc. En effet, on remarque l'existence d'au moins

trois formes d'arabe, à savoir l'arabe classique, l'arabe médian et l'arabe marocain. Néanmoins, ce problème peut être résolu en essayant d'éradiquer l'analphabétisme et de réduire les écarts, en particulier, entre l'arabe marocain et l'arabe classique (Ennaji, 1991), (Moatassime, 1992).

Un autre problème qui émerge est la difficulté de l'arabe classique pour un enfant qui a le tamazight comme langue maternelle. En fait, la langue arabe, comparée au Tamazight, est toujours prédominante au Maroc[3] : donc l'enfant tamazighophone doit l'apprendre. Par conséquent, les chercheurs devraient trouver des moyens pour faciliter le passage des dialectes tamazight à l'arabe; inutile de mentionner que les langues maternelles, même si elles ne sont pas écrites, reflètent des cultures que les marocains doivent connaître et préserver. Par conséquent, apprendre l'arabe ne veut pas dire négliger le patrimoine culturel amazigh (Benyaklef, 1980).

Les difficultés de la langue arabe découlent également des structures en place. En effet, plusieurs structures administratives et pédagogiques ont été élaborées en français au cours de la période de la colonisation. Après l'indépendance, l'arabisation de l'administration a été l'un des principaux objectifs des décideurs. Pourtant, dans les secteurs où l'interaction et les transactions commerciales se font des étrangers, l'arabisation n'était pas nécessaire et même jugée inutiles (Grandguillaume, 1983). De nos jours, l'indépendance politique du Maroc depuis plus d'un demi-siècle n'a pas entraîné une indépendance linguistique. En fait, si l'administration a été marocanisée et arabisée, les marocains se sentent encore perdus quand les fonctionnaires des administrations optent pour un discours bilingue, sinon français tout court, pour communiquer avec eux; faisant d'un monolingue ou d'un analphabète marocain un être indésirable dans un tel contexte. Quant à l'enseignement, le français est toujours privilégié en tant qu'unique moyen d'enseignement pour les études scientifiques supérieures. Une fois de plus, la maîtrise du français est considérée d'une importance capitale pour un étudiant qui souhaite poursuivre ses études supérieures.

3 - En attendant les réformes linguistiques qui vont accompagnées la stipulation que la langue Amazigh est devenue aussi une langue officielle au Maroc selon la nouvelle constitution.

Les difficultés de l'enseignement concernent deux facteurs: les enseignants et les manuels. Bien que la marocanisation du corps enseignant ait été réalisée il y'a longtemps, on assiste à un grand impact des dialectes égyptiens utilisés dans des feuilletons, des films et des chansons sur l'arabe pratiqué par les étudiants marocains.

La pédagogie a constitué un problème différent. La pédagogie éducative marocaine a été influencée par le modèle français qui met l'accent sur l'observation et la participation active des élèves. En revanche, les enseignants de la langue arabe font usage d'une pédagogie traditionnelle qu'on retrouve généralement dans les écoles coraniques et qui est fondée sur la mémorisation. Par conséquent, l'affrontement entre ces deux méthodes n'a pas abouti à un enseignement de qualité. Aujourd'hui, le problème n'est pas résolu même si tous les enseignants sont marocains, principalement en raison de l'échec du système éducatif marocain bilingue. En effet, les élèves sont en contact avec les deux langues, arabe et française, depuis les premières années de l'école primaire, mais ils ne maîtrisent parfaitement aucune des deux langues.

Une condition pour le succès d'arabisation a été également la disponibilité des manuels scolaires nécessaires[4]. De nos jours, bien que les manuels en arabe soient faits par des enseignants marocains pour des étudiants marocains, le problème de l'aliénation culturelle est réglé mais celui de la pédagogie ne l'est pas. Ainsi, les compétences de lecture et d'écriture sont privilégiées au détriment de l'écoute et de la parole.

En raison de toutes ces difficultés, Laroui (1982) aborde le danger de croire en la perfection de l'arabe classique. Pendant de nombreux siècles, les Arabes ont cru que l'arabe classique était le reflet de la conception du monde des Arabes. Afin de préserver cette conception, les puristes pensent que l'arabe classique devrait être laissé tel qu'il était au cours de l'âge d'or arabe. Cette idée est dangereuse, puisqu'elle rejette toute innovation possible, culturelle ou linguistique. Cette situation est la cause de la coexistence de

4 - Après l'indépendance, Il était possible d'emprunter les manuels scolaires d'Egypte, du Liban ou de tout autre pays arabe du Moyen-Orient. Pourtant, ces livres ont révélé une pédagogie différente qui renvoie à un contexte culturel différent. Une solution serait de traduire tout simplement les manuels du français en arabe. Néanmoins, les mêmes problèmes persistent.

l'arabe classique et l'arabe marocain, d'où la nécessité de réformer l'arabe classique en suivant son développement et changement normal selon les nouvelles exigences du temps présent. L'arabe classique, comme il est maintenant enseigné, ne fournit pas un moyen efficace de communication. En d'autres termes, elle ne favorise pas la transmission d'une culture moderne à la portée des masses dans un court laps de temps.

Les difficultés de l'apprentissage de la langue française

La langue française, qui est l'un des obstacles à l'arabisation, connaît, elle aussi, de nombreuses difficultés. L'échec d'apprentissage de la langue française que connait la France, surtout chez les enfants issus de familles pauvres qui est dû, entre autre, à la situation de diglossie entre le français de la vie et le français académique, suggère que l'apprentissage et l'enseignement de cette langue ne peuvent pas réussir partout et dans n'importe quelles conditions (Moatassime, 1992).

Le français, qui a été pendant de nombreux siècles seulement parlé, a été amené à des compromis arbitraires pour répondre aux nécessités d'une représentation graphique. Par conséquent, de nombreuses complexités ont surgi quant à l'écart important entre les sons et leur prononciation ; par exemple le graphème /ph / dans le mot français 'pharmacie' est prononcé comme / f /.

En outre, toutes les décisions concernant la langue française sont généralement l'apanage des français excluant ainsi la contribution des autres pays francophones, comme le Maroc, à une quelconque réforme de la langue (Moatassime, ibid.).

Néanmoins, conscients de l'importance des langues étrangères, les décideurs ont encouragé un système éducatif bilingue et même multilingue. Cela donne à penser qu'il n'y a pas de contradiction entre le processus d'arabisation et d'enseignement des langues étrangères.

Le bilinguisme arabo-français

Face à l'impossibilité actuelle de mettre en œuvre une arabisation complète du système éducatif, le bilinguisme arabo-français a été considéré comme une option. L'utilisation de l'arabe et du français peut être observée

dans tous les domaines de la vie quotidienne au Maroc. Les réactions face à ce bilinguisme varient considérablement entre ceux qui croient qu'il est un «signe d'aliénation» et un obstacle frustrant, et ceux qui croient que c'est plutôt un «facteur d'enrichissement» (Ennaji, 1991).

Radi (1987) soutient que la recherche et les expériences pédagogiques ont prouvé que l'élève qui utilise sa langue à l'école a plus de chances de réussir. C'est pourquoi l'arabe devrait être le principal moyen d'enseignement à l'école primaire. Tant que l'arabe est la principale langue d'enseignement dans le système éducatif marocain, l'enfant parlant le tamazight doit être préparé pour une transition réussie vers l'arabe. Toutefois, il est facile de remarquer dans les quelques émissions télévisées et radiophonies transmises en tamazight que cette langue ressemble de plus en plus à un dialecte arabe en raison de l'emprunt excessif de l'arabe (El Couri, 1998).

Aujourd'hui, les chercheurs peuvent avoir accès aux connaissances scientifiques dans un nombre limité de langues. Malheureusement, l'arabe n'est pas un membre de ce "club fermé". Les statistiques concernant les publications scientifiques entre 1880 et 1980 révèlent que 70% sont en anglais, 12% en Russe et seulement 2% en vingt-deux autres langues dont l'arabe (Radi, ibid.)[5]. Par conséquent, l'apprentissage des langues étrangères est nécessaire pour suivre le développement rapide de la science. La situation décrite ci-dessus révèle que la langue française et encore plus l'arabe sont à la traîne comme référence à tout progrès technologique. Les chercheurs ont besoin d'attendre dix ou vingt ans pour traduire ce qui est désormais disponible en anglais dans le domaine de la science.

Santucci (1986) décrit ainsi la situation de la langue française au Maghreb. dans les zones urbaines, la présence du français est plus ressentie que dans celles rurales aussi bien dans les secteurs publics que privé. C'est la langue de la formation des décideurs de la classe politique. Même dans les Ministères fortement arabisés, il est fréquent d'utiliser le français dans les réunions importantes. Le français est donc toujours considéré comme un

5 - Ses statistiques varient selon les différents supports, par exemple la simple page d'accueil de wikipedia montre que les articles en anglais s'élèvent à plus 3 357 800 alors que ceux en français sont de 1 076 000 (Mai 2011).

outil de promotion sociale. Ainsi, au Maroc, en 1983, un tiers des enseignants du primaire et près de la moitié des enseignants-stagiaires étaient bilingues, et entre 1972 et 1982, près de 70% d'enseignants-stagiaires du premier cycle ont été formés en français. Par conséquent, les chercheurs peuvent constater l'importance de la présence du français dans le système éducatif marocain.

La vie socioculturelle est également influencée par la présence du français. Ce dernier est le support privilégié pour de nombreux journaux, magazines, radio, et même des programmes de télévision. En outre, le Maroc occupe la sixième position parmi les premiers pays dans le monde à importer des livres en français (Santucci, ibid.).

La politique d'arabisation d'enseignement n'a pas seulement modifié le statut du français mais il a également contribué à l'abaissement du niveau de maîtrise de cette langue. Cette situation a conduit dans une certaine mesure à l'échec croissant des étudiants dans les disciplines scientifiques à la faculté des sciences où le français est encore l'unique moyen d'instruction.

Conscients de ces problèmes, les décideurs ont pris de nombreuses décisions dans le but de les résoudre. Ainsi, plus d'heures ont été consacrées à l'enseignement du français. Les enseignants de disciplines scientifiques ont reçu des heures supplémentaires pour introduire la terminologie française. La traduction de terme scientifiques est devenue une discipline scolaire parmi d'autre. Pourtant, aucune des actions entreprises n'a résolu le problème pédagogique majeur de l'échec de communication entre enseignants et étudiants. Il est vrai que le processus d'arabisation des matières scientifiques en particulier a sa part dans ce problème, mais il n'est en aucun cas la seule cause de l'échec du système éducatif marocain (Benlazmia, 1994).

Quoi qu'il en soit, le français joue un rôle éminent au Maroc. En raison de la généralisation croissante de la scolarité et l'explosion démographique, le nombre de francophones augmente. Toutefois, les personnes qui ont une éducation et une culture francophone, comparées aux anglophones, vont diminuer corroborant le changement de statut du français de langue seconde à langue étrangère (Santucci, ibid.).

Face à cette situation linguistique conflictuelle entre l'arabe et le français, les Français ont opté pour une gestion douce des conflits. Les autorités locales sont consultées dans les décisions des stratégies adoptées qui sont moins institutionnalisées et moins centralisées. Il s'agit d'une tentative de garder pour le français sa position en tant qu'outil de développement et de coopérer avec les autorités marocaines dans le domaine de l'enseignement du français. Les Français tentent également de diversifier les secteurs susceptibles d'aider l'acquisition linguistique à l'école, comme le cinéma, la radio et la télévision, et de parvenir à un équilibre entre l'enseignement du français et l'arabe, en encourageant l'enseignement et l'apprentissage de la langue arabe dans les écoles françaises établies au Maroc (Santucci, ibid.).

Pourtant, l'objectif de la France n'est pas d'aider les pays francophones à se développer. Cette idée est clairement exprimée par le sociolinguiste français Calvet (1974) qui a établi un historique de la notion de «francophonie» pour être en mesure de la définir. L'idée de «francophonie» remonte à 1964. La coïncidence de la naissance de l'idée avec l'indépendance de nombreux pays africains n'était pas accidentelle, elle représente le spectre de l'impérialisme culturel français. A l'exception de la France, tous les pays francophones vivent une situation de bilinguisme. Dans une telle situation linguistique, la relation de domination du français sur les langues autochtones est très répandue. El Couri (1998) remarque à juste titre que la France est le pays le plus monolingue en Europe car elle n'encourage pas ses dialectes locaux tels que l'Occitan, le Basque etc. En outre, elle donne la priorité au français sur toutes les langues étrangères.

Par conséquent, l'existence de la «francophonie» au Maroc est liée à l'histoire de la colonisation des Français. Qu'ils utilisent la langue française pour des objectifs économiques ou pour la création d'un marché mondial dans lequel les produits français peuvent trouver des clients potentiels. La notion de «francophonie» peut également être un instrument des relations internationales au profit de la politique française et de son économie (Elgherbi, 1994).

Les marocains sont loin de tout échange culturel qui peut être bénéfique pour les pays du tiers monde afin de développer leurs particularités culturelles. La «francophonie» de ce point de vue est tout

simplement la culture française, qui vise à représenter un obstacle à la propagation continue de la langue anglaise et même arabe (Elgherbi, ibid.).

Néanmoins, selon Calvet (1987) la langue française en baisse en comparaison avec l'anglais. Le français est la langue officielle dans de nombreuses institutions internationales. Il coexiste avec des langues comme l'anglais, l'espagnol, le russe, l'arabe et le chinois. Pourtant, l'anglais semble dépasser le français dans tous les domaines. Le nombre d'anglophones est de loin plus important que les francophones. En outre, les pays anglophones sont les plus développés sur le plan économique, politique et culturel.

Conclusion

Une des solutions proposées pour résoudre le problème de l'apprentissage de l'arabe est d'essayer de combler le fossé entre les langues maternelles et l'arabe classique dans le but de faire de cette langue un outil efficace de communication. En outre, les maisons d'éditions devraient utiliser explicitement les voyelles dans les documents imprimés de sorte que le processus de la lecture, la compréhension et la transmission soit plus facile. Par conséquent, il est à noter que le développement de l'arabe, comme d'autres langues, est lié au développement économique, politique, entre autres, de ses utilisateurs. La langue française est confrontée également à de nombreuses difficultés. En effet, on a montré que l'apprentissage du français ne peut réussir n'importe où et n'importe comment. On a souligné que la France devrait plus impliquer les pays francophones, comme c'est le cas au Québec, davantage aux décisions concernant d'éventuelles réformes de la langue française. On a conclu que le Maroc a opté pour un bilinguisme arabo-français qui a des avantages et des inconvénients. Néanmoins, les langues française et arabe sont à la traîne comme langues de la science et la technologie. Par conséquent, si il y'a un besoin au Maroc pour une langue étrangère ayant accès à la technologie, les décideurs devraient penser à l'anglais. Par conséquent, la notion de francophonie n'est rien d'autre qu'une manière qui péremiser l'hégémonie française politique, économique et linguistique sur les pays francophones sous-développés.

Bibliographie

AL-Lissan Al-Arabi N°45, (1998).

Benjelloun, S. (1990) *«L'arabe de La Langue Maternelle à La Langue De L'enseignement»* in Pleines, J. (ed.) (1990).

Benlazmia, A. (1994) *«L'enseignement de La Langue Française Dans le Contexte de l'Arabisation»* in la Revue de L'association Marocaine Des Enseignants De Français (Eds.) (1994)

Benyaklef, M. (1980) *Pour une Arabisation de Niveau*, impressions Graphoprint, Casablanca.

Calvet, L.J. (1974*) Linguistique et colonialisme*. Ce livre a été partiellement traduit in Ouadghiri (ed.) (1983).

Calvet, L.J. (1987) *La guerre des langues et les politiques linguistiques*. Ce livre a été partiellement traduit in Ouadghiri (ed.) (1993).

El Couri, M. (1998) « *La politique d'arabisation du Maghreb et la position française* » In Al-Lissan Al-Arabi, 1998.

Elgherbi, M. (1994) «*La francophonie, l'arabisation et l'enseignement des langues étrangères au Maroc*» (In Arabic) translated from French by Ouslim, M., Sindi, Meknès.

Ennaji, M. (1991) "*Aspects of Multilingualism in the Maghreb*" in Ennaji, M. (ed.) (1991).

Ennaji, M. (1991) (ed.) *Sociolinguistics of the Maghreb*, International journal of the Sociology of Language, N° 87 Mouton de Gruyter, Berlin.

Grandguillaume, G. (1983) *Arabisation et Politique Linguistique au Maghreb*, Maisonneuve & larose, Paris.

Henry, J. R. (ed.) (1986) *Nouveaux Enjeux Culturels au Maghreb*, Edition C.N.R.S, Paris.

Lakhdar-Ghazal, A. (1977) *Méthodologie Générale de L'arabisation de Niveau,* I.E.R.A Press, Rabat.

Lamalif N° 190, Month 07, Sonir, Casablanca (1987).

Laroui, A. (1982) «*L'Arabisation et les Particularités de la Présence et de l'Unité Arabe*» (In Arabic). In Le Centre d'Etudes de l'Unité Arabe (In Arabic) (eds. 1982).

Le Centre d'Etudes de l'Unité Arabe (1982) (ed.) *L'arabisation est son rôle dans la consolidation de la présence et l'unité arabe* (In Arabic), I.E.R.A, Beyrouth

Moatassime, A. (1992) *Arabisation et Langue Française au Maghreb*, Presses universitaires de France, Paris.

Ouadghiri, A. (1993) *La Francophonie et la Politique Linguistique et Educationnelle Française au Maroc* (In Arabic). Najah Edition, Casablanca.

Pleines, J. (Ed.) (1990) *La Linguistique au Maghreb*, Okad, Rabat.

Radi, A. (1987) «*Arabisation ou Bilinguisme*» In Lamalif (Eds. 1987).

Revue De L'association Marocaine Des Enseignants De Français N° 4, Arabia Alhilal, Rabat (1994).

Santucci, J.C. (1986) «*Le Français au Maghreb Situation Générale Et Perspective D'avenir*» In Henry, J. R. (Ed.) (1986).

Zirari, N. (1992) "*Entretien avec le Professeur Ahmed Lakhdar-Ghazal*" In Le Courrier Informatique N°12. Centre National de Documentation.

ARAB LEAGUE EDUCATIONAL, CULTURAL AND SCIENTIFIC ORGANIZATION

(ALECSO)

Bureau of Coordination of Arabization

RABAT (MOROCO)

P.O. Box : 290

AL-LISSAN AL-ARABI